الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التـــــعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبو بكر بلقايد تلمســـان- الجـــزائر -
كلية العلوم الانسانية و العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ

نظام الصحة والغذاء بالمغرب الإسلامي ما بين (4 ـ 8هـ/ 10 ـ 14م).

أطروحة دكتوراه ل. م. د في تخصص تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي.

من إعداد الطالب: كريم بوعبـد الله.
تحت إشراف: أد: عمر سي عبد القادر.

أعضاء لجنة المناقشة:

الرقم	الاسم واللقب	الرتبـــــة	الجامعـــــــــة	الصفـة
01	قاسمي بختاوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان.	رئيسا
02	عمر سي عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان .	مشرفا ومقررا
03	عبد الرحمان بالأعرج	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مناقشا
04	محمد عليلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تيارت	مناقشا
05	رضوان هواري	أستاذ محاضر- أ-	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
06	مصطفى مغزاوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشلف	مناقشا

السنة الجامعية: 1447 ـ 1448هـ / 2025 ـ 2026م.

الاهداء

إلـى روح والديّ الطاهرة - رحمة الله عليهما -

إلـى كافة أفراد عائلتـي الذين صبروا على انشغالي بهذه الأطروحـــة في وقت مستهم الحاجة فأدركت أنها تضحية تستحق الشكر والعرفان.

وإلـى كل من أفنـى عمره للعلم والمعرفـة.

شكر وتقدير

الحمـد لله الذي تتم بفضله الصالحات وأحمده وأشكره علـى ما أنعم علي من فضله وعطائه، وما مدني من جند قوته، وما ألهمني من نور علمه.

إن هذا العمل هو إلا ثمرة عمل ساهمت فيه مجموعة قدّر لها الله أن تنال ثواب تكرمها وسخائها لإنجاز هذه الأطروحة، وإني لممنون لهم على هذه المساعدة، وأخص بالذكر السيد الأستاذ المشرف سي عبد القادر عمر الذي أشعرني بالأمان في وقت أجهدني هذا العمل، كما أخص صديقي ودرب عملي الدكتور طاهر بخدة الذي كان لي عوناً وسنداً قويا، ولا أنسى الدكتور الواعد محمد الأمين بوحلوفة على وفائه وإخلاصه في مد يد المساعدة، والأستاذ قبلي حمودة وأخي وصديقي الدكتور عثماني عابد.

فللجميع أسمى عبارات التقديـر والاحترام، كمـا أشكر اللجنة الموقرة التي أبت إلا أن تناقش وتقيّم هذا العمل.

مقدمـــــة

مقدمة:

تُعدُّ قضايا الغذاء والصحَّة من أبرز المواضيع الحضارية التي اهتم بها الإنسان منذ العصور القديمة لِما لها من أثر مباشر في استقرار المجتمعات واستمرارها، وقد ارتبط نظام الغذاء والصحة في المغرب الإسلامي بجملة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية التي ساهمت في تنظيم الحياة اليومية للسكان، وضبط أساليب العيش، والعناية بالصحة العامة.

تندرج هذه الرسالة ضمن الاهتمام بالكشف عن واقع النظام الغذائي والصحي في المغرب الإسلامي خلال القرون الرابع إلى الثامن هجري/10-14م، حيث عرفت هذه الفترة تحولات سياسية واجتماعية انعكست على أنماط التغذية، ووسائل الوقاية والعلاج، كما تهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور المؤسسات الطبية والرقابية في الحفاظ على الصحة العامة، والحد من انتشار الأمراض والأوبئة، إضافة إلى التعرف على أهم العادات الغذائية السائدة، ومدى تأثيرها في المجتمع.

إنَّ موضوع النظام الغذائي والصحي في المغرب الإسلامي خلال فترة الدراسة يعد من المضامين القليلة التي عالجت عواقب مشكل الغذاء وتهديده للصحة، وأن التذكير بالأخطار قبل التذكير بالنعم في هذا الموضوع هو مصلحة نافعة للأمة، ذلك ما حفزني ودفعني لاختيار هذا الموضوع باعتباره طرحا جديدا غير مطروق بكثرة في عالم التأليف والتدوين التاريخي، وكذا كسر تقاليد المواضيع الكلاسيكية التي صالت وجالت في الجانب السياسي والعسكري والاقتصادي، لذا بحثت عن سياقات جديدة غير مألوفة وبمصطلحات وسندات وشواهد يغلب عليها الطابع العلمي في مجال الصحة وفن الطعام والشراب، ومن الدواعي الأخرى لاختياره أنه طرح جديد يستسيغه القارئ، لأن في ذلك رسالة تتيح للفرد اتباع نظاما غذائيا يضمن سلامته الصحية.

فالصحة والمرض كفتان تتأرجحان دوما في ميزن الحياة ويظل مؤشر هذا الميزان يروح ويجيئ حتى يستقر على الجانب المقابل للحظة الميلاد، ليكون الموت لحظة التأرجح.

إذا كان الحديث عن نظام الغذاء والصحة في المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط وما توفر من سبل وشروط توفير غذاء آمن ونظام صحي مريح، فهذا لا يمنع من وقوع أزمات تهدد استقرار السكان من حيث الوفرة والنوعية. واستجابة لهذه الإشكالية ارتأيت أن أضع تساؤلا عاما يساير محطات البحث بمختلف مضامينه.

الإشكالية: ما هي درجات ومستويات النظام الغذائي والصحي التي حققها المغرب الإسلامي خلال فترة الدراسة؟ وذلك في ظل طرح عدة تساؤلات بغرض تحقيق الوحدة العضوية للأطروحة وفي سياق متوازن جاء على الشكل التالي:

* إذا كان الإنتاج الزراعي أساس ضمان لغذاء، فما هي البيئة التي ساهمت وساعدت على توفيره؟

* كيف أثرت فئات المجتمع في ضبط أذواق وموائد الطعام ؟ وهل هو فن من فنون الثقافة الشعبية؟

* ما هو النمط الغذائي الذي تم استحداثه زمن الأوبئة والحصارات والمجاعة؟ وكيف ساهمت المدرسة الصوفية في التخفيف من حدته؟

* ما الوضع الصحي العام في بلاد المغرب، وماذا ترتب عنه من أوبئة وأمراض، وما هي أساليب الوقاية.

تطرقت لهذا الموضوع كثير من الدراسات السابقة، منها مقالا للقادري بوتشيش حول ثقافة الطعام المنشور في مجلة عصور الجديدة، وأيضا سهام الدبابي الميساوي في كتابها

الموسوم بـ: **مائدة إفريقية دراسة في ألوان الطعام،** ولم يكتفي هذا الكتاب فقط في البحث عن الأغذية التي كانت تنتجها إفريقية وتستوردها وتعرضها في الأسواق لأهلها، فقد وظفت دراسات كثيرة اهتمت بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والتذكير بما حدث وما اندثر من طعام وأطباق، وما بقي وما ثبت على حاله وما تغير، وما تطور وما كان أصيلا في البلاد وما جاءت به الأقوام المهاجرة، فإن كان هذا في المغرب الأدنى عند بني حفص ففي بلاد المغرب الأوسط نال موضوع الغذاء نصيبا أوفر عند الباحثة حورية شريد بأطروحتها الموسومة بـ: **تطور المطبخ المغربي وتجهيزاته من عصر المرابطين إلى نهاية العصر العثماني دراسة تاريخية وأثرية،** وقد عالجت هذا الموضوع بدقة كبيرة مستخدمة أدوات وتقنيات شروط الطبخ وتجهيزاته وأدواته وأثاره على فن الطهي الذي بلغ درجة منافسة المطبخ الأندلسي، وذلك عبر مرحلة تاريخية جد دقيقة والتي أشرنا إليها من خلال محطات تاريخية عرفها المغرب الإسلامي، وقد خاضت الباحثة زينب ملياني في هذا النوع من المواضيع بأطروحة موسومة بـ: **الأطعمة والأشربة بالمغرب والأندلس في عصري المرابطين والموحدين** " من خلالها عالجت إشكالية مادة الطعام كثقافة اجتماعية تثبت هوية الأمة على أساس أنه سلوك اجتماعي يرتبط بنظام غذاء السكان في المغرب والأندلس.

فالأطعمة وفن الطبخ له علاقة وطيدة بالعادات والتقاليد الشعبية، فضلاً عن ارتباطها بالدين والأدب الشعبي، كما أسهمت الدراسات الأجنبية في هذا النوع من المواضيع وبثقافة وتصورات خاصة بهم، فمقال ديفيد وينز الموسوم بـ: **فنون الطبخ بالأندلس،** وقد تم ربط الغذاء بالصحة من خلال علاقة جدلية وردت في كتابات بعض الدارسين مثل منى خليل عبد القادر وآخرون في أطروحتها بعنوان: **أساسيات علم التغذية.**

ما شاع عن فن الطهي وتقديم الموائد بأصناف الطعام، قد كان سائدا في العهد العباسي، ذلك ما أسهبت فيه فوزية عبد اللطيف شحادة في أطروحتها " **فن الطبخ والموائد في العصر العباسي** ".

وبناءً على هذه الاستفسارات والتساؤلات وما تم التطرق إليه خلال مضمون الأطروحة، تبين أن هناك مزيجا من المناهج يجب استخدامها كل حسب وظيفته وهدفه، فالمنهج التاريخي يعد من أولويات هذه الرسالة، فهو مسؤول عن جمع وتقصي المعلومات التاريخية وترتيبها وتأصيلها ليفضي إلى إثراء المادة العلمية من خلال تنوع مصادرها، إلا أنَّ بعض المضامين تطلبت منهجا آخر هو المنهج الإحصائي الذي تم توظيفه على أساس جمع البيانات وأنواع الأمراض وإطارها الجغرافي، والمبني على أسس علمية، تعتمد على المعارف الملموسة كإحصاء عدد المرضى وتصنيف الأدوية والطب والنباتات والوباء، وقد كان للمنهج التحليلي مساهمة اعتمدت على رسم وتحديد علاقة الوباء بالمجاعة، وعلاقتهما بأزمة الغذاء، ذلك من خلال الحصارات التي تعرضت لها بعض المدن مثل تلمسان ومراكش وما نتج من مجاعات وأوبئة صعب إيقافها.

إذن تعدد مناهج البحث في هذه الأطروحة يعني تشعب أهدافها وأبعادها الاجتماعية والاقتصادية، لأن عاملي الصحة والغذاء تجمعهما علاقة تكامل وتجانس، ولا ينفصلان عن بعضهما.

وانسجاما مع طبيعة الموضوع والمناهج المتبعة تم وضع خطة تحافظ على توازن الأطروحة وذلك وفق ما تحتاجه من مادة علمية، فتضمنت فصلا تمهيديا وأربعة فصول منها ثلاثة للنظام الغذائي وفصلا واحدا للنظام الصحي.

الفصل التمهيدي: يعد مدخلا هاما في الأطروحة، خلاله تم تحديد المعالم الجغرافية لبلاد المغرب لأن ذلك له علاقة لما يرد في المتن، ومن خلاله نستنطق الظروف الطبيعية

والمناخية والمياه، وقد توصلنا إلى تصنيفين ومعيارين له، فالمعيار السياسي تبنته الأحداث السياسية والحروب وقوات الجيوش، فالمساحات والحدود خضعت لمنطق القوة والنفوذ كما هو الحال عند الموحدين والمرابطين ودويلات المغرب الإسلامي بعد موقعة العقاب، فقد تداخلت الحدود أكثر من مرة كتأثر الحدود الشرقية بفتوح عبد المؤمن بن علي لبلاد إفريقية وطرابلس، بينما المعيار الجغرافي استند على ثلاثة أسس، فمنهم من اختار الحواجز الطبيعية كأساس لتعريفه كابن حوقل الذي اتخذ من وادي النيل حدا فاصلا له من الجهة الشرقية، بينما استند بعض الجغرافيين في تحديد معالم حدود المغرب الإسلامي على العامل البشري كقولهم أنّ السكان الأصليين لبلاد المغرب هم البربر، موطنهم من البحر المحيط غربا إلى طرابلس شرقا، واعتمدوا في حياتهم اليومية على الترحال والتنقل، في حين استخدم البعض منهم الأوضاع الإدارية والسياسية أساس التقسيم كالذي حدث حين استقلت أرض الأندلس عن الخلافة العباسية والذي أصبحت فيه بلاد المغرب موضع نزاع بين أمويي الأندلس وفاطميي إفريقية.

الفصل الأول: - الإنتاج الزراعي في ظل أساليب الري وجودة الأرض: من خلاله تم الخوض في الإنتاج الزراعي، والذي له فضل كبير في تحديد مستوى النظام الغذائي إلا أن ذلك لن يتأتى إلا في ظل جودة التربة وتوفر الماء، وقد لمسنا ذلك من خلال عدة أمثلة أنَّ بلاد المغرب الإسلامي تتنوع بها الأراضي والتربة الخصبة كما هو الشأن في الأندلس، فكانت الدراسة مستفيضة عند ابن البصال الذي استخدم هذا العلم الذي يستند على البرهان، وأنَّ الزراعة لا قوام لها إلا بالتربة والماء، وتم التطرق لمصادر المياه، وقد بلغ الأمر بالملوك والأمراء إلى تشجيع الفلاحة وإقامة الحدائق الملوكية وجعلوا من الفلاحة أساس الاقتصاد ذلك ما شجع المهندسين لتجريب معارفهم النظرية.

الفصل الثاني: أصناف الأطعمة في بلاد المغرب الإسلامي بين مجتمع العامة ومجتمع الخاصة: في هذا الفصل تم التطرق إلى مفاهيم عديدة ومصطلحات تخص الغذاء والتغذية، حتى يتسنى لنا وللقارئ الوقوف على مدلول كل لفظ داخل هذا المجال، فقد كان لفن الطهي والطبخ حيزا في الثقافة الشعبية كالزجل والشعر، ذلك ما شجع على تطور فن إعداد الطعام الذي هو مظهر من مظاهر التحضر والرقي الاجتماعي، وهو امتداد للمد الحضاري الأندلسي الذي تجمعنا به روابط قوية من خلال الهجرات المتبادلة أو الحركة التجارية النشيطة، فقد تنوعت الأذواق والموائد باختلاف تركيبة المجتمع كل حسب مقامه وثقله، ففن الطبخ والطهي في بلاد المغرب تحول إلى رهان ثقافي حضاري إذ أصبح سلوكا ثابتا وعادة محكمة بين أفراد المجتمع، فقد كسب الفرد بعض أدبيات الموائد وتخلق بحسن الأدب من خلال تقديم الطعام، وكان للطب دورا كبيرا في تحديد قوائم الغذاء الصحي حتى يخفف من أعباء الوباء والأمراض، إذن في هذا الفصل ظهرت قيمة الغذاء من حيث الإعداد والتحضير ثم التقديم والعرض إلى درجة تجسيده في ثقافة الشعب.

الفصل الثالث: النظام الغذائي زمن الشدة: خلاله ذكرنا مساوئ مخلفات وآثار الحصار والأمراض والأوبئة وتهديدها للنمط المعيشي المألوف زمن الرخاء، ففي زمن هذه الدراسة اصطدم سكان المغرب الإسلامي بمآسي عديدة هددت وجودهم وأرغمتهم على نمط معيشي فاسد، وغيرت من أساليب الكسب الحلال والشرعي، فقد اتخذ سكان بلاد المغرب طرقا كثيرة في كسب قوتهم كالتغذي على النبات قبل نضجه والعودة إلى الأغذية النباتية والالتجاء إلى البحر لتأمين قوتهم واستخدام الطرق البدائية كالجمع والالتقاط واستعمال أساليب التهديد والسلوك العدواني كحق شرعي في كسب الغذاء ومعالجة الأسباب، إنها سلوكيات ناتجة عن ظروف قاسية غرضها الحفاظ على البقاء، وإنها عادات غير مألوفة في المجتمع، ولشدة هول هذه الظروف أصبحت محط حديث العام والخاص،

وتضرب بها الأمثلة ذلك ما تداولته الذاكرة الشعبية بسياق تهكمي وهزلي عند البعض، إلا أن الخطاب الفقهي والصوفي عن هذه الأغذية كان معتدلا واعتبرها مرحلة اختبار للإنسان، والبعض رآها عقابا ربانيا نتيجة ذنوب اقترفوها.

مثَّل الفقهاء عضد الأمة، فرخصوا وأباحوا تناول بعض الأغذية الشاذة عملا بقاعدة الضرورات تبيح المحظورات كأكل الميتة، أمَّا الدولة فقد مثلت الراعي الرسمي للرعية فأفرغت الأهراء ومخازن المؤونة، وفرضت الضرائب على المحتكرين وخفضت من الأسعار للفقراء، هذا ما استوفاه هذا الفصل من حقائق.

الفصل الرابع: الأمراض والأوبئة وطرق الوقاية منها في بلاد المغرب الإسلامي: كان أكثر إثارة من حيث ترابط عناصره، فقد تعرض إلى تاريخ تطور الطب، وكان الاعتقاد الشعبي سائدا ومستفحلا، ففي العهد الأغلبي راجت فكرة حفظ الصحة للبدن فظهر فقهاء البدن كمحمد بن فرج، وظهر أول دمن – بيمارستان – بتونس سنة 261ه/874م، وساد نظام الاهتمام الصحي في عهد الدولة الفاطمية وذلك من خلال شخص عبدوس بن زيد فنعمة الصحة أصبح لها اهتمام كبير، ومن مظاهرها أنَّ المدن كانت أكثر عرضة للوباء بسبب فساد الهواء، في حين نجت البادية بنسبة أقل، ذلك ما ساقه ابن خلدون، فانتشر الطب بالحواضر كغرناطة وتلمسان وفاس، وتم ترجمة الأعمال الكلاسيكية خاصة منها كتب الإغريق، والظاهر أن المجتمع أصبح ينظر لهذه الأمراض والأوبئة باعتقاد آخر، فقد أرجع أسبابها إلى كثرة المعاصي وغضب من الله، ويعد هذا شق هام في هذا الفصل وله دلالات اجتماعية ودينية، واعتقدوا أنه وخز من الجن، وفي ظل هذا التفكير أصبح السكان يرهبون الموت إلى درجة اعتقاد الحكام والملوك في بلاد المغرب أنهم أرجعوا فشل حملاتهم بغرض استمرار التوحيد إلى عواقب الأوبئة، ذلك ما حصل للسلطان المريني أبي الحسن حين أراد غزو بني حفص.

إنَّ انتشار الأمراض والأوبئة من طاعون وحصبة وحمى أعاق النشاط التجاري وأضعف الحركة الثقافية رغم خصوبة حركة التأليف أخذا بمقولة الأزمة تلد الهمة.

وإذا كان السلاطين قد أرجعوا فشل حملاتهم التوحيدية التي سبق ذكرها، فهذا لم يمنع الدولة من إيجاد حلولا لمعضلة الأوبئة والأمراض، والتي تجلت في بناء البيماريستانات في مراكش وتلمسان، وإلزام المريض بطاقة خاصة به يحملها في تنقلاته حتى يبقى تحت الرقابة الصحية، وإحصاء تغيراته الجسدية، كما كان للأطباء إسهامات في التخفيف من ذروة هذه الأمراض، وإسعاف المرضى وإكسابهم سعادة المرافقة وذلك من خلال عدم تلقي الطبيب ثمن علاجه للمرضى إلا بعد شفائه، وهذا في حد ذاته يعتبر تكافلا اجتماعيا وتضامناً بين السكان الذي تكفله الدولة والطاقم الطبي، ومن الأساليب الأخرى المستخدمة في حفظ الصحة هو أسلوب العزل الصحي لمنع انتقال العدوى.

لقد كان للأغذية الصحية استعمالا واسعاً بين السكان وذلك بتوجيه من الأطباء لما لها من مخرجات صحية ككتاب ابن النفيس.

عرف المغرب الإسلامي زمن الفترة المدروسة اضطرابات وانعدام الأمن الصحي، وكثرة الجوائح التي ذهب ضحيتها الكثير من الساكنة، فتسارعت جهود الدولة والفقهاء والأطباء لاحتواء هذه الظروف الصعبة.

من خلال تحرير هذه الأطروحة تبين أن المصادر التاريخية أولت اهتماما للتاريخ السياسي وذلك تماشيا مع الظروف والاضطرابات التي عرفها المغرب الإسلامي من انقسامات باعتبارها محطة أطماع استعمارية منذ القدم، وحتى ما بعد الفتح الإسلامي ذلك ما تطرقنا إليه من صراع محتدم بين أمويي الأندلس وفاطميي مصر، لذا قلت الكتابات لدى المصادر ذات التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، علما أن هذا النوع من

الكتابات يعزز عطاؤه ويتجدد محتواه في أوقات الرفاهية أو أوقات الشدة، وقد ساهمت هذه الأوضاع ولو بقدر يسير على التأليف والتدوين، وفي ظل هذه الصعوبات وهذا النقص كان البديل كتب النوازل والمصنفات الفقهية التي ارتقت إلى درجة الوثيقة التاريخية، والإشكال الثاني في هذه الأطروحة أنها تضمنت ثنائية متلازمة الغذاء والصحة ومنه، هل النظام الغذائي هو أساس سلامة الصحة وتدهورها ؟ أم أنَّ الصحة هي سبب توفر الإنتاج وصناعة الغذاء؟

ومن هذه التجاذبات والاستفسارات التي طرحت في بحثنا هذا أجد نفسي أمام طرح عدة فرضيات تعزز النقاش كعامل الهجرة والحصار وما مدى تأثيرها على الجانب الصحي والغذائي، علماً أن هذا النوع من الأطاريح قد سبق دراستها إلا أن ما درس، وما عولج لم يفي بالغرض، بل يبقى بحاجة إلى دراسة مستفيضة وشاملة تتحكم فيها الجوانب المعرفية والمنهجية، وحتى طبيعة الإشكالية التي يجب أن ترقى إلى درجة العمل بالبيانات والبراهين كما يتوجب التمكن في علم المصطلحات الذي يعد مفتاح السياق العلمي في معالجة مثل هذه المواضيع، فالإطناب والاسترسال في العرض لا يخدم أهداف الأطروحة التي تسعى إلى تحقيق نمط بحثي جديدً. هذا كل ما أدركته وحسب اجتهادنا المتواضع الذي هو قابل للنقد أو التعديل والتصويب.

عرض ونقد المصادر والمراجع:

ألزمتنا هذه الأطروحة التي عالجت موضوع الغذاء والصحة في المغرب الإسلامي خلال فترة هذه الدراسة أن ننتقي مصادر مختلفة تعالج هذا الموضوع من عدة زوايا بغرض الإحاطة بمختلف جوانبه، واعتمدنا على بعض المصادر ذات العلاقة المباشرة والتي تُعد كركائز لهذا البحث، منها:

كتب الطب والصيدلة: تعد هذه المصادر عماد البحث باعتبار متخصصة في الجانب الطبي وصناعة الأودية التي تدخل في العلاج، نذكر منها:

* **عيون الأنباء في طبقات الأطباء:** لابن أبي أصيبعة (ت668هـ/1270م) ترجم فيه للأطباء القدامى، وما يهمنا في مؤلفه هذا ما ورد في الباب الثالث عشر الذي خصصه لطبقات الأطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب الإسلامي وأقاموا بها، ترجم فيه لتسعة وثمانين من أطباء بلاد المغرب والأندلس، وقد استفدنا منه في ترجمة أولئك الأطباء.

* **أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة والطبخ في الأندلس في عصر الموحدين:** لمؤلف مجهول، يبرز جانبا من الحضارة الأندلسية والمغربية، وخاض في مجال الإنتاج الزراعي الذي يعد من ضمن اهتمامات بحثنا، وفي مجال العلوم خاصة علم النبات والحيوان وعلم الصيدلة والأدوية وعلم الطب، تضمن كتابه خمسمائة واثنا عشر لونا من الأطعمة تُحضر من منتجات نباتية.

* **المختار في الأغذية:** لابن النفيس (ت687هـ/1288م) أخذت واستفدت من علومه الكثير لما يتميز به من منافع طبية وصحية ميسرة ومصاحبة لكل فئات المجتمع، وهذا الكتاب يحصر الأغذية الموافقة للأبدان الإنسانية في حالات الصحة والمرض بما يعرف قديما بدستور الأغذية وهو تأليف طبي عربي ومن أقواله " ينبغي أن لا تعوِّد الطبيعة الكسل، بأن تعالج كل انحراف عن حال الصحة حيث أمكن التدبير بالأغذية فلا تعدل الأدوية.

* **طبقات الأطباء والحكماء:** لابن جلجل (ت.ب384هـ/994م) يكتسي قيمة وأهمية كبرى في التاريخ للحركة العلمية إذ يؤرخ لصناعة الطب، وقد استفدت منه في هذا الجانب أي الطب كعلم وأثره على الصحة.

كتب الفلاحة: لهذه الكتب علاقة بالموضوع باعتبارها مصدرا يؤرخ للعمل الفلاحي وأساليب ممارسته وأنواع المحاصيل الزراعية التي تدخل في النظام الغذائي الذي هو عامل أساسي في تحديد الوضع الصحي للسكان، أهمها:

* **كتاب الفلاحة:** لابن البصال (ت498هـ/1095م) ذلك حسب قول ابن الأبار، ما لفت انتباهي في هذا الكتاب هو احتوائه على مادة غزيرة في علوم الزراعة والتي هي من انشغالات واهتمامات كتابتي في هذا العرض، عالج موضوع الري والسقي والزراعات المختلفة وطرق تحسين ومعالجة التربة وتقنيات السقي وهو ما أدرجته في الفصل الأول من البحث، ويعد هذا الكتاب من أوائل كتب الفلاحة بالأندلس قبل ابن العوام الإشبيلي (ق6هـ/12م) حيث يظهر فيه تأثره بالتراث الزراعي القديم اليوناني اللاتيني، ولابن البصال مؤلفات أخرى في هذا السياق لا تزال مخطوطة مثل: زهر البستان ونزهة الأذهان، وقد كانت للمؤلف تجارب في علم الغراسة كالرمان وشجر التين واللوز...

كتب الجغرافيا والرحلات:

* كتاب الجعرافيا لابن أبي بكر الزهري (ت546هـ/1151م) خلاله تم وصف أقاليم المشرق والمغرب، وطغى في أسلوب تدوينه وكتابته، المعاينة والمشاهدة والزيارات، ويعد الجزء السادس من كتابه الحلقة التي درست بلاد المغرب، ويعني المغربين الأوسط والأقصى والسوس، وخصائصه الطبيعية، وما دفعنا للاستشهاد به في بحثنا تطرقه للمحاصيل الزراعية والنباتية، كما استفدنا منه في مجال ضبط الحدود الجغرافية لبلاد المغرب الإسلامي.

* **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** للشريف الإدريسي (ت558هـ/1163م) وقد خص الجزء الأول بالحديث عن بلاد المغرب وحدودها من مصر إلى بحر الظلمات، ويقول عنه السيد عبد العزيز سالم أنه يعتبر أعظم جغرافي عربي مسلم في العصور الوسطى، وكتابه يزخر بالمعلومات الصحيحة، إذن هذا الكتاب يعد قيمة مضافة لهذه الأطروحة، وذلك يعزز من قيمة أي بحث تاريخي.

* **كتاب المسالك والممالك** للبكري (ت487هـ/1094م) ساق لنا من خلاله أخبارا ذات أهمية عن الدول الأولى التي قامت ببلاد المغرب الإسلامي، وفي جزئه الثاني تحدث عن

المغرب الإسلامي كما تعرض إلى التقسيمات الجغرافية للأندلس، فكونه لم يغادر الأندلس إلا أنه جمع الكثير من مؤلفات الجغرافيين، مكنته من إرساء وتحديد معالم حدود المغرب الإسلامي وقدرته على تحليل مواقع الحدود.

كتب الفتاوى والنوازل:

الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي يحيا المازوني (ت883هـ/1478م) جمع في هذا الكتاب فتاواه باعتباره أحد القضاة، وجمع من فتاوى كثر من فقهاء المغرب الإسلامي خاصة الفقيه محمد بن مرزوق وسعيد العقباني وأبي القاسم عبدوس، فنوازله أظهرت مستوى المدرسة الفقهية المغاربية من خلال دور ومراكز العلم مثل تلمسان وبجاية وتونس، فالدرر المكنونة تعد عنصرا أساسيا من عناصر الفقه المالكي، فالجزء الرابع أمدنا بما يليق بمحتوى أطروحتنا، وذلك ما تعلق بمسائل السقي وقوانينه والمغارسة.

المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي (ت914هـ/1508م) تكمن هذه الموسوعة الفقهية في كون صاحبها جاء متأخرا وعمل على جمع فتاوى الفقهاء الذين سبقوه والمعاصرين له في مختلف القضايا، وشملت اهتماماته النوازل الحادثة في كامل الغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين وبداية القرن العاشر.

تعد هذه المدونة الفقهية ذات أهمية بالنسبة للبحوث ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي والشرعي، التي تخص سكان الغرب الإسلامي لما تضمنته من قضايا، وقد أفادنا هذا النوع من المصادر الفقهية بتلك النوازل المتعلقة بالنظم الغذائية السائدة في المجتمع، وقد أزالت الالتباس الذي مس المجتمع وعلاقته بالغذاء المرتبط بالظواهر الاجتماعية التي انعكست على مصادر الغذاء والطعام، وتطرقه لأغذية زمن الشدة والأغذية البديلة.

كتب السير والتراجم والمناقب:

التشوف في أخبار التصوف لابن الزيات التادلي (ت627ه/1299م) وهو من كتب المناقب ينقسم إلى ثلاثة أقسام، قسمه الأول تضمن سبعة أبواب خصصها لذكر صفة الأولياء وحفظ قلوبهم وترك التكبر، وفي محبتهم وزياراتهم وإثبات أحوالهم وكراماتهم، وقد تكرر تداول هذا الكتاب في العديد من المرات خاصة ما تعلق بإسهامات الصوفية في نجدة السكان من آثار الجوع والحصار، وكيف كانت هذه المدرسة تؤثر على نفسها خيرات الحياة لغيرها، وأمدتني بأسماء مشايخ الصوفية التي كان لها فضلا كبيرا في التخفيف من أعباء الأمراض من خلال الكرامات والأدعية، وقد وجد فيهم السكان راحتهم النفسية.

كتب التاريخ العام:

* **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون (ت808ه/1406م) تضمن كتابه هذا أربعة أقسام، خصص القسم الثالث منه للمغرب الإسلامي من خلال الحديث عن البربر وأجيالهم، به مجلدين وفيه عرض دقيق وشامل، يتميز بصحة المعلومات، وخاض في عدة وظائف ككاتب ديوان لدى بعض سلاطين دول المغرب الإسلامي، كما كُلف بعدة سفارات وقد أكسبه ذلك خبرة ومعرفة بأحوال سكان بلاد المغرب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وقد أفادنا في ضبط معالم حدود المغرب الإسلامي، ومعرفة الأحوال الاجتماعية وما تعلق بها من أمراض وأوبئة ومجاعات وحصار.

المراجع: إضافة إلى المصادر المذكورة أعلاه، اعتمدنا على مجموعة من المراجع والدراسات المتخصصة، نذكر منها:

* **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري** لعز الدين عمر موسى، وهو من المراجع المتخصصة في الجانب الاقتصادي، أي ما تعلق بالأرض والسقي والإنتاج الزراعي، والعلاقات الاجتماعية ذات الصلة بخدمة الأرض.

الصعوبات: تعترض كل بحث صعوبات، والتي غالبا ما ترتبط بطبيعة الموضوع، ومن الصعوبات التي واجهتنا، نذكر:

* قلة المصادر التي تخصصت في هذا النوع من الدراسات ضمن إطار البحث العلمي الذي يستند على ضبط المصطلحات والسياق العلمي.

* صعوبة ضبط الإشكالية خاصة وأنَّ الموضوع مركب من مسألتين، الغذاء والصحة، وأيهما أكثر تأثيرا في الآخر؟

* وجود بعض المصادر المخطوطة التي لم تحقق بعد، أو لم نتمكن من الاطلاع عليها.

* عدم وجود فهارس تتضمن قائمة للمصادر المختصة.

الفصل التمهيدي

حدود بلاد المغرب من خلال المعايير السياسية والجغرافية

تمهيد

أولا: معايير خط ورسم حدود بلاد المغرب.

أ. المعايير السياسية.

ب. المعايير الجغرافية.

ثانيا: الكتابات الجغرافية في تحديد معالم حدود المغرب الإسلامي.

تمهيد:

أسهم الفتح الإسلامي لبلاد المغرب في رسم حدود المنطقة خلال مدة سبعين سنة تقريبا والتي فرضتها الظروف السياسية والأمنية والدينية بشكل لا إرادي حيث لم تكن الحدود الجغرافية محل اهتمام الفاتحين، بقدر ما كان سعيهم هو الحرص على تعميم الفتح ونشر الدين الإسلامي بهذه الضفة، وتجسيد أبعاد الفتح العقائدية، إلا أن الكتابات الجغرافية والتاريخية أولت اهتماما كبيرا لهذا الجانب ومنه تنوعت سياقات التدوين في رسم الحدود ومعرفة الأقاليم.

أسهم التاريخ السياسي بقدر كبير في تغطية مستجدات وضع الحدود ورسمها، ووضع المفاهيم التي أثرت فيها موازين القوة والضعف عند الدول والقبائل التي أثرت هي الأخرى بشكل أو بآخر في وضع معالم الحدود[1]، فالمشرق الإسلامي يقابله المغرب الإسلامي، وهذه المعطيات الجغرافية تبرز فواصل الحدود بين الإقليمين، وقد نالت هذه التسمية إجماع لدى المؤرخين والجغرافيين كل بحجته وبيانه[2].

إنَّ ما ذكر عن هذا الإقليم خلال الفترة الممتدة ما بين القرون 4-8هـ/10-14م هو عدم استقرار حدوده الداخلية بفعل الانقسامات السياسية التي عمت جغرافية بلاد المغرب، في حين استقرت الكتابات الجغرافية والتاريخية على ديمومة معالم حدوده الخارجية والتي ظلت معروفة منذ القديم والممتدة من حدود مصر الغربية أي إقليم برقة إلى البحر المحيط.

أولا: معايير خط ورسم حدود بلاد المغرب الإسلامي:

1- المعايير السياسية:

1- ابن خلدون، المقدمة، دار الهدى، عين مليلة، 2009م، صص184-185/ طاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6-7 الهجريين / 12-13 الميلاديين، دار الهدى، عين مليلة، 2004، ص29.

2- أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ص9.

اكتسبت لفظة المغرب الإسلامي في التاريخ مفهوما جغرافيا وسياسيا، فالمصادر تعطي لهذا المفهوم تعريفات مختلفة، ومتناقضة أحيانا، فمنها ما يحمل الهوية السياسية، والبعض يحمل الهوية الجغرافية، والتعريفات التي استندت على مرتكزات طبيعية أو جغرافية أو نظرة عرقية لم تكن بعيدة عن الأوضاع السياسية التي سادت عصر أصحاب هذه التعريفات، فابن حوقل كتب في وقت لم تكن فيه للدولة العباسية سلطة على مصر وما يقع غربها، فانقسم العالم الإسلامي إلى قسمين مشرقي ومغربي، ومثَّلت مصر الحد الفاصل بينهما، في حين صنَّف ابن سعيد المغربي تقسيمه في وقت بلغت فيه المنافرة بين المشارقة والمغاربة ذروتها، وكأنه أراد أن يتقوى بمصر وما تمثله، في حين ذكر ابن خلدون أنه لم يبق من المغرب الإسلامي في جناحه الغربي في الأندلس سوى قطعة أرض صغيرة وهي مملكة غرناطة، بمعنى أوضح، لم يبق من بلاد المغرب إلا موطن البربر القديم. وعن هذه الخلفية السياسية بقي الأندلس ضمن إطار المغرب الإسلامي[1].

لقد ساهمت الحروب والتوسعات والأزمات السياسية في تغيير معالم حدود بعض مناطق المغرب الإسلامي، فالحدود الشرقية تأثرت بفتح عبد المؤمن بن علي لبلاد إفريقية، ودخلت طرابلس في طاعته[2]، ويضيف ابن الأثير أن جبل طارق أطاعه في الوقت نفسه[3]، وتتبع جيش الناصر الموحدي فلول بني غانية بقايا المرابطين فوصل إلى ساقية بني مكود، لكن المنطقة لم تخضع ولم تضم للدولة الموحدية، إذ لم يترك فيها حامية موحدية، وظلت الصحراء شرقي وجنوبي طرابلس خارج حدود الدولة الموحدية، وعليه فإقليم طرابلس

---

[1]- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2003م، ص38.

[2]- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد السعيد العريان ومحمد العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1949م، ص384/ ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م، ص130/ ابن خلدون، كتاب العبر، ص168.

[3]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1967م، ج11، ص243.

وجبل نفوسة يمثلان الحدود الشرقية للمغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري[1] وهو أقصى اتساع وصلت إليه هذه الدولة، وهي الحدود المقاربة لمجال بلاد المغرب.

ثبت مما سبق أن الحدود الشرقية لبلاد المغرب في عهد الدولة الموحدية رسمتها الحروب والغارات لأجل غير مسمى، فبنو غانية استنزفوا الكثير من طاقة الموحدين، وهو ما أفقدها الكثير من مناطق النفوذ الذي انعكس بدوره على الحدود الشرقية، فيما عرفت الحدود الجنوبية عدة تعقيدات بحكم تخومها الصحراوية وامتدادها الواسع عبر العروض، يقول ابن فضل الله العمري:" إن الصحراء هي الحدود الفاصلة بين إفريقية وبلاد جناوة " ثم يعود ويرسم الحدود بدقة حيث يقول:" إن حد إفريقية الجنوبي هو آخر بلاد الجريد والأرض السبخة " يعني منطقة الشطوط الصحراوية، ولم يرد أنهم تجاوزوا جبل نفوسة جنوبا ولا يعرف أنهم دخلوا وركلان المركز التجاري الهام للتجارة مع السودان، وأنَّ قفصة كانت النهاية الجنوبية القصوى في المنطقة الشرقية، وقد اضطربت المصادر عن الحدود الجنوبية في المناطق الغربية اضطرابا شديدا لأن الصحراء كانت مهد المرابطين[2].

تعرض المغرب الإسلامي نتيجة تداعيات الأوضاع السياسية إلى التجزؤ والانقسام، فكان هناك قسمين، فالبلاد الشرقية سيطرت عليها صنهاجة المهدية وبجاية بنفوذهم السياسي، وما يقع غربها فهي البلاد الغربية.

أنهكت التجزئة السياسية وبخاصة الحروب والغزو الخارجي البلاد الشرقية إذ ظلت عرضة لخطر الهجمات الصليبية من النورمانديين، والتي كادت أن تفصل الجهة الشرقية عن بلاد المغرب، إضافة إلى الحركات القبلية الكبرى والمتمثلة أساسا في زحف قبائل بني هلال العربية وبالمقابل انتظمت البلاد الغربية في وحدة سياسية قوية في ظل دولتي

[1]- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص14، 42.

[2]- عز الدين موسى، المرجع نفسه، صص41-42.

المرابطين ثم الموحدين حينما أصبحت الأندلس والبلاد الشرقية مجالي توسعها، وعلى العموم فقد أجمع مؤرخو فترة القرن السادس الهجري/12م على وجود مغربين، شرقي، وغربي، فهذه النظرة تحمل سياقا لوضع وواقع سياسي[1] كان العامل المتحكم في تحديد المجال الجغرافي للمنطقة.

2- المعايير الجغرافية :

إنَّ مدلول لفظ المغرب أثار عدة قراءات وتصورات لدى المؤرخين، ولدى الكتابات ذات السياقات الجغرافية، ولذلك اختلف في تحديد مجاله بين المؤرخين والجغرافيين، فلفظ المغرب لدى ابن خلدون هو" اسم إضافي يحمل معنى يدل على جهة ما إلى جهة الشرق " ومن هنا تظهر الصعوبة في تحديده جغرافيا[2]، وباختصار فإنَّ معالم بلاد المغرب هو من حيث ضمه أو إضافته إلى جهة الشرق بحيث تصبح بلاد مصر الفاصلة بينهما.

وإذا تمعن الدارس لمضامين كتب الجغرافيا والرحلة أدرك أنَّ أصحابها اعتمدوا في صياغة مفهومهم للفظ المغرب على ثلاثة أسس[3] فمنهم من اختار الحواجز الطبيعية كأساس لتعريفه كقول بن حوقل:" إن النيل هو الحد الفاصل بين المشرق والمغرب "[4]. في حين ذكر ابن سعيد المغربي:" أنَّ ما هو واقع شرقي بحر الإسكندرية وخليج القسطنطينية فهو في حساب المشرق وعليه فمصر أول المغرب والشام أول المشرق "[5].

---

[1]- الإدريسي, نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،م1، ب ط ، مكتبة الثقافية الدينية ، القاهرة ، 1422ه ، ص57.

[2]- عبد الرحمان بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر اعتنى به درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م، ج6، صص98-100.

[3]- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص37.

[4]- ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص64.

[5]- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص37.

أمَّا الأساس الثاني في تحديد هوية حدود المغرب الإسلامي فهو العامل الديموغرافي البشري، فبلاد المغرب عند أصحاب هذا التيار يقولون:" هو ما كان في القديم ديار البربر ومواطنهم، وعليه فالمغرب عندهم يمتد من طرابلس إلى البحر المحيط "[1]، وتخرج الأندلس منه وهكذا تم الاعتماد على حركة وترحال القبائل وتنقلاتهم ضمن خصائص وطبائع البربر، وهذا الرأي يقترب من رأي المستشرقين والمؤرخين القدماء من اليونان والرومان الذين اتخذوا العنصر البشري معيارا للتقسيم، ومنهم من جعل الأوضاع الإدارية والظروف السياسية محورا لتعريفه وتحديد مجاله الجغرافي، ويظهر ذلك عند معظم جغرافيي الإسلام، فالأسطخري اتخذ من الأوضاع السياسية أساسا للتقسيم، استقلال الأندلس عن الخلافة العباسية، والتي وأصبحت فيها بلاد المغرب موضع نزاع سياسي وعسكري بين أمويي الأندلس، وبين فاطميي إفريقية نجده يقسم المغرب إلى مغربين، إفريقي، وأندلسي[2].

ثانيا: الكتابات الجغرافية وتحديد معالم حدود بلاد المغرب:

اتسع مدلول لفظ المغرب عند بعض الجغرافيين أمثال الأسطخري (ت376هـ/986م) ليشمل مصر غربا ابتداء من برقة[3] حتى طنجة[4] والسوس ويدخلان ضمنه بلاد الأندلس[5]، في حين لم تتحدد معالم الجنوب إلا من خلال ذكره في بعض الأحيان " بحر من الرمال " وقد يناسب مفاهيم جغرافية المغرب الإسلامي حسب المعطيات التي يستشهد بها أصحابها،

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص101.

[2]- الأصطخري، ، المسالك والممالك ,تح :محمد جابر عبد العال الجنيبي ,وزارة الثقافة والارشاد,مصر,1961م ,ص23.

[3]- برقة: مدينة كبيرة قديمة بين الإسكندرية وإفريقية بينها وبين البحر أميال، ينظر، محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص91.

[4]- طنجة: مدينة قديمة بالمغرب على ساحل البحر بينها وبين سبتة 30 ميلا. الحميري، المصدر السابق، ص395.

[5]- الأصطخري، المصدر نفسه ,ص23.

فابن سعيد المغربي (ت685هـ/1286م) جعل من المغرب ثلاث مناطق غير آبه لمستجدات الأحداث السياسية، وهذه المناطق هي:

المنطقة الأولى: سماها المغرب الأقصى، وهي تمتد من مدينة وهران شرقا إلى مدينة مراكش جنوبا، ويذكر بأن تلمسان قاعدة بني عبد الواد، و" فاس " من خواص المغرب، وهذه المنطقة بها امتداد شمالي إلى بلاد الأندلس[1]، وقد ظل ترسيم أو ضبط حدود هذا القسم محل خلاف طيلة التاريخ الوسيط، والذي غالبا ما عكس واقع الوضع السياسي الذي اتَّسم بالتوتر والصراع العسكري بين الدول المتجاورة فيه.

المنطقة الثانية: سماها المغرب الأوسط، وقاعدتها مدينة بجاية، واشتملت عدة مدن ساحلية وداخلية، أهمها: تنس مستغانم، الجزائر، دلس، قسنطينة، وبونة[2].

المنطقة الثالثة: سماها سلطان إفريقية لأهميتها، تمتد من بونة إلى مدينة برقة على ساحل البحر شرقا حيث التخوم المصرية، وتعتبر حاضرة " تونس " قاعدة هذه المنطقة[3]، ويبدو أن بن سعيد المغربي عاش زمن الانقسام الذي شهدته بلاد المغرب، ودرس وضعية عدم استقرار الحدود الداخلية، فلجأ إلى اتخاذ تلك الحواضر المذكورة كأساس ترسيم الحدود، وحد فاصل بين أقاليم المغرب الإسلامي.

أما المقدسي (ت380هـ/993م) فلم يتخذ من سواحل البحر الرومي حدا فاصلا للمغرب الإسلامي من جهة الشمال حيث أقحم جزيرة صقلية وشبه الجزيرة الأندلسية داخل إطار هذا الإقليم، وجعل مصر حدا فاصلا بينه وبين المشرق الإسلامي، وحافظ في تقسيمه على

---

[1]- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تعليق إسماعيل العربي، ط1، مكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1970، ص142.

[2]- ابن سعيد، المصدر نفسه، ص142.

[3]- نفسه، ص142-143، 147.

الترتيب الجغرافي لمدنه من مصر ثم مدينة برقة بعدها بلاد افريقية، ثم تيهرت ثم سجلماسة فالسوس الأقصى، أما حدوده الجنوبية فهي بلاد السودان[1].

وفي معجم البلدان ذكر أن هذه البلاد هي تلك الجهة الواقعة غرب مصر ويقسمه غرب مصر إلى منطقة إفريقية الممتدة من طرابلس شرقا من جهة برقة والإسكندرية شرقا إلى مدن بجاية، ومليانة غربا، ويقابلها في البحر جزيرة صقلية[2]، ومقارنة لما أورده المقدسي، وياقوت الحموي، طرح جغرافيون حدود المغرب الإسلامي أنهما اشتراك في ضم صقلية إلى حضيرة بلاد المغرب لعدة اعتبارات منها الفتح الإسلامي لهذه الجزيرة في عهد الأغالبة على يد جوهر الصقلي، وقيام معالم الحضارة داخل هده الأرض الجديدة وسط البحر، ومنه نستنبط دخول عامل الأحداث السياسية كما سبق ذكره أن الخلاف السياسي والحدودي داخل المغرب الإسلامي لم ينته حتى قبل القرن الخامس الهجري، فقد حدثت انقسامات وبروز دويلات متناحرة أفضت إلى وجود يقضي على هوية أمة برمتها، وبعد القرن الخامس كان للجغرافيين الفاطميين بيانات ورسم حدود جديدة وضعت إفريقية في جهة الشرق والمغرب الأوسط والأقصى في جهة الغرب[3]، وبحكم موقع إقليم الأندلس المصنف عند الكثير من كتب الجغرافيا أنه ضمن خريطة المغرب الإسلامي من حيث المعايير السياسية والأحداث التاريخية أسهمت دراساتهم من خلال الجغرافي الأندلسي عبيد الله البكري (ت487هـ/1094م) في تحديد المسالك والممالك بصورة دقيقة

[1]- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، مطبعة بربل، ليدن، صص215-216، 241.

[2]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، مج1، 1397ه، ص298.

[3]- ابن عذاري المراكشي، البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م، ج1، ص249.

ذلك مكنه من تجزئة المغرب الإسلامي وجعل من برقة حده الشرقي إلى غاية البحر المحيط حده الغربي، والبحر الرومي شمالا، وجنوبا يمتد إلى غاية ممالك السودان[1].

وقد أحصت بعض الدراسات أن مصطلح بلاد المغرب لم تتداوله الكتب الجغرافية بمسالك طبيعية حدودية بل بإملاءات ومعايير سياسية من خلال الدول التي قامت في المنطقة، وهي الرستمية، والأغالبة، والأدارسة، وبني مرين، فهذه هي أول من حدد امتدادات بلاد المغرب من برقة إلى طنجة غربا، ثم قسمه إلى ثلاث مناطق هي:

إفريقية وقاعدتها مدينة القيروان، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان، والمغرب الأقصى الذي يمتد من غرب تلمسان إلى البحر المحيط[2]، أمَّا في العهد الموحدي فقد أرخى نفوذ هذه الدولة بضلاله السياسية على حدود بلاد المغرب وحولها إلى نطاقات معيَّنة حسب ما أورده المؤرخ عبد الواحد المراكشي (ت647هـ/1248م) الذي لم يحدث بمصطلح بلاد المغرب، وجعل مدينة قسنطينة الحد الغربي لإفريقية وأول بلاد المغرب بلدة ميلة[3].

وبالاعتماد على الجغرافيين المتقدمين ومنها الخريطة والصور الواردة في كتاب صورة الأرض لابن حوقل النصيبي في القرن الرابع الهجري، تم تحديد المغرب الإسلامي كما يلي:" وأما المغرب فبعضه ممتد على بحر المغرب في غربه، ولهذا البحر جانبان شرقي وغربي، وأما الغربي فمن مصر وبرقة إلى إفريقية، وناحية تنس إلى سبتة وطنجة، فالمغرب خاصة وإيسلي، وما في أصقاع هذا الإقليم، وأما الشرقي فهو بلد الروم من حدود الثغور

[1]- البكري، المسالك والممالك تحقيق اندريان فان ليوفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م ج2، ص646، 650.

[2]- سمية مزدور، المجاعة والأوبئة في المغرب الأوسط، 588ه-927ه/1992-1520م، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1429هـ-1430هـ، ص25.

[3]- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، ص256.

الشامية إلى القسطنطينية إلى نواحي رومية وقلورية، وجليقية ثم باقي ذلك إلى آخره للعرب في يد أصحاب الأندلس[1].

أما الجغرافي الأندلسي الزهري (6هـ/12م) فيرى أنَّ بلاد المغرب تمتد من جبال برقة شرقا التي تفصله عن مصر، إلى السوس الأقصى غربا، ثم يقسم مجاله الجغرافي إلى ثلاث أصقاع رئيسية، وهي:

السقع الأول: إفريقية وتمتد من جبال برقة ونفوسة وجبال الونشريس، ومن أهم مدن هذا السقع الساحلية: طرابلس، المهدية، بجاية، جزائر بني مزغنة، ومن مدن الجوف يذكر: فاس، نفطة إلى الغرب مدينة مليانة وقسنطينة وقلعة بني حماد ومدينة برشك[2].

السقع الثاني: وهو المغرب الأقصى، ويجعل امتداده الجغرافي من مدينة تنس الساحلية شرقا إلى البحر الأعظم غربا عند الطرف المسمى بأشبرتال[3]، ومن أهم المدن الساحلية لهذا السقع يذكر: وهران، ومليلية، وطنجة، أما أهم مدنه الواقعة في الجوف أي الداخلية فنذكر منها المدن التالية: تلمسان، تيهرت، وحاضرته مدينة فاس، ومراكش وبلاد قبائل المصامدة في الجنوب وحاضرتهم مدينة أغمات.[4]

السقع الثالث: ويعني السوس الأقصى، وينتهي حده في البحر الأعظم غربا وجنوبه مدينة لمطة، وشرقا يتصل بصحراء لمتونة، وشمالا جبال درن[5]. ويقسم الرحالة الجغرافي حسن

---

[1]- ابن حوقل، مصدر سابق، ص107.

[2]- الزهري، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد الحاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص107.

[3]- آشبرتال: عبارة عن تعريف الكلمة " الطرف الآخر ". مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص141.

[4]- مدينة أغمات: يحددها الزهري في القسم الثاني لبلاد المغرب أي في الحدود الفاصلة بين المغرب الأقصى وبلاد السوس الأقصى، وهي مدينة أزلية ومن الحواضر المهمة للمصامدة. الزهري، المصدر السابق، ص118.

[5]- جبل درن: يفصل بين السوس الأقصى والمغرب الأقصى، ويمتد من البحر الأعظم غربا وينتهي بالغرب من القيروان شرقا مرورا بوركلان وبلاد زناتة في الشمال. الزهري، المصدر السابق، ص116.

الوزان الذي كان حيا قبل (957هـ/1550م) قارة إفريقيا إلى أربعة أقسام، ما يهمنا الأقسام الثلاثة التي تمثل بلاد المغرب الإسلامي التي أطلق عليها جملة واحدة بلاد إفريقيا، وهي:

بلاد البربر: تمتد شرقا من جبل ميس آخر الأطلس على بعد ثلاثمائة ميل من مدينة الإسكندرية، وعلى طول ساحل المحيط غربا من مدينة ماسة، ويحدها جنوبا جبال الأطلس وشمالا البحر المتوسط[1]، كما قسم هذه البلاد إلى أربعة ممالك وهي: مملكة مراكش، ومملكة فاس، ومملكة تلمسان، ومملكة تونس[2].

نوميديا: وهي المنطقة المعروفة باسم أرض الجريد والمشهورة بالنخيل، تمتد شرقا عند منطقة الواحات، وتبعد حوالي مائة ميل عن بلاد مصر، وتمتد غربا حتى منطقة نول لمطة على ساحل البحر المحيط، وشمالا بمحاذاة جبال الأطلس، وجنوبها مفتوح على الصحراء[3].

ليبيا: المعروفة عند أهل المنطقة بالصحراء والقعر ممتدة شرقا حتى تخوم الواحات، وغربا إلى البحر المحيط، وجنوبا مملكة لواتة من أرض السودان[4].

يلاحظ من خلال هذا العرض أن حسن الوزان وصف مصطلحات للمنطقة سبق استخدامها وتوظيفها قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

---

[1]- جبل ميس: كان الجغرافيون يعتقدون الأطلس سلسلة جبال ممتدة من بحر المحيط إلى العقبة الكبرى جنوب خليج السلوم، وجبل ميس يقع على بعد 500 كم غرب الإسكندرية إلا أنه لم يتم التعرف على موقعه بالتحديد. حسن الوزان، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي و آخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، ج1، ص28.

[2]- الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص30-31.

[3]- الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص28-29.

[4]- مملكة لوتة: تقع هذه المملكة شمال غرب مدينة تمبكتو، ويعتقد أن نفوذ حكمها قد وصل إلى البحر المحيط. الحسن الوزان المصدر نفسه، ص29.

الفصل الأول

الإنتاج الزراعي في ظل أساليب الري وجودة الأرض

أولا- أساليب الري والسقي.

ثانيا- جودة الأرض وخصوبة التربة.

ثالثا- الغلات الزراعية.

أولا- أساليب الري والسقي:

تنوعت أساليب الري والسقي في بلاد المغرب الإسلامي وذلك نتيجة عوامل مؤثرة منها المناخية والتضاريسية، وظل هذا التباين الطبيعي سائدا حيث لجأت الساكنة والسلطة إلى استغلال الإمكانيات المتاحة في السقي كالأودية والأمطار والعيون والينابيع.

1- الأنهار: كان لنظام تساقط الأمطار أثر كبير على مجاري مياه الأودية والأنهار وعلى العموم فهي غير صالحة للملاحة، فلا تجد ذكرا لنهر استخدم لمجال اقتصادي أو تجاري في المصادر التاريخية والجغرافية والراجح أنَّ الموحدين استفادوا من نهر سيبو[1] في النقل التجاري كما شيدوا دار صناعة الحبال، ويظهر أنَّ أودية المغرب الأوسط قد تكون معيقة للتجارة ولاسيما أثناء فيضاناتها في فصل الشتاء، مما يستدعي إقامة الجسور لعبور القوافل وذلك ما قام به الموحدون، وقد أسهمت كتابات ابن سعيد المغربي إلى حد كبير في إعطاء اعتبار لضفاف الأنهار والأودية مجالا لتشييد القرى فذلك مكنها من سقي منتوجاتها الزراعية وتوفير حاجاتها الغذائية، وقد تحدث عن منطقة لمطة نول أن لها نهر كبير ومشهور ينبع من جبل لمطة الذي يقع شرقا ويصب في البحر المحيط[2].

يرى البعض أن أصل قيام الواحات وغراستها كان بفعل الأودية والأنهار، ذلك ما ذهب إليه ابن خلدون حيث يربط بين قيام واحات بلاد الجريد ووارکلان، وتدفق مياه الأودية نحو الصحراء وغورها فيها[3] كأنه يريد القول أن عيون هذه الواحات انفجرت من

---

[1]- نهر سبو: نهر عظيم يأتي من نواحي قلعة جبل بني نوالة ويمر بمحاذاة مدينة فاس من الجهة الشرقية وعلى ستة أميال منها، وهناك يصب في نهرها مع ما اجتمع من سائر العيون والأنهار، وعليه قرى عامرة. الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص99.

[2]- ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص113.

[3]- عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق ، ص 102.

تلك الأمطار التي تصب في الأودية، فمياهها نافعة للتربة وتقتل دود الأرض الذي يضر بالمزروعات[1].

2- الأمطار: تعد الأمطار مصدرا رئيسيا في سقي البسائط والفحوص، فبلاد المغرب الإسلامي لم يكن لها الحظ الأوفر من نظام التساقاطات المطرية في عملية السقي، وتعاني هذه الجهة من شح السماء باعتبارها منطقة تقع غرب الضغط المرتفع الأزوري، وتشهد عدم استقرار في المناخ بحكم أنها منطقة متوسطية وذلك ما أثر بشكل كبير على المحصول الزراعي خلال أوقات الجفاف وقلة التساقط[2].

تعد المنطقة الشرقية من المغرب الأوسط أكثر تساقطا من المنطقة الغربية إذ نجد تل قسنطينة والأوراس الأكثر مطرا[3] عن غيره من أجزاء المغرب، ويلاحظ أن هذه الأمطار غير منتظمة وتواليها، فهي تظهر مبكرا في شرق الإقليم خلال شهر سبتمبر، وتتأخر في الغرب إلى آخر أكتوبر ثم تظهر فترة الجفاف النسبي في يناير شرقا وفي فبراير غربا.

كان أهل البادية وسكان المغرب يحفرون حفر على شكل مواجل لجمع ماء المطر فإذا انحبس عنهم المطر رحلوا إلى مواضع الماء[4]، فانصرفت الهمم للاستفادة من مياه الأمطار في سفوح الجبال عن طريق اعتماد الزراعة بالحواجز والصريم[5] أو الاحتفاظ بمياه الأمطار لموسم الجفاف الطويل في الصهاريج[6].

---

[1]- رشيد عباس، النظام الغذائي في المغرب الإسلامي، أطروحة دكتوراه، 2020-2021، ص53.

[2]- عبد الهادي البياض، أثر الكوارث الطبيعية في المجال الاقتصادي بالمغرب الإسلامي، كتاب المجلة العربية، الرياض، 1434ه، ص12.

[3]- البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد، ص56.

[4]- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص64.

[5]- المرجع نفسه، ص64.

[6]- المرجع نفسه، ص64.

ساهمت مواعيد نزول المطر في الكتابات الجغرافية والتاريخية كثيرا في تحديد علاقة الإنتاج الزراعي بالمطر، فحسن الوزان، ومارمول كاربخال ذكروا " تحديد موعد المطر في بلاد المغرب الإسلامي من 25 أفريل إلى 5 ماي وإن تأخرت فذلك يضر بها ".

3- نظام جرّ المياه: هو أسلوب يخضع لمعايير علمية ودراسة دقيقة للموضع ولجيولوجية المنطقة، وغالبا ما يكون من مسافات بعيدة، حيث أشرف سلاطين وأمراء دولة المرابطين على جرها، كيوسف ابن تاشفين الذي أوصل المياه إلى اشبيلية وفاس وسبتة والرباط[1].

كانت مياه سلا تأتي من عين غبولة، ومياه الرباط من مكان عن بعد عشرين ميلا، وقد استعمل الموحدون طريقة الوزن التي استخدمها المرابطون، فتوفير الماء أصبح أكثر من ضرورة في المغرب الإسلامي خاصة في فترات الجفاف من خلال الجهود المضنية التي بذلها أمراء وسلاطين الدولتين، فقد ساهمت البلاد الغربية - المغرب الأقصى- بخبرة أبنائها من بني عبد المومن وهو علي بن عمر بن عبد المومن، وهو من أعلم الناس بأمور الري، واستفيد منه في غير موضع، وفيها سادت حركية واسعة في استنباط المياه سواء للشرب والسقي، فقد جلب المياه إلى مراكش وسلا والرباط[2].

كانت البلاد الشرقية أفضل من البلاد الغربية وتعني المغرب الأقصى من حيث جر المياه إلى ما حول الأنهار أو جلبها من أماكن بعيدة كأقواس قسنطينة[3] ودواميس قرطاجنة[4] وداموس ماردة[5] وقنطرة قرطبة[6]، وكان للأندلس بخبرتها فضل كبير في تنمية

---

[1]- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1959، ص180-181.

[2]- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص118.

[3]- الإدريسي، المصدر السابق، ص90/ مجهول، الاستبصار، ص165.

[4]- الإدريسي، المصدر نفسه، ص113/ البكري، م س، ص44.

[5]- البكري، المصدر نفسه، ص182.

[6]- البكري، المصدر نفسه، ص212.

استثمار الماء لدى المغرب الإسلامي، وقد قام المهندس الأندلسي عبد الله بن يونس بجلب المياه إلى مراكش لزراعة بساتينها واستخرجها بطريقة هندسية، ترفع من منخفض الرض إلى أعلاها بغير روافع[1].

يعد القرن السادس الهجري عهدا جديد عن وضع ساكنة المغرب الإسلامي وذلك بالاستفادة من استغلال مياه الأنهار والعيون وجرها إلى الفحوص بوسائل متعددة منها شق الترع وتفريع الأنهار إلى جداول.

تمثلت جهود سكان بلاد المغرب في خير ما ظهر في غرناطة[2] وفاس[3] وأغمات[4]، ومن أكثر وسائل الري والسقي انتشارا في المنطقة، الروافع من سواقي (سواني) ودواليب وخطارات فالساقية والناعورة والدولاب أسماء لشيء واحد[5]، وتعد الدابة داخل الساقية مصدر مجمع الماء[6]، ولم تكن هذه الوسائل حكرا على المغاربة بل ورد في كتاب المقري أن أهل الأندلس يسقون بها زرعهم من الأودية، وأنها كثيرة على وادي اشبيلية[7]، في حين تستعمل في المغرب لنقل الماء من الآبار[8].

4- المواجل والصهاريج والفقارات:

4-1 المواجل: المواجل هي عبارة عن خزانات للماء تم حفرها في بطون الجبال، وتعمل لها المصافي والقنوات الكفيلة بتجهيزها بمياه الأمطار، أحيانا تكون قليلة لذلك فهي كفيلة

---

[1]- لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة بأخبار غرناطة، ج1، صص437-438.

[2]- عبد الله البكري، المصدر السابق، صص103-109/ مجهول، الاستبصار، ص137.

[3]- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص62.

[4]- المرجع نفسه، ص62.

[5]- المرجع نفسه، ص62.

[6]- المرجع نفسه، ص62.

[7]- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج3، ص144.

[8]- الادريسي، المصدر السابق، ص22.

بتوزيع مياهها على جهات الاستهلاك، وقد اختلف الماجل عن الجب حيث عرف تطورا في إفريقية وبخاصة في العهد الأغلبي، تلتقي هاتين المنشأتين من جانب آخر، فكل منهما يعتمد على مياه الأمطار المتجمعة على سقوف المنازل والتي يتم تصريفها واستغلالها عن طريق الميزان والمهرقة، وقد ساهم هذا العمل في بروز خصوصيات بين السكان نتيجة تعقد الهياكل العقارية بالمدينة المغربية[1]، وبالمغرب الأوسط قرب تلمسان كان لمدينة أرشكول مواجل كثيرة للمراكب وأهلها والمحتاجين لها في السقي، وكان نهر سسطفسيف قرب تلمسان يصب في بركة عظيمة منقورة في حجر صلد من عمل الأولين[2]، فالماجل عندنا هو بركة راكدة ماؤها غير متحرك، وفي غالب الأحيان عندما يطول ركوده يصبح فاسدا.

2-4 الصهاريج: هي عبارة عن منشآت مائية (مصانع الماء) درج العرب كما فعل ذلك المغاربة على استعمالها في مواجهة أوقات الندرة[3] ذلك إشارة إلى أهمية التفكير في مستقبل مستقبل المياه الخاصة في الوقت الحالي، أين بدأت الدول والحكومات تحتاط من مشكلة تراجع كمية الماء بفعل الانحباس الحراري، فقد انتشرت الصهاريج في جميع أنحاء المغرب خاصة في البلاد الشرقية، حيث الجفاف وموسمه أطول حتى أهل طبنة اتخذوا صهاريج لحفظ المياه واتخذ أهل تونس الصهاريج أيضا في بيوتهم لجمع مياه الأمطار لغرض الشرب، وقد يزرع حول الصهاريج نبات نارنج أو الليمون[4] وغيرها مما يخفّف من درجة التبخر.

---

[1]- نجم الدين الهنتاتي، مسائل المياه في المدينة بالغرب الإسلامي الوسيط من خلال كتب الفقه المالكية، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 102-103، زغوان، 2001.

[2]- ابن حوقل، المصدر السابق، 1996، ص79.

[3]- سياب خيرة، المياه ودورها الحضاري في المغرب الإسلامي من القرن 7ه-10ه، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2013-2014، ص117.

[4]- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص64.

3-4 السّدود: هي منشآت أعدّها الإنسان لتجميع مياه الأمطار والأنهار وليست منشأة طبيعية أعدّها بناء على معطيات علمية تستعمل لتوظيف وتوجيه ماء الواد من الجهة السفلى وجرّه إلى المناطق الأكثر ارتفاعا[1]، فطرق إيصال الماء إلى السد يكون بطريقتين، إما الدفع تحت سطح الأرض، أو شق سواقي وفتحات وجداول متصلة بالأنهار والأودية والينابيع[2]، ومن أساليب إعمار السدود تمّ استخدام نظام توحيد مجرى واحد لعدة أودية أو أنهار تصبّ في السدّ وبناء على ذلك تمّ تشييد عدد كبير من هذه المجمّعات من السدود منها على سبيل المثال السدود التسعة بأرض المغرب المقامة على واد فاس[3] والمخصص لسقي أراضي مصدغة، فقد شيّد ملاّك الأراضي والمزارعون عدة سدود وكلّ سدّ موصول بساقية كما تم ابتكار نظام جديد في تجميع المياه وذلك بتشييد مجمّع واحد لعدة سدود تفضي إلى ساقية واحدة وتخرج منها عدة سواقي ترتوي الحقول والجنان والبساتين[4].

طرحت عدة مسائل خصّتها عدة فتاوى تتعلّق بنظام السقي وظاهرة هدم السدود أو فيضان مائها، وقد ورد في الدرر مسألة خصّت مزرعة محبسة تهدّم سد مائها جاء فيها "جنّة محبسة تهدّم سد مائها وتعطلت جريتها حتى تعذّر ذلك اصلاحه تعذّرا لا يمكن إعادته إلا بقوّة سلطانيّة ونفقة كبيرة مع أن غلات الحبس تقصر عن ذلك بمألوف العادة ومنذ تهدّم السد المذكور لم يحصل بذلك الماء انتفاع لا يصرفه لجنّة أخرى محبسة ولا

---

[1]- محمد حسن، الجغرافيا التاريخية الافريقية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ص106.

[2]- محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، أوريبس للطباعة، تونس، 1999م، ص394.

[3]- عرف وادي فاس بوادي مصمودة ووادي الجواهر، يتجه من الجنوب إلى الشرق مارا على مدينة فاس يقسمها إلى شطرين: فاس الأندلس وفاس القرويين ليصبّ في نهر سيبو. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص77/ حسن الوزان: وصف إفريقية، ج2، ط2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، 1983م، ص249.

[4]- أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف المغربية، المغرب، ط1، 1981م، ج8، صص8-7.

باكترائه لأحد من أيّ باب الجنّات التي حواليه، بل هو يتدفّق في الشّعاب والخنادق، فهل يسوغ للنّاظر بيع هذا الماء لعدم انتفاع الحبس به أو يعاوض به في أصل تعود على الحبس منه فائدة ويترك على ما هو عليه ؟ فأجاب: إن كان الأمر كما ذكر من تهدّم مسيل الماء وعدم القدرة على جبره فلا بأس بالمعاوضة بمكان يعود على الحبس منه نفع، ويمضي المعاوض به الماء حبسا ولكن إنّما يمضي الحاكم ذلك بعد أن يثبت عنده الخراب ويتعذّر الجبر وتثبت الغبطة في العوض الذي يكون للحبس[1].

شاعت ظاهرة نظام السقي وما ترتب عنها من مسائل عرقلت قانون توزيع حصص السقي بفعل الخلافات وما تعلّق بطرق ترميم السدود بعد اهترائها وانخراقها، وقد سئل في نازلة أخرى بعض الشيوخ عن "جماعة لهم سد فانخرق فاجتمعوا على اقامته بأن بنى كل واحد منهم مسافة ثم تهدم ما بناه أحدهم فهل يكون إعادته على جميعهم أو على بانيه؟[2]، من خلال هذه النازلة وما تعلق بانخراق السد فالجميع معنيّ بإصلاحه وترميمه لأن في ذلك مصلحة ومكرمة لجميع المزارعين والتخلي عنه هو دمار لمصدر قوتهم، ولذلك أصبحت مشاركة جميع مزارعي المنطقة في الإصلاح عرفٌ جارٍ لا مناص منه ولا يجوز رفضها وتركه ضرر لمزرعتهم.

ساهمت الكوارث الطبيعية في التعجيل ببناء السدود وذلك لمجابهة ظاهرة الجفاف التي عاشتها الجهة الشرقية لبلاد المغرب لما عانته من ندرة الأمطار التي كانت تدوم أحيانا مواسم متتالية، وهو ما عجّل بتشييد السدود لتجميع مياه الأمطار أو على هيئة صهاريج ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية والجغرافية في إقليم برقة وطرابلس وأجدابية والقيروان والمهدية[3]

[1]- المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، نسخة المكتبة الوطنية، الجزائر، ج2، رقم 1336، ورقة 59 ظهر.

[2]- الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص32.

[3]- أكد الجغرافيون ندرة الأمطار وانعدام المياه السطحية في القسم الشرقي من بلاد المغرب، حيث وصفوا إقليم برقة وطرابلس وأجدابية والقيروان والمهدية بأنها تعتمد على مياه الآبار وعلى تجميع مياه الأمطار خلال الشتاء في المواجل.

وإن كانت النوازل قد خاضت في مسائل السقي والري وطرحت حلولا أفضت إلى تشجيع نظام التعاون والتكافل خاصة ما تعلّق باستعمال المواجل لتخزين مياه الأمطار، فالماجل هو حوض مغطى بقبو يؤدي إلى ارتفاع الماء والخروج منه، ويكون له بابان، باب يبنى منه وينزل منه، يكون واسعا في وسطه من أعلى وباب آخر يسقي منه ويكون ضيّقا في جنب الماجل[1] فيه تجمّع مياه الأمطار شتاءً، وذكر البكري أن خارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلا تستعمل للسقي تجمّع فيه مياه الوادي بعد أن توجّه بسدود لتخفّض جريان مياه الوادي إلى الماجل "[2]، نستنتج أن مياه المواجل راكدة متجمّعة قادمة من الأودية عبر السدود، ففي المغرب الأوسط وعن مدينة طبنة بالزاب ذكر الحميري أنه يوجد قرب هذه المدينة صهريج كبير يستقبل المياه وتسقى منه جميع بساتينها وأرضها[3].

تعدّ أساليب ونظم السقي في بلاد المغرب الإسلامي وتنوّعها دليل على أن ساكنة هذا الإقليم مرتبطين بخدمة الأرض التي هي مصدر قوتهم وغذائهم، وفي ظل تعرّض المنطقة للجفاف وطول مدّته أصبح من الضرورة تنويع أساليب السقي والري للحفاظ على ثروة الماء ذلك ما تناولته كتب النوازل لوضع قواعد فقهية لتعميم ظاهرة التكافل والتضامن الاجتماعي ما بين المزارعين بغرض تسهيل وتوفير حاجيات السكان من الغذاء وذلك ما استحسنته وشجّعته الدوائر السلطانية، لأن الجفاف يورّث القحط والمجاعة والأمراض التي قد تؤثر على السلطة السياسية.

ابن حوقل، صورة الأرض، ج1، ط1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، صص69، 73/ البكري، المسالك والممالك، ج2، ط1، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، صص177، 182/ الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، ج1، ص285، 280/ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، ليدن، 1906م، ص230، 240.

[1]- ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، تونس، د. ط، 1999م، ص142.

[2]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص199/ نصر السيد حسني، العلوم في الإسلام، دار الجنوب، تونس، ص142.

[3]- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص387.

ثانيا- طبيعة مياه السقي وأثرها على الزرع:

فصل ابن بصال في نظام السقي وطبيعة مياهه بناء على فوائده وتأثيره في الإنتاج الزراعي، فالمياه التي تنعش وتغذي الزرع أربعة أصناف هي: ماء المطر، وماء الأنهر، وماء العيون وماء الآبار.

فماء المطر هو أفضل المياه وأحمدها، يجود بجميع النبات من الخضر والثمار وغيرها وذلك لعذوبته ورطوبته واعتداله، تقبله الأرض قبولا حسنا حيث يغوص فيها بجميع أجزائه، ولا يبق له على وجهها أثر، وهو يوافق الخضر التي تقوم على أصل لطيف وتألف الهواء، مثل الأكرمب والبقل والبذنجال وما أشبه ذلك موافقة حسنة لأنه مشاكل لطبع الهواء ومضارع له.

أمَّا مياه الأنهار فإنها تختلف في طبائعها باليبوسة والرطوبة والحروشة واللين وهي في جملتها صالحة موافقة لجميع الخضر والنبات كله، والقرع والبذنجال والبصل والثوم والكراث والجزر والفيجل واللفت والمقاسي وجميع الرياحين كلها جملة إلا أن من شأن ماء النهر أن يذهب برطوبة الأرض فلذلك يحتاج ما ذكرناه من الخضر الرياحين ذوات الأصول الضعيفة إلى الزبل الكثير مع ماء النهر لضعف أصولها وقلة اجتذابها الرطوبة لضعف ذهابها تحت الأرض وهي محتاجة إلى الماء النافع في ثلاثة أوقات من السنة، في فصل الشتاء والخريف والربيع، ففي فصل الشتاء يحرك الخضر بدفئه ورطوبته إلا أن كان للخضر زبل كثير فلا يحتاج إليه، أما في فصل الخريف والربيع فإن الخضر تصلح بالماء النافع صلاحا بينا[1].

[1]- ابن البصال: كتاب الفلاحة، ترجمة خوسي ماريا مياس بييكروسا ومحمد عزيمان، مطبعة كرمادس، معهد محمد مولاي الحسن، تيطوان، 1955م، ص39.

أما مياه العيون والآبار العذبة الحلوة فهي موافقة لجميع الخضر وجميع ما يزرع في الجنان من دقيق وجليل، وهذا الماء في طبعه أرضي ثقيل بخلاف مياه المطر، وهذا الماء يوافق من الخضر ما له أصل مثل الجزر والفيجل واللفت لأن هذا النبات يوافق الأرض وهو مشاكل لمياه العيون والآبار ملائم له، لا يتم صلاحه إلا به كان أرضه ثريا بماء المطهر أو لم يكن لا بد له من السقي على كل بماء العيون والآبار، فإن عدمها في ماء النهر ويزعق بها منه، وهذا الماء متقلب مع الفصول، فهو يكون عند شدة برد الهواء دافئا لذا يحرك الخضر إذا سقيت في هذا الفصل وهي قد توقفت من شدة البرد، وكذلك يصلحها في فصل الحر وشدته ببرده في ذلك صلاحا بينا، وفي هذا الماء لزوجة وبروقية يظهر ذلك منه إذا سقى به نباتا فيبقى منه على وجه الأرض تلك البروقية وليس يعرض ذلك في ماء المطر ولا في ماء النهر[1].

من خلال هذا التصنيف للمياه سواء الجوفية منها أو المتساقطة والمستغلة في سقي الحقول والزرع والتي تخضع لمعايير علمية وجيولوجية تتحكم في طبيعة الماء ونوع النبات المناسب له، ونفاذه في التربة، وقد تبين من خلال هذا العرض أن مياه الأمطار كانت أكثر جودة ومنفعة للمحاصيل الزراعية لبركته كما قال عنه الباري تعالى:((وَنَزَّلنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ))[2].

وفي ذات السياق تم تحديد أصناف النبات ذات الأصول أنها أكثر النباتات استجابة لمختلف أنواع المياه التي تناسب نموها حسب الفصول من حيث الحرارة والرطوبة، وبالتالي من الضروري توفير الكمية الكافية من الماء لاستمرار هذا النوع من النبات.

[1]- ابن البصال، المصدر السابق، ص40.

[2]- سورة ق، الآية 9.

ثالثا: جودة الأرض وخصوبة التربة:

تعتبر الفلاحة من مكونات تلك العلوم لاهتمامها بطابع الأرض وكيفيات استغلالها، لذلك قام علم الزّراعة على أصول برهانية ساعدته في تحقيق نتائجه التجريبية والتي تمثلت في نظرية " الاستطفسات " والطبائع التي ورثها علم الزراعة عن الشعوب القديمة كالمصريين والإغريق والتي تحولت إلى نظرية مركزية لدى علماء الفلاحة، وفي اعتبارهم أنَّ جميع ما يتكون في هذا العالم إنما جدوته من هذه الأربعة وبالتالي أن النبات لا قوام لها الا بالتراب[1] والماء.

شجعت الشريعة الإسلامية على إحياء الأرض واستغلالها، فالرسول صلى الله عليه وسلم ولعلمه بأهمية النشاط الزراعي حثّ على غراسة الأرض وزراعتها[2] ولضمان مردود زراعي جيّد، اهتم الفلاحون بنوع التربة لأنها المجال الطبيعي لاحتضان المزروعات وأنواعها وفيها تجد ما تحتاجه من أملاح معدنية ومواد عضوية طول حياتها المفترضة[3].

تقوم بنية التأليف الفلاحي في المغرب على نظام منهجي، والتفاصيل الدقيقة المختلفة بالمقومات المادية والتقنية للنشاط الزراعي مثل اختيار أجود التربة التي تعد أول مراتب علم الفلاحة، ومن لا يعلم ذلك فقد أضاع الأصل واستحق في هذه الصناعة والجهل[4].

وجد علم الزراعة ضالته في ميول السلاطين إلى إقامة الحدائق المملوكية، لذلك تشجع المهندسون لتجريب معارفهم النظرية، خاصة وأنَّ ملوك المغرب جعلوا الفلاحة أساس الاقتصاد الوطني، وما عرفت عنه مراكش المرابطية والموحدية بخصوبة الأرض البحائر[1].

---

[1]- حسن حافظي علوي، الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط، ص60.

[2]- فؤاد عبد الله العمر، مقدمة في تاريخ الاقتصاد الإسلامي، مكتبة فهد الوطنية ، جدة، ط1، 1424ه، ص146.

[3]- محمد صبري محسوب وآخرون، الأخطار والكوارث الطبيعية، الحدث والمواجهة، معالجة الجغرافيا، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1419ه، ص123.

[4]- حسن حافظ علوي، المرجع السابق، ص67.

أ- **أساليب تخصيب الأرض:** ماهو متعارف عليه اليوم وماهو موروث فلاحي هي ظاهرة إراحة الأرض، أو تغيير نوع الغراسة، فقد امتهن زراع المغرب الإسلامي وبخاصة المغرب الأوسط أسلوب المناوبة لإراحة التربة خاصة ذوي الملكيات الصغيرة وممكن هذا الأسلوب يساعد على جودة الثمرة والمحصول[2]، وهو ما لاحظه كل من كتب عن الفلاحة كابن البصال، وأبي الخير الأندلسي وابن العوام أبو زكرياء، فهذا الزخم من الكتابات في عالم الفلاحة والزراعة والذي اشتهرت به بلاد الأندلس، أرخى بضلاله على المغرب الإسلامي لتشابه المناخ والطبيعة، ومن الأساليب المتخذة في تخصيب الأرض:

1- تعديل الأرض وتسويتها قبل غراستها: من الطرق والحلول المستخدمة في خدمة التربة وجودتها اتباع نظام تسوية الأرض بنقل التربة من المكان المرتفع إلى المكان المنخفض كإجراء تقني أين يتم التأكد منه بجريان المياه وذلك باستخدام آلة الاسطرلاب بعد الانتهاء من عملية التسوية، ثم يتم تقسيمها إلى قطع حيث يمكن وصول الماء إلى جميع الأماكن.

أعطيت لعملية التسميد أهمية كبيرة، فشاع علم تصنيف الأسمدة وعرفوا كل صنف والمزروعات التي تلائمها، كما ميزوا أنواع التربة وخواص كل نوع وملائمته لمزروع معين[3].

2- حرث الأرض وتقليب التربة: يعني أن تحرث وتقلب أسفل التربة أعلاها مرة بعد مدة وتشرع في ذلك شهر يناير وفبراير إلى غاية منتصف مارس ثم ماي، ويترك للحر إلى أن ينزل

---

[1]- حسن حافظ علوي، المرجع السابق، ص64.

[2]- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج1، ص101.

[3]- جودة عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المغرب الأوسط، القرنين الثالث والرابع هجريين، ص22.

عليها الماء في شهر يونيو بعدها يتم الحرث الرابع فتجمع الرطوبة والهواء، فهذا الأسلوب يفوق جودة الزبل، لأن الأرض تنفتح مساماتها وحرارة الهواء ألطف من الزبل[1].

3- ضروب زراعة الأرض: يعد اختيار موقع الأرض عاملا أساسيا في نجاح الغراسة، وقد تم تحديد ثلاثة أضرب هي: أرض بور، ومعمور، وقليب[2]، فالبور فقيرة وأرذل للزرع ولا تصلح حتى تحرك بالقليب وبالتزبيل لأنها أرض راقدة هامدة، وأما المعمور فهي أفضل من البور لما تحويه من حصيد عاد عليها بالخصيب، وأما القليب أفضل من العمارة وأصدق في الزرع خاصة إذا تضاعف سكك القليب ونعني كثرة وشدة الحرث وتقليب التربة، ولا يعاد لها شيء وأن يفضل أن تسقى في أكتوبر وإن تكاثر عليها الماء وثقلت فصارت عاجزة باجتماع برودة الماء والهواء وبعد الشمس، وتكثر عوارض المرض بها ولا تصلح إلا بعد أن تخف مما أثقلها[3].

4- استصلاح الأراضي وزراعتها: لقد تم استخدام أسلوب استصلاح الأراضي في المغرب الإسلامي خاصة في البلاد الشرقية على يد الموحدين وحول مدينة مراكش بعد مدها بالماء[4] وأكثر الناس فيها البساتين.

5- التسميد وأنواعه: أثبتت الدراسات الجيولوجية أن أراضي الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي تتشابه من حيث مكونات السطح من تضاريس ومناخ، فجل الجغرافيين بما فيهم ابن البصال يذكر السماد وأنواعه وطبيعته وطريقة استعمال كل نوع ويقسمه إلى سبعة أنواع: فضلات وزبل الخيل والبغال والحمير وزبل الآدمي وزبل القمامات وزبل الغنم

---

[1]- ابن البصال، م س، ص56.

[2]- المصدر نفسه، ص75.

[3]- المصدر نفسه، ص75.

[4]- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص142.

وزبل الحمام ورماد الحمامات ثم السماد الصناعي المتخذ من الأوراق الجافة والاعشاب اليابسة، واستثنى زبل البقر ويحذر من زبل الخنازير والطيور المائية فهو مضر للنبات، وقد خص هذه الأنواع بمقدار رطوبته وحرارته وبرودته وملوحته ولزوجته ومدى تفاعله مع أنواع الأرض والتربة[1]، وقد اختصت كل تربة بنوع من التسميد سواء كان محضرا أو طبيعيا.

ب- أنواع الأراضي:

أولى المسلمون للأرض عناية كبيرة وساهموا في تطوير العلوم المتعلقة بالأرض والتربة كعلم الفلاحة، وبلغ الأمر درجة تصنيف الأرض وتحديد معالم خصوصيتها وصلاحيتها، ومن هؤلاء ابن البصال الأندلسي من خلال أبحاثه ودراساته على أن الأرض للغراسة والزراعة وتنقسم إلى أنواع كثيرة[2] وهي:

1- الأرض اللينة:

وتتميز بالبرودة والرطوبة، وتجود فيها جميع الثمار والنبات، مساماتها مفتوحة، فالماء يدخلها والهواء يتخللها وهي ذات جودة عالية[3].

2- الأرض الغليظة: وتماثل الأرض اللينة، ويجود بها أكثر السماد والغالب على مزاجها الحرارة والرطوبة، وتحتاج إلى اليسير من الزبل[4]، فأبحاث ابن ليون التجيبي ذكرت أنها غنية بالسماد وتنمو بها أنواع الأشجار[5].

---

[1]- ابن البصال، المصدر السابق، ص22.

[2]- المصدر نفسه، ص14.

[3]- المصدر نفسه، ص14.

[4]- المصدر نفسه، ص42.

[5]- ابن ليون التجيبي، إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة، مركز الأبحاث الإسباني، رقم 14، 5، A، رقم 3.

3- الأرض الجبلية:

طبيعة تربتها البرودة واليبوسة، تناسب الأرض والتربة اللينة في البرودة خاصة، وليس لها مسامات مفتوحة مثل اللينة والغليظة ولا يجود فيها كل ثمر إلا البعض كاللوز والبلوط والفستق والتين وهي أرض بها ثمار عدة[1].

4- الأرض الرملية:

هي تربة طبعها الحرارة مع البرودة وبحاجة الى تسميد محضر على شكل فضلات وزبل مخدوم، متمكنا من الحرارة والرطوبة، ويجود في هذه الأرض من الثمار، شجر التين والبرقوق والرمان والتوت والسفرجل والورد وبحاجة إلى ماء يجري في أعماقها بيسر، فهي أرض مأمونة لا يخشى عليها الاحتراق[2]، وهذا النوع من التربة موجود في بعض مناطق بلاد المغرب سجلماسة، فهي كثيرة المحاصيل بالرغم من تربتها الرملية.

5- الأرض والتربة السوداء المحترقة:

تتميز باليبوسة والحرارة مع الملوحة، فنباتها كالكتان والفول، وإذا دخل عليها فصل الشتاء والبرد المفرط لم يضرها بل ينفعها، وأن البرد فيها يكسر من حرارتها وملوحتها وليست بحاجة إلى تسميد كثير[3].

6- الأرض والتربة الحمراء:

يغلب على طبعها الحرارة واليبوسة لذا بها رطوبة متمكنة وهي غليظة في قشرتها وقوة في ذاتها فهي بحاجة إلى كثرة الخدمة لذا ينبغي أن تقلب وتحرث ويحول أعلاها إلى أسفلها وبذلك تلين شدتها وفي هذه الحالة ليست بحاجة إلى تسميد وتحتمل الماء، ولايجود

---

[1]- ابن البصال، المصدر السابق، ص43/ ابن ليون التجيبي، م س، رقم A،05،14، رقم3.

[2]- ابن البصال، المصدر السابق، ص44/ المقدسي، المصدر السابق، ص231.

[3]- ابن البصال، المصدر السابق، ص45.

فيها ما زرع إلا بعد الخدمة فهي تنتج التفاح والإجاص وعيون البقر والوت واللوز[1] فالتربة الحمراء حاضرة في بلاد المغرب الإسلامي، فثغر برقة أحاطت به جبال العامرة بالمزارع وتربتها حمراء[2] وهي صحراء حمراء التربة[3].

لم تعد التربة الخصبة في بلاد المغرب الإسلامي محصورة في جهة محددة وإنما شملت منطقة طرابلس التي بها فحوص واسعة خصيبة شرق المغرب الأوسط[4] لتمتد إلى أراضي إفريقية بتونس، المدينة الكبيرة الخصبة الواسعة المياه والزرع[5]. يذكر الأسطخري منطقة السوس الأقصى... فهي كرة عظيمة واسعة وخصبة "[6]، ومن خلال ما ذكر المقدسي والاسطخري من أرضي خصبة في المغرب الإسلامي نستنتج تنوع المحاصيل والغلات وكذا الضرع والزرع الذي هو محصلة لهذه الأسباب والعوامل الطبيعية التي اختصت بها بلاد المغرب الإسلامي.

7- **الأرض الحرشاء المضرسة:** وهي أرض ذات تربة ملائمة عند المناولة تحتاج إلى التسميد والزبل وتقبل الماء ويجود فيها الثمار والفستق والجوز واللوز وشجر التين وتشبه الأرض الجبلية ويزرع فيها الباذنجان والقرع[7] ومنه نستنتج أن هذه الأرض غير مؤهلة لغراسة الفاكهة التي بحاجة إلى رطوبة. وبتفور التربة والتسميد في خصوبتها زاد الإنتاج الزراعي وتنوعت ثماره ونباته بشكل كبير في بلاد المغرب مدعوما بسند ديني تضمنته

---

[1]- المصدر نفسه، ص47.

[2]- المقدسي، المصدر السابق، ص224.

[3]- ابن رشد الحفيد، ، الكليات في الطب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1999م ص143.

[4]- المقدسي، المصدر السابق، ص224.

[5]- الأسطخري، المصدر السابق، ص33.

[6]- ابن البصال، المصدر السابق، ص47.

[7]- المصدر نفسه، ص47.

الشريعة الإسلامية لإحياء أراضي الموات وغراستها، وحث النبي على خدمة الأرض والزرع لإحياء الروح وتمكين الإنسان في الأرض[1].

تواصلت الأبحاث العلمية حول الفلاحة في المغرب الإسلامي واشتغل سكان هذا الإقليم مما انتهى إليه أبو زكرياء يحي الاشبيلي الذي أثرى مجال الفلاحة بأبحاثه مدعما بما سبقته من علوم حول علم الأرض والتربة لتحسين المردود الزراعي، ومما توصل إليه من استنتاجات جديدة في عنصر التربة ومكوناتها إذ لاحظ ضرورة الحرارة والرطوبة والبرودة وتأثيرها على مردودية التربة وخصوصياتها ومدى قدرتها على امتصاص الماء والاحتفاظ به[2]، ومن خلال هذا المسح لنوع التربة والأراضي عبر بلاد المغرب يلاحظ أن ساكنة هذا الإقليم امتهنوا الفلاحة والزراعة وتربية الماشية في ظل توفر شروط هذه الحرفة، وما كانت تدره من منفعة كتوفير القوت الذي كان مهددا من الحصار العسكري والمجاعة والأمراض التي فتكت بالكثير منهم.

ثالثا- الغلات الزراعية: شهد بلاد المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين الرابع والثامن الهجريين/ العاشر والرابع عشر ميلاديين ازدهارا كبيرا في المجال الزراعي نتيجة تطور أساليب الري والسقي واستغلال الأراضي والاستقرار السياسي والاقتصادي الذي عم فترات متعاقبة من عمر المنطقة، ومن حكم الدول الإسلامية فيها، وقد أسهم هذا التطور في تنوع الغلات الزراعية وانتشارها في مختلف أقاليم البلاد، حيث شكلت الزراعة أحد أعمدة الحياة الاقتصادية والتجارية فوفرت السلعة والمنتوج الزراعي لأهالي الإقليم، ونتيجة الاهتمام بهذا القطاع شاعت علوم الفلاحة فتسربت معارفها من بلاد الأندلس

[1]- فؤاد عبد الله العمر، المرجع السابق، ص146.

[2]- أبو زكرياء يحي الاشبيلي، كتاب الفلاحة الاندلسية، تحقيق على رشيد محاسن وآخرون، مطبعة الجامعة الأردنية، ط1، 1433هـ، ج1، ص415، 434.

إلى عدوة بلاد المغرب الجنوبية فتشكل علم قائم بذاته مبني على أسس صحيحة قد سبق ذكره وعلة منهج علمي تجريبي[1].

انعكس هذا الإبداع والفكر الزراعي التقني على الأسواق وما يعرض فيها من إنتاج والتي تحكمت في تحديد هوية النظام الغذائي للسكان، فابن غازي يعدد أنواع الفواكه والثمار التي تشتهر بها بساتين مكناسة من المشمش المعروف بالبرقوق عند الأندلسيين، والتفاح بأنواعه كالطرابلسي الحلو والإجاص والسفرجل... والرمان السفري[2] والوهابي والميموني والنعيمي والأخضر والفاسي الذي يتميز بحلاوة مذاقه والجوز والتين الشعري[3] والسبتي[4]، كما اشتهرت بلاد المغرب أيضا بتنوع خضرواتها إلى جانب الخيار والقثاء والقرع واللوبياء والكرنب وسائر البقوليات والباذنجان[5].

من خصوصيات أقاليم المغرب وتنوعها الطبيعي تجد إفريقية تتمتع بذوق فلاحي تنوعت بها المحاصيل والزرع مثل الحبوب والقمح والشعير والحمص والفول والعدس والذرة والدخن والجلبان والبسلة، أما الأرز فمجلوب إليها، وبها من الفواكه العنب والتين كلاهما على أنواع، والرمان الحلو والمر والحامض والسفرجل والتفاح الكمثري والزعرور والخوخ[6]، وبها فاكهة أخرى تسمى المصغ دون الجوز المقشورة والصغيرة وأكبر من البندق يجيء في

---

[1]- حسن حافظ علوي وآخرون، المرجع السابق، ص84-85.

[2]- الرمان السفري: من أطيب الأنواع ولا يحتوي على نواة وينسب إلى سفر بن عبيد الكلاعي من جند الأردن ومن رجال عبد الرحمن الداخل الذي غرسه بقرية بكورة فسمي باسمه،. ابن غازي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عطا أبو رية، وسلطان بن مليح الأسمري، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط7، 2007، ص48.

[3]- التين الشعري: يتميز بشكله المستطيل والمائل للسواد ولا يزال هذا الاسم مستعملا بالمغرب إلى اليوم. ابن غازي، المصدر نفسه، ص49.

[4]- التين السبتي نسبة الى سبتة. ينظر، ابن غازي، ص49.

[5]- القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الإنشا، مؤسسة التأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ج5، ص517.

[6]- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010، ج4، ص64.

زمن الشتاء وطعمه بين الحموضة والقبض شبيه بطعم السفرجل، ولونه بين الحمرة والصفرة وله نوى وهو يقطف من شجرة جقا[1].

ولم تبخل علينا عاصمة الزيانيين تلمسان بغلاتها الزراعية الوفيرة التي تتناسب وتتلاءم مع موقعها الجغرافي المتميز الذي أشاد به كل الجغرافيين والرحالة الذين نزلوا المنطقة، وقد استطاعت هذه المدينة بأراضيها وخوصها توفير قوت سكانها فانتشرت مساحات واسعة لنظام البستنة المنتجة لمختلف الغلات كالكروم التي لم يضاهيها أو يقارعها مكان آخر من حيث جودته وذوقه، والتين الشديد السواد يجفف ليأكل في الشتاء، والخوخ والجوز واللوز والبطيخ والخيار وغيرها من الفواكه المختلفة[2].

ساهم محصول الكروم بقدر كبير في سد حاجة السكان من القوت، فكثرت غراستها في تونس وبونة[3]، تنتج صحراء المغرب الأقصى وهي نموذج من صحراء المغرب الإسلامي محاصيل زراعية كثيرة متميزة، فسجلماسة المدينة الجليلة جنوب بحر العدوة ومتصلة بالصحراء الكبرى... وأرضها سهلة ولها أرباض كثيرة... وبها نخيل تمره على أصناف كثيرة ويحمل منه إلى عامة بلاد المغرب وتفضيل تمرها على ما سواه، حتى يضاهي به أجود تمور العالم كالعراق، ولتمرها يضرب في الغرب المثل[4].

كان للحبوب قدر كبير من الأهمية لأنها أساس غذاء السكان بمختلف أطيافهم حيث قال ابن سعيد على لسان الجدلي " مغل أول سنة هو القمح ثم المغلات الباقية السلت وهو

[1]- المصدر نفسه، ص65.

[2]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص20.

[3]- يوسف نكادي، الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، مطبعة الجسور، وجدة، ط1، 2007م، ص284.

[4]- ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص106.

ما بين الحنطة والشعير[1]، فقد انتشرت زراعة الحبوب وغراستها في الفحوص المنتشرة بين قصر إيسلي قرب تلمسان، إذ يتوفر بكميات كبيرة من القمح والشعير والدخن[2].

وعن إفريقية ذكرنا محاصيل ذات قيمة غذائية تخص الفاكهة بمختلف أنواعها، فهي تنتج البطيخ الأصفر على أنواع والبطيخ الأخضر ولكنه قليل يسمى بها خاصة في الغرب بالدلاع وبها الخيار والقثاء والخس وسائر البقول وبها الهيلون والصعتز والياسمين والنرجس والنيلفر الأصفر والمنثور والبنفسج والسوسن والحبق[3].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى حرص أهل إفريقية واهتمامهم بالجانب الجمالي من خلال زراعة النباتات والشجيرات التي تُصنع منها العطور والروائح الزكية المستعملة في المناسبات السعيدة كالأعراس، وهي مستخلصة من النباتات المذكورة ما تباينت فيه أقوال الجغرافيين، أن العدوة الشمالية تضاهي بلاد المغرب الإسلامي من حيث التداخل والتشابه المناخي والتضاريسي، الذي أنتج محصولات فلاحية وزراعية متشابهة، وهو ما خلص إليه ابن سعيد المغربي من حالة تنوع الإنتاج في معظم أسقاع المغرب لدرجة وصف بعض مدنه أنها أندلسية من حيث التشابه في امتلاك الثروة المائية والبساتين مثل تلمسان، أما مدينة فاس فيعتبرها من حواضر المغرب وإلى شمالها مكناس المشهورة بزيتونها في حين يصف إفريقية على أنها أرض فاكهة الموز[4].

فحبوب القطان من المحاصيل الرائجة وقد كثر ذكرها في كتب الفلاحة وعظم وجودها على موائد العامة ليسرها وسهولة زرعها لدى السكان، وكانت تمثل أكبر نسبة من حيث

---

[1]- المصدر نفسه، ص710.

[2]- نبات الدخن ينتمي لفصيلة الحبوب شبيه بنبات الجاورس الذي هو الآخر يصنع منه الخبز. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ، ط1، ج2، ص368.

[3]- ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص65.

[4]- ابن سعيد المغربي، م س، ص140-141، 144.

الاستهلاك لدى الأهالي وشرائح المجتمع، وقد عددها ابن البصال في سفره من النوع التالي: الفول والحمص، اللوبياء، العدس، الجلبان، الفنج، الزعفران، السمسم، الخشخاش، في حين أورد ابن مرزوق بعض الغرس في تلمسان وثروات أخرى متنوعة، حيث ذكر أن جبل بني وريد يحقق لتلمسان دخلا قدره 12 ألف مثقال في السنة، لأن أراضيه تنتج كمية كبيرة من الفواكه كالتين والكرز، إضافة إلى الحطب والفحم[1].

ومن الأعلام والقامات التي أثرت ساحة الفلاحة والزراعة وما تعلق بالخضر والتوابل ابن البصال، وأبو زكرياء يحي الاشبيلي، وأبو الخير الاشبيلي. فالأول ذكر العديد من الأصناف كالجزر واللفت والبصل والثوم والفلفل السوداني وبقل الروم والاسبناج والسلق والخس[2].

يصف أبو زكرياء يحي الاشبيلي عدة أصناف أخرى كالزعتر والنعناع والقرع[3] إلا أن أبو الخير الإشبيلي وصف الخضار والبقول وأصنافها بقوله:" هو كل نبات ينبت من بزرة لا من أرومتيه تحت الأرض[4].

لقد حافظت الخضر والبقول عبر الزمن على أهميتها الغذائية وضرورة استحضارها في موائد العامة والخاصة لقيمتها الغذائية، فخصها القرآن بالذكر في عدة آيات، خاصة وأنها قابلة للتخزين حيث يمكن ادخارها لمدة أطول كمؤونة عند الشدة، وبخصوص التوابل فقد شاعت زراعتها أيضا في مختلف فحوص بلاد المغرب ومزارعه، فكثر إنتاجها وازدادت

---

[1]- ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري, منشورات وزارة الاوقاف المغرب، ط1 ,2008م, ص151

[2]- ابن البصال، المصدر السابق، ص141ـ، 161.

[3]- أبو زكرياء يحي الاشبيلي، المصدر السابق، ص245، 247.

[4]- أبو الخير الاشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ط1، مج1، ص103.

نكهتها على أطباق وأذواق السكان، وقد أفرد لها ابن البصال ذكرا في تصانيفه كقوله" الكمون، الكرويات، الأنسيون، الكروية[1].

وكما جرت العادة وفي سياق النظام الغذائي وموائد الطعام أدرج الإدريسي نوع الزراعة التي أسهمت في تيسير العيش وذلك لرواج منتوج الخضر والتوابل، وقد خص منطقة توزر بنصيب أوفر من هذا المنتوج واصفا إياها بوفرة بقولها وجودتها وتنوعها بينما أسهب في وصف منطقة قفصة التي تجود بها غلات متنوعة وتوابل زكية أهمها الكمون المتواجد بمناطق تقيوس بنحو عشرين ميلا منها، حيث عرفت هذه الجهة زراعة الكرويا[2]، والحقيقة أنَّ بلاد المغرب عموما تختص بهذه المحاصيل بالنظر إلى مناخها.

امتازت جزيرة قرقنة بغلات متنوعة ووفرة كبيرة، وقد أورد الإدريسي عناصر توابل الكمون والحبة الحارة المعروفة بالأنسيون[3]، في حين أنَّ صاحب كتاب الاستبصار لم يسهب في ذكر توابل وخضر المغرب الإسلامي إلا نادرا، مكتفيا بذكر مناطق محددة مثل بلاد الجريد جنوب إفريقية الموصوفة بالخيرات، في حين يصف مدينة حامة مطماطة بوفرة غلاتها وكذا قسنطينة وميلة الكثيرة الخصب[4].

ذكر حسن الوزان أن إقليم حاحا شاسع آهل بالسكان، يمارس أهله غراسة البصل وطبخه ولم يحدد مناطق زراعته بالمغرب الأقصى ويذكر جبل من الأطلس باسم دمنسرة

---

[1]- ابن البصال، المصدر السابق، ص121، 125.

[2]- الشريف الادريسي، مصدر السابق، ص277-278.

[3]- جزيرة قرقنة تقع في بحر المغرب قبالة قصر زياد من بر إفريقية إلى الشرق وتبعد عن مدينة سفاقص نحو خمسة عشر ميلا وأهلها يتخذون منها بيوت. الإدريسي، المصدر نفسه، ص304.

[4]- مجهول، الاستبصار في عجائب الامصار، تح :سعد زغلول ب ط,دار النشر المغربية,1985م ,ص150، 156-157.

الذي به شجر المصطكي[1]، وعموما ما ذكر من غراسة ومحاصيل تبين أنها صحية نافعة يدل على تطور ذوق السكان وتأثرهم بالأندلس.

ساهمت الأحداث السياسية والأمنية في وضع خريطة اقتصادية تأثرت بمستجدات الأوضاع الراهنة، فبلاد المغرب الإسلامي قبل الفتح المرابطي وخاصة الجهة الغربية عرفت مساحات محدودة في الزراعة إلا نادرا، كفحوض تلمسان وفاس وسبتة ودرعة وسجلماسة، وذكر البكري إقليم منطقة البصرة واصفا إياها كسهول وجبال مثل عمارة الغربية وقد سبق وصف هذه الجملة خلال القرن الرابع والعاشر ميلادي أيام ازدهار زراعتها وتعرضها لمحاولات الاحتلال[2]، ثم تعرضت للتخريب على يد يوسف بن زيري، وكانت سهول سواحلها الغربية قبل الفتح مأسدة[3]، وبمجيء دولة المرابطين عمت الزراعة وأصبحت دكالة وحدها تزرع كمنطقة من السوس إلى مراكش[4]، فتنوعت المحاصيل وتوفر الإنتاج، وعمت زراعة القمح والشعير والحنطة في البلاد الغربية كلها حتى مرتفعات تادلا وتازا وسفوح درن، وشاعت زراعة القطن والكتان في منطقة البصرة بعد أن أدخل المرابطون زراعة الزيتون وانتشرت الكروم لحل محصول العنب والتين.

كان لدولة المرابطين فضل كبير في إنعاش الزراعة بفضل الاستقرار النسبي الذي توفَّر في عهدها، بينما أصبح العهد الموحدي أقل من سابقه بفعل ظهور الخطر الهلالي الذي عرقل حركة نشاط القوافل التجارية الموحدية، وذلك بأسر أصحابها وهو ما خلق ظاهرة انعدام أو قلة الأمن الذي أدى إلى تقليص حجم اليد العاملة في القطاع الزراعي.

---

[1]- الحسن الوزان، م.س، ص788.

[2]- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص194.

[3]- الإدريسي، المصدر السابق، ص71-72.

[4]- المصدر نفسه، ص74.

التعليقات: بالاعتماد على التقارير والتعاليق المرفقة للملحق رقم 1 من خلال ما ذكره البكري والإدريسي وصاحب الاستبصار وابن سعيد المغربي، فالأول يمثل ما كان عليه الوضع قبل القرن السادس، والثاني يذكر الحال الذي طرأ نتيجة الغزو الهلالي وقيام الدولة المرابطية ثم ما حصل في البلاد الغربية من جراء الثورة الموحدية، والثالث والرابع يعطيان صورة لما استقر عليه الحال مع قيام الموحدين. يبدو أنَّ الدولة الموحدية أخفقت في الكثير من المرات في تنمية واقع المحاصيل الزراعية في هضاب تل الأطلس الشرقي من القيروان إلى قلعة حماد، فقد انعدمت زراعة الشعير والقمح والحنطة إلا داخل أسوار المدن الحصينة، وجهر الناس بالشكوى من قلتها[1]، ولم ينتج عن جهود الموحدين، إلا تحسن نسبي وذلك باتساع مجال الزراعة في ساحل تل الأطلس الشرقي من المغرب الإسلامي قمحا وشعيرا وحنطة وقصب السكر، بالإضافة إلى ازدهار محصول الحرير في قابس والقطن في قسنطينة، وما تم استخلاصه من الملحق رقم واحد أنَّ انحصار الزراعة أدى إلى اختيار نظام زراعي جديد خاص بالإنتاج وهو نظام البستنة وبذلك شاعت المحاصيل الرئيسية للبلاد الشرقية كالزيتون في فاس وصفاقص والتمر في فاس وبلاد الجريد والزاب حتى أنَّ صاحب الجغرافيا قال" أن التمر أصبح طاعم إفريقية بسبب سيطرة العرب عليها"[2].

فالدافع الذي كان وراء التزام البلاد الشرقية للمغرب الإسلامي بنظام البستنة دون الزراعة هو الهجرات من البلاد الشرقية نتيجة الغزو الهلالي ثم النورمندي فقلت ونقصت اليد العاملة وبلغ الأمر إلى استئجار العمال الزراعيين للحصاد وقطف الزيتون وحمله للمدن بما يقارب نصف ثمن المحصول[3].

---

[1]- الإدريسي، المصدر السابق، ص104.

[2]- الزهري، الجغرافيا، ص419.

[3]- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حاجي وآخرون، وزارة الاوقاف المغربية، 1981، ج1، ص302.

ثالثا: الغلات الزراعية ومناطقها.

أ- في البلاد الشرقية من المغرب الإسلامي[1].

المحاصيل	قمح	شعير و حنطة			حبوب أخرى			فواكه و أزهار			حريـــر			قصب سكر			زيتون		
المنطقة	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو
طرابلس	8	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
قابس	-	-	-	-	-	-	2	2	2	3	3	3	4	-	-	-	5	-	-	-	-
ساحل تونس الشرقي	-	2	-	-	-	7	7	-	7	-	-	1	-	-	9	9	9	9	9	9	9
قفصة	-	-	-	10	-	10	-	-	11	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
قسنطينة	-	-	-	-	-	-	-	13	13	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
نقزاوة	-	-	-	-	-	-	-	10	10	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
الزاب	12	12	12	-	19	19	19	-	-	20	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-

[1]- عز الدين موسى، م س، ص369-370.

هضاب تل أطلس الشرقي	19	19	–	19	19	19	–	–	–	20	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
ساحل تل أطلس شرقي	–	21	–	–	–	–	–	–	–	22	22	–	–	–	–	–	–	–	23	–	–

ق: قبل القرن السادس هجري

مص: في ظل حكم المرابطين وصنهاجة الشرق

مو : على أيام الموحدين في القرن 6هـ/12م.

المصادر لانذكر شيئا .

المحاصيل	قمح	شعير و حنطة			حبوب أخرى			فواكه و أزهار			حريـــر			قصب سكر			زيتون		
المنطقة	ق	ب	مو	ق	ب	مو	ق	ب	مو	ق	ب	مو	ق	ب	و	ق	ب	مو
طرابلس	1	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–		–	–	
قابس	–	–	–	–	–	–	4	4	4	3	3	3				–	–	5
ساحل تونس الشرقي	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–					26	–	–

قفصة	-	-	-	27	27	-	27	-	20	28	-	27	-	-	-	-	-	-	-	28
قسنطينة	-	-	-	29	29	-	29	-	30	-	-	29	-	-	-	-	-	-	-	30
نقزاوة	-	-	-	-	-	-	31	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
الزاب	-	-	-	32	32	-	32	-	-	33	33	32	-	-	-	-	-	-	-	-
هضاب تل أطلس الشرقي	34	34	-	-	-	-	-	-	-	-	35	-	-	-	-	-	-	-	-	36
ساحل تل اطلس شرقي	-	-	-	-	-	-	-	38	37	37	-	-	-	38	38	39	-	-	-	-

ق: قبل القرن السادس هجري

مص: في ظل حكم المرابطين و صنهاجة الشرق

مو : على أيام الموحدين في القرن السادس / الثاني عشر ، ط2.

- المصادر لانذكر شيئا .

ب) في البلاد الغربية من المغرب الإسلامي[1]

المحاصيل	قمح	شعير و حنطة			حبوب أخرى			فواكه و أزهار			حريـــر			قصب سكر			زيتون		
المنطقة	ع	هـ	هـ	ع	هـ	هـ	ع	هـ	هـ	ع	هـ	هـ	ع	هـ	هـ	ع	هـ	هـ	ع
تلمسان	–	1	1	2	3	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
جبال غمارة وسهولها	–	4	4	–	–	5	–	6	6	–	–	–	–	7	7	–	–	–	
فاس	–	8	8	–	9	–	–	9	9	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
تادلا	–	12	12	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
سلا و سهولها الغربية	–	13	13	–	14	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	9	–	–
مراكش	–	16	16	–	17	9	–	18	8	–	–	–	–	–	–	–	9	–	–
السوس	–	21	21	–	21	–	–	22	–	9	–	–	–	–		–	–	9	9
درعة وسجلماسة	24	24	24	–	25	–	9	26	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–

[1]- عز الدين موسى ، م س، ص376.

المحاصيل	قمح	شعير و حنطة			حبوب أخرى			فواكه و أزهار			حريـــر			قصب سكر			زيتون		
المنطقة	ق	هـ	هـ	ق	هـ	هـ	ق	هـ	هـ	ق	هـ	هـ	ق	هـ	هـ	ق	هـ	هـ	ق	هـ	هـ
تلمسان	–	–	–	–	21	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	9	–	–	–
جبال غمارة وسهولها	–	–	–	–	–	–	–	31	–	–	–	–	8	–	–	–	–	–	–	–	–
فاس	–	–	–	–	35	–	–	–	–	–	–	–	9	–	–	9	–	–	–	–	–
تادلا	–	–	–	37	–	–	–	37	–	–	–	–	–	–	–	–	–	8	–	–	–
سلا و سهولها الغربية	–	–	–	–	37	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	9	–	–
مراكش	–	–	–	–	39	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	9	–	–
السوس	–	41	41	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–		–	–	–	–	–	–
درعة وسجلماسة	–	43	43	44	45	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	9	–	–	–

1

[1]- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص377.

الفصل الثاني

أصناف الأطعمة في بلاد المغرب الإسلامي بين مجتمع العامة ومجتمع الخاصة

أولاّ: مفاهيم أساسية حول الغذاء

ثانيا: تطوّر فن الطبخ في المغرب الإسلامي

ثالثا: الأذواق والموائد

رابعا: قراءات طبية في بعض الأغذية والأشربة

أولا- مفاهيم أساسية حول الغذاء:

أ- مفهوم النظم الغذائية: يعد النظام الغذائي فن في إعداد الطعام، وذلك وفق ما تمليه مجموعة من المؤثرات والعوامل منها الحضارية والجغرافية، فقد أرجع عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته طبيعة النظام الغذائي للتحولات التي ميزت مكونات بنية المجتمع التي يراها أنها نتاج البيئة المحيطة بها خاصة الإيجابية منها، فترتب عنها العلوم والصنائع المختلفة والذي يفضي إلى تحصيل الغذاء والأقوات وتصور للموائد والأطباق[1].

قد تكون النظم الغذائية هي أنواع الأطعمة والأشربة بمختلف أنواعها وأجناسها، تتأثر بالتراتيب الاجتماعية وطبقاتها وبما تمليه عاداتها وتقاليدها المتباينة زمانا ومكانا، ذلك ما ينتج عنه تنوع للموائد والأطباق والأذواق[2]، والتي تدلُّ على المستوى الاجتماعي والرقي الحضاري لأي مجتمع، وغالبا ما يرتبط ذلك بالمدن والحواضر التي تجاوزت حاجاتها الضرورية إلى الكمالية وهو ما اعتبره ابن خلدون أحد مميزات العمران الحضري خلافا للبدوي الذي يعتمد أهله على صنف أو نوع واحد من الطعام.

اهتمت كتب التراجم والطبقات بطبيعة النظام الغذائي، والتي يمكن من خلالها إعطاء صورة لمجتمع ما من خلال نمط غذائه، من حيث أنواع الأطعمة ومكوناتها وطرق طهيها والوجبات المأخوذة يوميا، فالأطباق المشكَّلة من اللحم والخضر وأنواع الفواكه والخبز الأبيض المصنوع من القمح دليل على الفئة المترفة في المجتمع[3] في حين يكون خبز الشعير في العادة طعام الفئة الفقيرة.

1- ابن خلدون، المقدمة، صص73-74.

2- سعيد بن حمادة، الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، مدخل لدراسة العوائد والقيم، مجلة شرفات، ع77، منشورات الزمن، أكتوبر 2016م، سلا، ص53.

3- صلاح العنتري، مجاعات قسنطينة، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م، ص43.

ب- مفهوم التغذية:

1- لغة: غُذَاه، غُذوًا، وغَذْواه فاغتذى، وتغذى، ويقال غذوتُ الصبي باللبن، فاغتذى، أي ربيته. قال ابن سيده: غذيت الصبي في غذوته إذا غذيته[1]، وقيل وغذى غذاءً، والغذاء ككساد ما به بماء الجسم وقوامه[2]، والتغذية أيضا التربية[3].

2- اصطلاحا: التغذية هي عبارة علم وفن تكمن أهميته أنه علم تطبيقي على علاقة وثيقة بصحة الأفراد ووقايتهم من الأمراض، والحافظة على سلامتهم الجسمية والنفسية[4]، وذلك يعني أنه إجراء وقائي وتدابير صحية مرتبطة بسلامة الغذاء ونوعيته، وبذلك فهو تحت طائلة مسؤولية الفرد أو المجموعة.

عرف مصطلح التغذية تفاسير عديدة، فهو مجموعة العمليات الخاصة، يتلقى الكائن الحي للمواد الضرورية لنموه، وممارسة نشاطاته بشكل طبيعي من الوسط الذي يحيط به[5]، في حين عرفه ابن رشد بقوله:" إن الغذاء هو الذي من شأنه أن تصير الطباع جزءًا من المغتذي، وهو بالنوع الجزء المتحلل"[6].

ج- علم التغذية والغذاء: هو علم يختص بدراسة مصادر العناصر الغذائية، واعتبار الأغذية وأثر المعاملات المختلفة التي تتعرض لها أثناء التحزين والإعداد والتحضير والطهي، وأثناء عملية التبريد والتجفيف والحفظ والتسويق[7]، وقد أدرك العلم الحديث مدى ارتباط وعلاقة

1- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1999م، ط3، ج10، ص30.

2- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم الرسوبي، بيروت، 2005م، ط8، ص316.

3- ابن منظور، المصدر نفسه، ص30.

4- منى خليل عبد القادر وآخرون، أساسيات علم التغذية، مجموعة النيل العربية، القاهرة، ط1، 2005م، ص11.

5- عبد الرحيم فطاير، الغذاء والتغذية، الدار العلمية الدولية، دار الثقافة، عمان، ط1، 2000م، ص17.

6- ابن رشد، م س، ص321.

7- منى خليل عبد القادر وآخرون، المرجع نفسه، ص20.

وعلاقة التغذية بعناصر مكوناتها وماهية عناصرها ومصادرها الطبيعية وأدوارها الحيوية[1]، ومنه يتضح أن التغذية والغذاء لا تسلم إلا بسلامة عناصرها الطبيعية وأن صحة الإنسان مرهونة بأدوار هذه العناصر الحيوية.

يعتبر علم التغذية من العلوم القديمة التي سايرت تاريخ البشرية، والذي عرف في العصر الحديث تطورا كبير بتطور حياة وحاجات الإنسان حتى أصبح من العلوم الأساسية المرتبطة بعديد العلوم القديمة مثل الكيمياء والطب الفسيولوجي[2].

ثانيا- تطور فن الطبخ في المغرب الإسلامي:

أ- **مؤلفات حول فن الطبخ:** لمَّا كان الطبخ أحد مظاهر الحضارة الإنسانية فقد حظي بالتأليف من قبل المؤرخين، يقول صاحب كشف الظنون في الطبخ:" علم طبخ الأطعمة والمعاجين وهو علم يعرف به كيفية تركيب الأطعمة اللذيذة والنافعة بحسب الأمزجة، وكيفية تركيب المركبات الدوائية من جهة الوزن ومن جهة التقديم والتأخير "[3]، وقال ابن الوراق:" وُجد في خزائن كسرى خوان "[4] مرصع بالجواهر مكتوب عليه بالذهب:" ليكن طعامك أجود الغذاء تحكم به أساس جسدك، واعلم أنك تأكل ما تنتهي، أكلك فلا تقارب الشبع والجوع، وهذا القول من القواعد الصحية في الغذاء والتي أشار إليها أيضا النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور.

أما البغدادي صاحب كتاب الطبيخ فيقول عن الطعام:" فإن ملاذ الدنيا تنقسم إلى ستة أقسام هي: المأكل، المشرب، الملبوس، المنكوح والمشموم، والمسموع، وأفضل هذه

---

[1]- عبد الرحمن فطاير، المرجع السابق، ص17.

[2]- منى خليل عبد القادر وآخرون، المرجع السابق، ص19.

[3]- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث، بيروت، ج2، ص1095.

[4]- الخوان، والخوان والخُوان: الذي يؤكل عليه والجمع إخوانه في القليل وفي الكثير خون. ابن منظور، لسان العرب، ج13، 146.

الأقسام المأكل، إذ هو قوام الأبدان ومادة الحياة، وقال أيضا:" أربعة تجمع الحسن وتكمل النعمة، دين قوي، وسعي زكي، وطعام مري، وشراب هني "[1].

تفنن الإنسان المغربي في طبخ طعامه حيث تعددت وتنوعت أصناف طعامه تنوعا كبيرا خاصة بعدما تم نقل إرث الطبخ المشرقي إلى بلاد المغرب والأندلس منذ فترة مبكرة مع عصر الولاة والخلفاء الأمويين والعباسيين ومن هجرة الشعراء المبدعين أمثال زرياب[2] من جهة، ومن جهة أخرى كان هذا الإرث الموسيقي مستمدا من التقاليد الفارسية والإغريقية التي دخلت الحضارة الإسلامية بعد تعريب الدواوين[3]، ولا شك أنَّ كثيرا من الأطباق والأطعمة الفارسية قد غزت النظام الغذائي في المشرق والمغرب.

لفن الطبخ والطهي أهمية في تقييم حياة الشعوب والدلالة على أسلوب معيشتها وللأطعمة نفسها ارتباط بكافة مظاهر الحياة الإنسانية المادية والمعنوية، وهو أيضا مظهر للرقي الاجتماعي والحضاري، لذلك اعتنى الملوك والسلاطين بالموائد تعبيرا عن المستوى الحضاري وعن قوة حكم وسلطان دولهم، ولجأوا أحيانا إلى إطعام الرعية تأليفا لقلوبهم، وإظهار ذلك في المناسبات وفي استقبال السفراء.

خُلد الطبخ عند المسلمين في قصص مشوقة ذات مغزى، مثل قصة الحرب المعشوق بين لحم الضأن وحواضر السوق، هذه القصة تم تأليفها في القرن 9ه/15م تحمل معطيات

---

[1]- البغدادي، كتاب الطبيخ، ط1، 1964م، صص9-10.

[2]- زرياب هو علي بن نافع (ت230هـ/844م) وهو تلميذ إسحاق الموصلي، موسيقي لهارون الرشيد قدم من بغداد عاش في فترة حكم عبد الرحمن الأوسط، كان موسيقيا، أدخل تعديلات على المطبخ الأندلسي، فأدخل الكثير من الخضر كالكمأة وأضاف أصنافا للطبخ، عرفت باسمه، وعلم أهل الأندلس الأكل على الموائد واستعمال الملاعق والسكاكين بدل الأصابع وخرج عن الأطعمة البدائية القديمة وهي العصائد والثرائد. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، ط10، 2008م، ص332-333.

[3]- حورية شريد، المرجع السابق، ص47.

تاريخية مثل تقنية التخطيط العسكري وألفاظ الأواني المستعملة ونمط الحياة العامة والخاصة وأسماء الأكلات التي كانت سائدة في الشام ومصر وبلاد المغرب[1].

تعددت أصناف المأكولات المقدمة والمتكونة من عدة تركيبات في الوجبة الواحدة حيث أطلق العرب منذ القدم أسماء مختلفة على أنواع أطعمتهم حسب المناسبات المتعددة، فسموا طعام العرس وليمة، وطعام الفراغ من البناء بالوكيرة، وطعام المأتم بالوضيعة، وطعام الختان بالغديرة، وطعام الولادة بالجرش، وطعام الذبح عن الولد بالعقيقة، وطعام القادم من السفر بالنقيعة، ولكل طعام يصنع لدعوة فهو مأدبة[2]، وهكذا فإنَّ تعدد الأسماء دليل على شرف وأهمية المسمَّى.

تفنّن أهل الأندلس في الطّبخ وجمعوا فيه ما بين الذّوق والصّحة، ذلك ما ذكره ابن زهر الّذي عاصر المرابطين والموحّدين في اتّباع نظام لحفظ الصّحة، قال:" كلّ ما هو غليظ يقوم في الأكل ليكون في قعر المعدة لأن قعرها أقوى من الهضم من أعلاها والألبان تقوم والثرائد والجبن والهرائس والإسفنج وكذلك الأطرية ولحوم البحر والغنم المسمنة والقديد والحوت والحبوب المقلوة تقدم لجود هضمها، وفي آخر المأكل تستعمل المشروبات التي قد نضحت، فالحلواء والفواكه[3]، وعن الشراب قال ابن أبي أصيبعة:" فما تقول في الشراب، قال: أطيبه، أهنأه، أرقه، أمره وأعذبه وأشهاه، لا تستر به صرفا فبورك صداعا ويشير عليك من الأدواء أنواعا، قال فأي اللحم أفضل، قال: الضأن ... المالح مهلك للأكل[4].

---

[1]- حورية شريد- المرجع السابق، ص46.

[2]- المرجع نفسه، ص42-43.

[3]- أبو المعالي ابن أبي العلاء بن زهر بن زهر هو أبو مروان عبد الملك بن زهر المتطبب، ولد بإشبيلية عام 484 أو 487هـ وتوفي عام 557هـ/1162م. محمد بشير العامري، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي، ص398.

[4]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق عامر النجار، دار المعارف، ط1، 1996م، ج1، ص389.

وفي سياق تطور فن الطعام والطبخ هناك طرائف لا تخلو من المتعة والحضارة ورقي الموائد والأذواق من خلال تقديم الأطعمة وترتيبها وتنسيقها وفي ذلك قيل:" أول ما يبدأ بتقديمه المؤنثة مثل البقلية المكررة، والنفايا بأنواعها ومن بعدها من الألوان الجمل ثم المثلث ثم لون المري، ثم المخلل ثم المعسل ثم الفرطون ثم المعسل ثانية"[1]. فتقديم الطعام والشراب يراعى فيه الجانب الغذائي والصحي والزينة، يقول الأقفهصي صاحب مصنف شرح منظومة أداب الأكل والشرب والضيافة:

والأَكْلُ أنوَاعُهُ فِي سِعَــةٍ ... فِي مَدْخَلِ عَهْدِهَا خُذْهُ بِلا مَلَلِ
فَأَوَّلُ وَاجِبٍ حِفْظُ الحَيَاةِ فقطْ ... وثَانِيــهَا قُم بِهِ للفَرْدِ واشْتَغِلْ[2]

2- الأطعمة والأشربة في الشّعر والزّجل:

كان لموضوع الطعام مكانه في الشعر والزجل إذ خص الشعراء أطعمة معينة تشتهيها الأنفس بأبيات ومقاطع وقصائد تضمنت وصفا يليق بمستوى تحضيرها ومن تلك الأطعمة العنب التي جاء فيها:

أفضل ما يأكل منه العنب ... والدم من غذائه منتخب
يكـون فـي أولــه دواء ... وكـــل ما أحلى يكون غذاء
هو الذي فضله الرحمن ... عن كل ما تثمره الأغصان
وهو الذي فصيلته أصناف ... كثيــرة كلــها تضاف
للحر وللرطوبـــة اليسرة ... لزجة لبس لــها ضرورة[3]

وقيل عن الرمَّان:

قد جـاء في إبانة الرمان ... وقد أتي بفضله القرآن

---

[1]- محمد بشير العامري، المرجع السابق، ص289.

[2]- الأقفهصي، مخطوطة منظومة آداب الأكل، ورقة 7.

[3]- علي بن حسن المراكشي، أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية، تحقيق عبد الله بن ناصر العلوي، المجتمع الثقافي، أبوظبي، 1999م، صص49-50.

أنواعه ست بـلا خلاف ونعتها أيـضا من الأصناف
الحلو والمرّ ومنه القـابض وتفـه[1] وعافص وحامض[2]

وعن أكل الأرز بالحليب:

وفي الذي يطبخ بالحليب سد على نحو قوي التركيب
وفعله التخصيب للأبدان ونضرة الوجـوه والألـوان[3]

ثالثا- الأذواق والموائد:

أ- أنواع الأطعمة: تعددت الأطعمة وتنوعت حسب مذاقها وتركيبتها وحسب مستويات أصحابها، والبيئة الطبيعية، فالطعام هو وسيلة لحفظ الصحة ومعالجة العلل والأمراض فتناوله يشعر الإسنان بسريان الطاقة في سائر أجزاء جسده حيث لكل نوع من الأطعمة فائدة عظيمة خاصة به.

1-1 الحوامض: تُعد من الفواكه المنتشرة كثرا في بلاد المغرب لمناسبة الظروف الطبيعية منها ما يحلى ومنها ما يبقى على حموضته فالذي يحلو منها إما يغلى بالسكر أو بالعسل[4].

2-1 التفاحية: وصنعتها أن يؤخذ اللحم السمين ويقطع قطعا صغيرة ويضاف إليه القليل من الملح والكسير ثم يوضع على النار إلى أن يقارب النضج ثم يقطع البصل ويلقى فوقه مع

1- التفه هو البارد الذي لا يظهر طعامه لخفاء مذاقه أو لقلته. ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص481.
2- علي بن حسن المراكشي، علامة السعادة، ص54-55.
3- علي بن حسن المراكشي، المصدر السابق، 92.
4- مؤلف مجهول، كنز الفوائد في تنويع الموائد، تحقيق مانويلا مارين وديفيد ويلز، وفرانس شنايلر، شتوتكارت، بيروت، 1993م، ط1، ج4، ص21.

القرفة والزنجبيل[1] ثم يطبخ التفاح الحامض المنقى من حبه ثم يعصر ماؤه ويلقى فوق الخليط ويترك حتى ينضج تماما ثم يرفع من فوق النار ويقدم[2]، وقد تصنع من لحوم الطير مثل الفراريخ أو فرخ الحمام فيكون أفضل وألطف[3].

3-1 السكباج: وصنعته أن يقطع اللحم قطعا صغيرة ويوضع في القدر ويغمر بالماء[4] والخل ويضاف إليه الزيت وقليل من الملح والكسبرجان مسلوق ويسحق مع لباب الخبز ويلقى فوق الخليط ويترك مدة من الزمن ثم يقدم[5] وأصل كلمة السكباج فارسية وتعني الخل[6].

4-1 السواذج: منها :

- **المهلبية:** ويكون تحضيرها أن يسلق اللحم السمين بعد أن يقطع[7] ويضاف إليه القليل من الزيت والملح وعود دار صيني[8] وهي القرفة[9] والكسبر والمصطكى أي نبات يطيب رائحة الطعام[10]، وبصل مقطع وعندما ينضج يصنع بشيء من الزعفران ويحلى بسكر ويترك على النار حتى يهدأ[11].

---

[1]- البغدادي، الطبيخ، دار الكتاب الجديدة، د. م، 1964م، ط1، ص17.

[2]- مؤلف مجهول، الطبيخ في المغرب والأندلس عصر الموحدين، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1961م، د. ط، مج9-10، ص111.

[3]- المصدر نفسه، ص12.

[4]- مؤلف مجهول، كنز الفوائد، ص21.

[5]- البغدادي، المصدر السابق، صص13-14.

[6]- فوزية عبد اللطيف شحادة، فن الطبخ والموائد في العصر العباسي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة القديس يوسف، 1985م، ص141.

[7]- البغدادي، المصدر السابق، ص28.

[8]- مؤلف مجهول، الطبيخ، ص186.

[9]- أبي الخير الإشبيلي: م س، ص224/ ابن حمادوش الجزائري، كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996م، ص330.

[10]- مؤلف مجهول، الطبيخ، ص186.

[11]- مؤلف مجهول، كنز الفوائد، ص41.

- **رخامية:** لكل رطل أرز ثلاث أقداح لبن[1]، أي 2.5 لتر لبن، وعود قرفة ومصطكى ويجعل فوقه اللحم المقلي في الأبازير أي التوابل وهي ما يطيب به الغذاء من الأشياء الجافة مثل الكمون[2]، فإذا غلى الماء ألقي عليه الأرز المغسول ويحرك، بحيث يكون على نار هادئة حتى ينضج[3]، فإذا نضج وانعقد يوضع فوقه اللحم المقلي ويقدم[4].

- **الكمونية:** يحتاج هذا الطبق إلى لحم ولفت وحمص وثوم وفلفل وكسبر، يخلط الكل مع بعض ويضاف إليه الألأبازير ويقلى الخليط في الزيت ويمر بقليل من الماء ويطهى على نار هادئة ثم يقدم[5].

- **الفريكية:** تحتاج إلى لحم وفلفل وفريك وجبن وكمون، يسلق اللحم ويضاف إليه الفريك مدشوشا فإذا نضج يضاف إليه اللبن والكمون والمصطكى والقرفة[6].

2- **البقوليات:** صنفت الأغذية المتكونة من البقوليات من بين الأغذية المستحسنة لدى المغاربة، فكانت الأطباق التي أساسها الحمص والفول منتشرة جدا حيث لا يكاد طبق يخلو منه أشار ابن زرين التجيبي إلى عدة أطباق أساسها الفول ومن أشهرها القستفية[7]، يقطع اللحم ويغمر بالماء ويغلى حتى يقارب النضج ثم يضاف إليه القرنفل أي الطيب وقرفة

---

[1]- جماعة من المختصين، معجم النفائس الكبير، إشراف محمد أبو حافة، دار النفائس، بيروت، 2007م، ط1، ص107.

[2]- معجم النفائس، ص124.

[3]- مؤلف مجهول، كنز الفوائد، ص41.

[4]- البغدادي، المصدر السابق، ص28.

[5]- المصدر نفسه، ص50.

[6]- المصدر نفسه، ص50.

[7]- ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، مركز العالمية، أصفهان، التحريات الكمبيوترية، د.ت، د. ط، صص239-240.

ومصطكى وملح ثم يترك على النار حتى ينضج من مرقه[1] وينقى اللحم من العظام[2] ثم تعاد إليه مرقته ثم يضاف إليه فستق مدشوش كي يخثر به ويترك على النار قليلا ويرش عليه الليمون وماء الورد ثم يرفع من أعلى النار ويقدم[3]، وهناك طبق آخر يتمثل في ماء وحمص، وصفته أن يقطع اللحم ويلقى عليه الملح والكمون والكسبر بقدر الحاجة بالإضافة إلى عود دار صيني وحمص وربطة مقطعة، ثم يغمر الخليط بالماء ويوضع على النار إلى أن ينضج ثم يرفع[4].

كانت الأطباق المحضرة من الفول بمثابة الطبق اليومي في المدن المغربية، وغالبا ما يتم تناوله في فصل الشتاء وبذلك تكون البقول قد استخدمت في تحضير الأطباق كمنتج مستبدل في غياب الخضروات[5].

3- المعاجين:

3-1 معجون الجزر: يؤخذ الجزر ويقشر ويحك[6] ويطبخ قليلا في الماء ثنم ينزل على النار ويجفف على غربال قليلا[7] وعندما يجف الجزر يعاد تغليته في العسل حتى ينضج ويصبح في قوام المعاجين وبعد ذلك يضاف إليه الزنجبيل والكبابة والجلجان ويأكل منه على قدر جوزة على الطعام، له الكثير من المنافع[8].

---

[1]- مجهول، كنز الفوائد، ص24.

[2]- البغدادي، المصدر السابق، ص24.

[3]- مجهول، كنز الفوائد، ص24.

[4]- البغدادي، المصدر سابق، ص16.

[5]- ابن زرين التجيبي، المصدر السابق، صص222-226.

[6]- مؤلف مجهول، كنز الفوائد، ص152.

[7]- مجهول، الطبيخ، ص248-249.

[8]- مؤلف مجهول، كنز الفوائد، ص152.

2-3 معجون السفرجل:

وصنعته أن ينقى السفرجل من حبه ويقطع قطعا صغيرة ويطبخ في العسل حتى ينضج ويصبح في مقام المعاجين[1]، ويفوه أي تغير لونه وتطيب رائحته[2].

4- في الأسماك وما يطبخ منها:

نظرا لامتداد بلاد المغرب على سواحل طويلة، ساعد على توفر مادة السمك، التي اتخذ منها ساكنة المنطقة مصدرا أساسيا لقوتهم، وقد أمدنا الجغرافي الزهري بمعلومات عن أسماك ذات قيمة غذائية مثل حوت موسى الذي كان سببا في ثراء ونشاط تجارة سبتة[3]، فتنوعت أطباق الأسماك ذلك ما أشار إليه ابن رزين من السردين مدونا الكثير عنه، في كتابه عدة وصفات أساسها السمك كطبق السمك مع اللوز[4]، بالإضافة إلى أطباق سمك أخرى كالسمك المشوي وصنعته أن يؤخذ فلفل وقرفة وثوم وكسبر وكروية والقليل من اليمون ويخلط الجميع مع قليل من الملح والزيت فيؤخذ السمك فيحشى جيدا في بطنه وجوانبه ويعمل حتى ينضج الوجه الأول ثم يخرج ويبرد قليلا ثم يرد إلى الفرن حين بلوغ الحاجة[5]، فهذا الفن من الموائد المتعلقة بالأسماك يظهر طبيعة سكان بلاد المغرب أنهم شعوب ألفوا البحر منذ أمد بعيد.

---

[1]- مؤلف مجهول، الطبيخ، ص249.

[2]- الفيروز أبادي، المصدر السابق، ص1348.

[3]- الزهري، م س، ص120.

[4]- ابن رزين التجيبي، مصدر سابق، ص124.

[5]- مؤلف مجهول، كنز الفوائد ص99.

5- الكسكس:

يرجع أصله إلى العصر الفينيقي[1] واختص به أهل المغرب دون غيرهم[2] ويسمى الكسكسو أو الكسكاس ويعرف أيضا السكسو وأصل هذا الاسم بربري وما زال متداولا عند المغاربة إلى حد اليوم[3]، وأجود أنواعه المصنوع من دقيق الحنطة المجفف بعد تحويره[4].

يعتبر الثريد والكسكس أكثر الأطعمة انتشارا بين سكان البدو والرحل وذلك لسهولة تحضيرها، وعدم حاجتهما للأفران، كما أنهما طعام مبارك لإشباع قليله الكثير[5]، وأنواع الكسكس عديدة منها الجوزي وهو الكسكس الذي يحك بعد نضجه بلب الجوز والقرفة والعسل والمصطكى ويسقى بمرق اللحم والباذنجان وتدر عليه القرفة والعسل وهو عبارة عن كسكس من السميد الدقيق ويدهن بالسمن ...، واستعمل الكسكس لحشو خروف بعد أن يحك بالسمن والعسل والقرفة والقليل من المصطكى ويشوى في التنور ثم يفرغ الكسكس في مثرد ويزين بلحم الخروف المشوي والقرفة والعسل[6].

تنوعت الأواني التي كانت تقدم فيها الأطعمة والأشربة على الموائد بين آنية الزجاج الرفيع التي فضلها أهل الأندلس والمغرب على حد سواء على المصنوعة من الذهب والفضة تأثرا بزرياب[7]، إضافة إلى المصنوعة من الفخار.

---

[1]- عبد العالي حتمي، التغذية في المغرب والأندلس في العصر الوسيط قضايا ونماذج، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2001-2002م، ص275.

[2]- ابن الخطيب، الأصول لحفظ الصحة في الفصول، مخطوط بالمكتبة العامة، الرباط، رقم 652 د، ص49.

[3]- أحمد قدامة، الغذاء والتداوي بالنبات ،موسوعة غذائية عامة ,ط3,دار النفائس,بيروت,2009 ,ص595.

[4]- رجب عبد الجواد إبراهيم، ألفاظ المأكل والمشرب في العربية الأندلسية، دراسة في نفح الطيب للمقري، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، ص50.

[5]- ابن الخطيب، م ن، ص49.

[6]- ابن رزين التجيبي، المصدر السابق، صص88-89.

[7]- إبراهيم القطان، مطاعمة الملوك في الأدب العربي، اعداد سهام الدبابي،كلية الآداب والفنون،2013م، تونس ،ص105.

وفيما يخص وجبات الطعام وآدابه، فيعد الغذاء الوجبة الأولى في اليوم ويتم تناولها في الصباح وقبل الزوال، أما العشاء فمثل الوجبة الثانية، ويتناولونه بعد الغروب ليلا أي بمعدل وجبتين في اليوم، غير أن هذا لا ينطبق على طبقات المجتمع كلها، فهناك من يأكل في اليوم خمس أكلات[1]، وأن تكون أوقات الأكل باردة ويتحرى بعدها الراحة والفاكهة الرطبة، وأن تقدم منها على الطعام ما كان لها إسراع وانقياد كالتين والعنب والإجاص والمشمش[2]، كما أنَّ اتباع ترتيب خاص في الأكل يبقي الجسم في أفضل حال وحسبنا في ذلك قول ابن الخطيب:

يا آكلا كل ما اشتهاه ... وشتم الطب والطيب

ثمار ما قد غرست تجني ... فانتظر السقم عن قريب

يجتمع الداء كل يوم ... أغذية السوء كالذنوب[3]

تميز المتصوفة بنظام غذائي صارم حيث عادة ما كانوا يأخذون بأنفسهم إلى التقشف في تناول الطعام حيث يكتفون بالقليل منه، ويلتزمون بآداب خاصة في الأكل، فكانوا يفضلون غيرهم على أنفسهم[4]، ومن الآداب ما ذكرها ابن عربي من أن هناك آداب خاصة للأكل حيث يرى:" كل أكل أن يتناول من الطعام أقربه إليه دون التوغل ابتغاء الحصول على قطعة أطيب، ولا النظر إلى يد جاره أو وجهه ... وعند أكل كل لقمة أن يحمد الله وهو يمضغها ويبتلعها حتى يبارك له الله في طعامه[5].

---

[1]- محمد ضيف الله بطاينة، الأطعمة و الأشربة عند العرب في صدر الإسلام ، مجلة دراسات، العدد الأول، عمادة البحث العلمي ،عمان ، جمادى الأول 1406/1986 ، ص132.

[2]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ورقة 42.

[3]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ورقة 42.

[4]- ابن الزيات، المصدر السابق، ص292.

[5]- آثين بلاسيوس، ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1965م، ص137.

لم يهمل الإسلام آداب الأكل فأمرنا أن نأكل من حواف الطعام لأن البركة تنزل وسطه ونهانا عن الأكل بالشمال مصداقا لقوله صلى اللع عليه وسلم:(لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله)[1].

كتب الهادي روجي إدريس:" لم يرد في أي نص من النصوص الصنهاجية التي بين أيدينا ذكر الكسكسي الذي أشارت إليه المصادر في العصر الحفصي فهل يمكن أن نستنتج من ذلك أن هذا الطعام غير معروف في المشرق والمميز للطبيخ المغربي والذي لم يظهر إلا في ما بعد "[2] في حين يرى بعض الدارسين كإبراهيم جدلة عكس ذلك إذ أن العصر الحفصي شهد بعض الأطعمة مثل الكسكسي الذي لا توجد له أي ذكر قبل القرن الثامن الهجري، ولا ندري على ماذا اعتمد حسن حسني عبد الوهاب عندما أورد هذه الأكلة ضمن أطعمة العهد الزيري، ومن المؤكد أنه طعام بربري الأصل لا تجد له أثر في بلاد المشرق[3].

6- الهرائس:

6-1 هريسة الشحم: نصف كيل قمح ورطلا لحم والدرس ونصف رطل من الشحم[4].

6-2 هريسة القمح: تتكون من قدح ودرس وحطب ومؤونة وكراء فهذا النوع من الهرائس يكون طيبا في حال قدح القمح يصدق ستة أرباع[5].

---

[1]- الترمذي، الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد معروف، مج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، ص394-397.

[2]- إدريس الهادي روجي، الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن العاشر إلى الثاني عشر، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص194.

[3]- إبراهيم جدلة، المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي، قفصة، المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات، 2010م، ص64.

[4]- مقال في مجلة التربية للبنات جامعة بغداد ،أنواع الأطعمة والأشربة في عصري المرابطين والموحدين، ص3.

[1]- المرجع نفسه، ص3.

3-6 الجشيشة: الحب حين أن يدق قبل أن يطبخ فإذا طبخ فهو دشيشة[1] أو جشيشة كما ينطقه أهل المغرب من الأطعمة الشعبية وتنوعت حسب الجهة التي تصنع منها وهي عبارة عن درس الحبوب وتصفيتها وطبخها مع الماء وقد يضاف إليها اللبن أو الحليب والأنيسون والملح فقط، ومن أنواعه جشيش القمح، وجشيش الشعير الذي اختص به أهل البادية، وجشيش الأرز الذي اشتهرت به الأندلس خاصة مرسية وبلنسية لانتشار زراعته فيها[2].

7- **طبق المشاش:** هذا الطبق تناولته المعاجم أنه يعني مص، وتعني أنقع الشيء حتى يذوب وأن مشاط العظم الذي لا مخ فيه ولعله يسمى كذلك لأنه يتمشش وإن كان لفظ المشاش ينتمي إلى حقل الطعام فإنه لا يدل على لون حلو[3].

كتب الطبيخ المغربية تفيد أن المشاش من العجائن التي تقلى وتسقى بشراب الورد أو العسل أو تلقى في العسل الصرف[4].

أما النصوص المشرقية وجدت المشاش عند ابن الأخوة لونا من ألوان الحلوة[5]، وأشار ابن بسام إلى ناطف المشاش الذي يكون أصفر وأبيض عندما يصنع بعسل ويكون أسودا عندما يعمل بقند[6].

---

[2]- المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر االقاموس، اعتنى به عبد المنعم خليل إبراهيم وكريم سيد محمد محمود، مج9، ج17، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م، ص55.

[3]- ابن رزين التجيبي، المصدر السابق، ص61-62.

[4]- سهام الدبابي الميساوي، مائدة إفريقية دراسة في ألوان الطعام، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، 2017م، مطبعة المغرب، ص150.

[5]- المرجع نفسه، ص150.

[1]- المرجع نفسه، ص150.

[2]- المرجع نفسه، ص151.

المفارقة بين التعريفين لهذا الطبق بين المغاربة والمشارقة وتعريف كل منها له، هل مشاش السوس هو من جنس المعسلات عند المشارقة، ذكر ابن رزين هذا الطبق تحت مسمى مشاش زبيدة، هذه طبيعته فيطحن السميد حتى يصير درنكا ويعجن بخمير عجنا ويجاد عركه ثم يُؤخذ شحم الكلى الطيب الطري وينقى من عروقه وقشوره ويدق في المهراس ... وسمسم مقشور وغير مقشور ويذر عليها سكر[1].

8- **الحلويات**: من الحلويات التي عمرت طويلا ويتم إعدادها إلى غاية اليوم الكعك[2]، يتم إعدادها بنظام دقيق حيث يخلط السكر باللوز قبيل الدقيق الدرمك بالزيت ثم يعجن بالماء والملح والخميرة ثم يدرس السكر مع لباب اللوز في مهراس من نحاس ويكون اللوز بمقدار السكر يضاف لها ماء الورد وزنجبيل وسنبل وقرفة وقرنفل وفلفل وكافور، يجمع الكل ثم يمدد العجين ويوضع الحشوة فيه في شكل كعكة وتنقش بمنقاش من نحاس تقدم للفرن للطهي ثم ترش بماء الورد ويسير من المصطكى[3].

9- **المجبنة:** هو طبق يحضر ويدعك جبن طري بالأيدي حتى يصير كالعجين ثم يعجن السميد عجنا حتى يصير في قوام عجين الزلابية ثم تؤخذ منه قطعة تبسط برفق في كف اليد فيجعل عليها شيء من الجبن المدعوك إلى أن يصير الجبن حشوا لها في مقلاة بها زيت وهي على النار ثم يرش عليها سكر مسحوق والكمون، وتطبخ بحضور الأضياف ... ولا يعمل من جبن واحد بل من البقر والغنم[4].

ب- ترتيبها عند التقديم:

---

[3]- ابن رزين، المصدر السابق، ص79.

[4]- ابن رزين التجيبي، المصدر السابق، صص193-196.

[5]- المصدر نفسه، ص63-64.

[6]- سهام الدبابي، المرجع السابق، صص147-148.

تظهر علاقة الأطعمة بالصحة من خلال تقديمها حسب ترتيبها، قال ابن زهر:" اعلم أن الذي يجب حفظه ومراعاته في المطعم تدبير أربعة أشياء: كيفيته، وكميته، ووقته وترتبه، ويراعى أيضا تأثيرهما على حفظ الصحة، ففسادهما في المعدة يؤثر عليها، ذلك له علاقة بتناسب الأطعمة مع بعضها، فالأطعمة الغليظة بطيئة الانحدار ثقيلة في المعدة وصعبة الانهضام لهذا وجب أكلها وحدها لا تجمع مع غيرها من الأطعمة، بل تقدم عليها وتؤكل على الجوع الشديد ومن هذه الأطعمة الهرائس والرؤوس ولحم البقر السمين والأرز باللبن والمجبنات والأطعمة المحشية والدسمة لأن المعدة تقوى على هضمها إذا أكلت وحدها وعند وضع الأطعمة على المائدة يفضل أن تقدم المؤنثة وتشمل التفايا بمختلف أنواعها والبقولية المكررة ثم ألوان الجمل والمثلث والمري والمخلل والمعسل والفرطون ثم يقدم العسل ثانية[1]، وهكذا تكون الوجبة صحية.

يجب تقديم أكل لحوم البقر والغنم السمينة والحوت والقديد كون باطن المعدة أقوى ويهضم الأكل أحسن من أعلاه، فيجود بذلك الهضم وتقل مضرة المنهضم، كما تقدم الحبوب المقلية مع البقوليات لأنه تلين البطن والأطعمة المالحة يجب تقديمها واستهلاكها وسط الأكل أما المشوية إن نضجت جيدا وأن لا يتم أكلها في أول الأمر وتؤخر أيضا بينما الحلوة تقدم في بداية الأكل إذا صنعت من البيض أو السمسم وبذور الكتان[2] ولا يمكن جمعها في الأكل إلا بتدبير صحي ويستحسن عند أكل اللحوم أن تقدم الفاكهة قبلها مصداقا لقوله تعالى: ((وأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ ولَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ))[3].

ج- النظام الغذائي لدى طبقات المجتمع:

[1]- مجهول، أنواع الصيدلة في أنواع الأطعمة، ص50-51، 58.

[2]- ابن زهر، كتاب الأغذية، ص111-112.

[3]- سورة الطور، الآية 22.

يتمتع المغرب الإسلامي بتركيبة سكانية وهرم بنائي متميز جعل من نشاطه الحرفي ومن عاداته وتقاليده نظاما غذائيا يتأثر بعامل دخل الفرد الاقتصادي وكذا طبيعة انتمائه الاجتماعي الذي ينحدر منه وذلك يؤثر على عاداته الغذائية التي يمارسها في حياته اليومية[1]، وبناءً عليه فقد تعددت الأنماط الغذائية حسب الفئات الاجتماعية والبيئات الطبيعية، وأحيانا داخل الإقليم الواحد بين الشمال والجنوب وبين البدو والحضر، ففي الوقت الذي تنوعت فيه الأطباق عند الحضر، اقتصر البدو على طبق واحد.

إنَّ التراتبية الاجتماعية التي سادت بلاد المغرب الإسلامي كان لها تأثيرا كبيرا في تحديد نمط موائد الأطباق والأذواق للأهالي، فمنها المائدة المعطرة، ومنها الجافة والشاحبة التي تفتقر إلى أبسط الغذاء وهذا الذي يتحدد في فئات الخاصة والعامة[2]، فهي تتباين من حيث نوع الأطباق المقدمة.

اختلفت الأطعمة والأطباق حسب الشرائح الاجتماعية وحسب المناطق والبيئات حيث أورد ابن الزيات في ترجمة ابراهيم بن إسماعيل " أن رجلا أتاه بحفة من ثريد الدرمك بالزعفران واللحم الغنمي السمين المفور وليس مما يصنع بتلك البلاد " ما ذكره الجغرافيون أن سكان أوداغست أن القمح والخبز يستهلك إلا من طرف الأغنياء أما العامة فاقتصروا على أكل الذرة والمقاني[3].

---

[1]- محمد حجي وأخرون، معلمة المغرب، ج2، مطابع سلا، 1410هـ، ص525.

[2]- سعيد بن حمادة، م س ،صص54-55.

[3]- إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع الذهنيات، الطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1993م، عن الإدريسي نزهة المشتاق في وصف إفريقيا الشمالية، ص61.

تخصصت قبائل لمتونة في طعام عرف باسم " آسلو " باللهجة البربرية يصنع عن طريق قلي الحنطة قليا معتدلا ودقها حتى تصير جريشا ثم تمزج بالعسل والسمن ويخلط جميع ذلك على النار وتوضع في المزاود وتصبح طعاما شهيا[1].

1- مائدة الطبقة الخاصة والملوك: يصطلح على هذه الموائد بالمآدب السلطانية لما يصاحبها من أبهة وترف وقد ارتبط بهذه الترتيبات مظهر النفوذ والسطوة والخضوع للسلطان، وقد صاحبت هذه الموائد الفاخرة رهبة الحكام وتمردهم عن طبيعة الرعية الذي هو في الأصل قدوة تنتفع بها الرعية وتستند عليها ذلك ما أخلت به سلاطين وملوك المغرب الإسلامي عندما اتخذوا من الترف في المأكل كنوع من التسلط وذلك يتناقض مع مبدأ السواسية الذي التزم بها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت23ه/653م) في قوله :" متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا " وقد بايعته الرعية على العدل إلا أنه يقال بأن التفرد والتميز لهؤلاء الحكام لأجل مصلحة الحكم واستقراره، ويتجلى في ملبسهم ونظام أغذيتهم ومسكنهم[2].

يُعد الشواء من الأنظمة الغذائية التي تعتمد على أصناف عديدة من اللحوم الحمراء فشي الخرفان وطهي أنواع مختلفة من الخضر والبقل يدل على ما كان يحضر داخل مطابخ هذه الفئة المتميزة، وقد تفنن أصحاب النفوذ وكبار التجار في إعداد أطعمة مرتبطة بشرطي الإعداد والتحضير الجيد في طبخها[3]. اشتهرت هذه الطبقة بحبها للأمخاخ حتى أن موائدهم لم تخلو منها، ولم يقتصروا على نوع معين، فأكلوا أمخاخ كل ما يذبح من الحيوانات والطيور[4]

---

[1]- القادري بوتشيش، المرجع السابق، نقلا عن المقري، أزهار الرياض، ج5، ص79.

[2]- ابن رضوان المالقي، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق علي سامي النشار، ط1، دار الثقافة، المغرب، 1404هـ، صص65-66.

[3]- سعيد بن حماد، المرجع السابق، ص58.

[4]- جمال أحمد طه، المرجع السابق، ص187.

وفضل بعضهم أكل المشاوي فعرف في تلك الفترة شواء عجل كامل وتقديمه كما هو على موائد المترفين[1]، وأكلوا ما عرف بالتفايا المكونة من لحم الغنم السمين المحلول بماء ورد البيادق[2].

ومن الوصفات الثريد التي كانت تعد في عهد بني مرين ثريد رؤوس العجول، يحتاج فيها لرأس عجل يوضع في برمة بها ماء ثم ينزع شعر العجل إذا لم يتناثر، فيتم وضعه على النار حتى يسهل نزع الشعر ثم ينظف ويوضع في قدر بها ملح وزيت وفلفل وكسبرة يابسة وبصلة يوضع على النار ثم يثرد الخبز المختمر أدق ثم يترك الوتك[3] على القدر ويوضع في إناء ويسقى الفتات بسائر المرق، ويترك قليلا ثم نزيد المرق إلى الثريد إذا احتاج إليه ثم يصب الوتك على الفتات وتوضع القطع عليه وتذر القرفة[4].

أما ثريد رؤوس غنم الأضاحي وغيرها فتحتاج فيها إلى رؤوس الأضاحي حيث تنظف جيدا ثم تفصل عضوا عضوا ثم وتؤخذ بطن الأضحية وتسلق بالماء الساخب لينظف ثم يؤجذ قطعة من الشحم وقطعة من الكرش وتشد عليه بالمصران وتوضع في قدر مع الرؤوس ويضاف إليها ملح وزيت وكسبر يابسة وفلفل وبصل وماء حتى تنضج ثم تقطع مورقات الإسفنج[5] قطعا كبيرة وتوضع في المثرد ويصب عليها المرق وتذر عليها القرفة[6].

---

[1]- جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين، دار الوفاء للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1987م ، ص187.

[2]- ديفيد ويلز، المرجع السابق، ص187.

[3]- الوتك هو دمم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه. ابن منظور، المصدر السابق، ج10، ص509.

[4]- ابن رزين التجيبي، المصدر السابق، ص39.

[5]- الإسفنج يطلق على رقاق مخلخل يصنع من الدقيق المقلو في الزيت وهو شبيه بالإسفنج المتولد في قاع البحر من حيث الرخاوة والشكل. رجب عبد الجواد إبراهيم، المرجع السابق، ص37.

[6]- المرجع نفسه، ص40.

وفي سياق أغذية الخاصة، والمترفين تناول الرحالة أدورث في إحدى ضواحي مدينة تونس نوع الطعام وتركيبته التي كانت تقدمه بعض العائلات المترفة إلى أحد الضيوف المرموقين، فقد كانت تشتمل على مقروض بالزبيب وكرويات - كعاير - من البازين مسقية بمرق الدجاج وفواكه - لوز وتمر وتفاح - وبعض حبات من الخشخاش ليتمكن الضيف من النوم[1].

يصنف غذاء الملك ضمن التفرد الملوكي الذي لا يقارن بغذاء من حوله من الساكنة العوام فمائدة الملك لها دلالات تميزها عن سائر الموائد لأنها تعد رمزا ملوكيا يدل على الثقافة الإنسانية، فهي تتميز بتناسقها وألوانها المختلفة ومأكولاتها المتعددة، ووفرة محتوياتها[2]، وقد كان مجمع الملوك والأمراء يكثرون من المآدب الكبرى لزائريهم في المناسبات المختلفة سواء كانت سياسية أو دينية اجتماعية، أو بمناسبة الاحتفالات التي كانت تقام استعدادا لغزو أو نصر عسكري فكان الطعام يدوم مدة خمسة عشر يوما أو شهرا كاملا[3].

شملت أطعمة وأشربة الملوك شتى أنواع المأكولات مما لذ وطاب، فمنها ما هو من مصدر حيواني أي اللحوم من الطير والأنعام، ومنها ما هو من مصدر نباتي كأنواع الفواكه والخضر ومما كان يتناوله هؤلاء فنذكر على سبيل المثال بعض الأطباق كطبق الإسفيريا وهو طبق مصنوع من اللحم، وكان من أطعمة الأمير الموحدي أبي الحسن حفيد عبد المؤمن بن علي[4] والي مراكش في عهد الخليفة يعقوب المنصور والإسفيريا هي أنواع

---

[1]- روبرت برانشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ق13-15م، ترجمة حمادي الساحلي، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 285.

[2]- عز الدين علام، الآداب السلطانية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006م، ص225-226.

[3]- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987م، صص85، 182.

[4]- مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص86.

الأحراش وصنعتها أن تأخذ من اللحم الأحمر ويهرس ويضاف إليه القليل من الماء وبيض وملح وفلفل وزعفران وكمون وكسبر ويخلط ثم يضع مقلاة بها زيت على الناتر يتركه يغلي قليلا ثم يأخذ من الإسفيريا ملعقة ويضعها في الزيت برفق حتى تعقد ويستمر بنفس الطريق حتى انتهاء كل الخليط ثم يضع لها مرق، ويضع فيها كل كويرات الخليط[1] حيث امتزج الكرم بالإطعام عند ملوك بلاد المغرب.

المأدبة الغذائية التي ترأسها الخليفة أبو يعقوب الموحدي (560-580هـ/1164-1184م) في بحيرة اشبيلية وهي بمثابة منتجع ملكي على شرف العرب الوافدين عليه من إفريقية إذ خرج إلى البحيرة برسم إطعامهم والترحيب بهم بعد صلاة الجمعة، فكان العرب يدخلون أفواجا حسب رتبهم وطبقاتهم فأطعمهم الخليفة العرب طيلة لمدة خمسة عشر يوما، وقد صنع لهم الرب كلما أكلت طائفة سلمت على الخليفة ثم شربت الرب[2].

كما تميزت موائدهم بطبق يعرف بالصنهاجي الملوكي الذي يختلف عن الصنهاجي العادي والذي كان يحضر لأحد أعيان المجتمع الموحدي[3]، وصفته أن يؤخذ طاجين كبير عميق من اللبن وفلفل وزعفران وكمون وثوم ثم يضاف إليه من لحم الغنم الأحمر ويطبخ ثم يضاف إليه من الدجاج والحجل وفراخ وحمام واليمام والعصافير والبناذق وينثر عليه لوز وملح ويدخل الفرن ويترك حتى ينضج ثم يخرج[4].

لم تتميز أطعمة الخاصة بالتنوع فحسب بل تعدتها إلى أمور أخرى مثل مراعاة كيفية تقديمها في الأواني المناسبة وغيرها حتى أن بعض الفئات كانت تستعمل السباني وهي

---

[1]- مجهول، كتاب الطبيخ، ص23.

[2]- ابن صاحب صلاة، المصدر السابق، ص344-345.

[3]- محمد البركة وآخرون، النظام الغذائي في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، دراسات في سيكولوجيا الأحكام والعوائد، سلسلة الشرفات، ع77، سلا، ص24.

[4]- مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص24.

عبارة عن مناديل كبيرة تستعمل أثناء تناول الطعام، وكانت أثمن أنواع السباني تتخذ من القطن والكتان والرفيع، وهو دليل على مدى الرخاء المادي والرفاهية التي كانت تحياها الطبقة الخاصة من الملوك والأمراء وحاشيتهم، وعليه فإنَّ موائدهم كانت تشمل أكثر من صنف ولون من الطعام والشراب في نظام وترتيب[1].

2- مائدة العوام والفقراء:

كانت للتركيبة السكانية لبلاد المغرب الإسلامي المشكلة من القبائل والعروش نمط غذائي معيَّن، حسب نظام حياتهم الذي اتسم بالترحال وعدم الاستقرار، تراوح بين البداوة والتحضر بحكم الاحتكاك، وهو الذي حدَّد طبيعة غذاء أولئك السكان من السواد الأعظم، فقد اتخذ أهل السوس ودرعة مثلا غذاءهم من الشعير في الغالب، فكان عندهم طبق يعرف بحساء الشعير يقتاتون به، إضافة إلى التمر لا يأكلون غيره[2]، ومنها طبق العصائد وهو من أهم الأطباق التقليدية والهامة الملازمة للعامة والتي هي من القمح الذي يطبخ في الماء والسمن ويحلى بالعسل أو السكر وتختلف مكوناتها حسب الفصول، وكانت تؤكل غالبا في فصل الشتاء[3].

أما أهل أوداغشت فكثيرا ما كانوا يطبخون الكمأة مع لحوم الجمال ويزعمون أن هذا الطبق لا مثيل له على الأرض، ويعد من ألذ الأطعمة عندهم، وقد وافقهم الذوق الإدريسي بقوله:" يزعمون أن ما على الأرض مثله فصدقوا "[4].

---

[1]- المقري، م س، مج3، ص128.

[2]- حسن الوزان، م س، ج2، ص119.

[3]- محمد البركة، المرجع السابق، ص62.

[4]- الإدريسي، م س، مج1، ص62.

نجد من الأطعمة المشهورة والمصنوعة من الحبوب الكسكس والمسمى بالطعام في اللهجة الجزائرية الحديثة، وهي منتشرة بكثرة في كامل بلاد المغرب الإسلامي تقريبا، ويتم تحضيره عادة عن طريق الدقيق والماء، يفتل على شكل حبيبات صغيرة للحصول على طبق الكسكس، ورغم شهرته فقلما تذكره المصادر إلا في النادر، فقد ذكر المقري التلمساني عند حديثه عن الشيخ أبي القاسم بن محمد اليمني مدرس بدمشق فقال:" هذا الطعام مما يعتاده المغاربة ويشتهونه على كثرة استعماله "[1]، وكان سكان المغرب الأوسط يتناولون البسيسة التي يتم تحضيرها من القمح أو الشعير المطحون وخلطها بالسمن والعسل ما جعلها أكلة لذيذة لا يزال بعض السكان حتى الآن يتناولونها في الشتاء ومن قبل المرأة النفساء[2].

أسهم ساكنة إفريقية في تحضير بعض الأطعمة التي تعتمد أساسا على التمور لوفرتها وعلى دقيق القمح وطبخها لتحضير بعض الرغائف، وهي معروفة في تلك البقاع باسم القرصة المصنوعة بالتمر، ويتم تحضير تلك الأطعمة بطريقتين:

المرحلة الأولى: يؤخذ من السميد ويلت بالزيت العذب ويعجن مثل عجين الكعك، ويكثر فيه من الزيت، ويصنع منه قرص حسن مثل جامات السكر أو أقل منها، وتدخل في الفرن[3].

[1]- المقري، نفح الطيب، ج1، ص37.

[2]- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج1، ص27.

[3]- مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص106.

المرحلة الثانية: تخرج الأقراص من الفرن وتفرك في قصعة حتى تعود سميدا، ثم تأخذ من التمر الشراخ منقى من نواته وقطميره ويدق حتى يصير معجونا ويخلط بمثله من ذلك السميد.[1]

المرحلة الثالثة: يضاف للخليط قرفة وسنبل وقرنفل وزنجبيل وخولنجان قدر الكفاية، يعرك حتى يلتئم ويصير جسما واحدا، ويصنع منه قرصة في وسط قصعة يصب عليها الزيت العذب[2].

كانت للولائم فضل كبير في إصلاح ذات البين والمساهمة في إقامة الصّلح حيث شاع هذا الأمر في بلاد المغرب الإسلامي، وقد أشارت بعض النّوازل إلى ظاهرة تدخّل الشّيوخ في إعداد أطعمة الصّلح الّذي يحضر من الحنطة أو الشّعير، يضاف له سمن، يسمّى عصيدة الشّعير.

رابعا: قراءات طبّية في بعض الأغذية والأشربة:

للغذاء فضل كبير في صحة الإنسان لما يحمله من منافع طبية مرتبطة بطبيعة مكوناته ومنها:

1- الثريد: وأمّا الخبز المنقّع، أعني التنقيع بالماء الذي يسمى الثريد، فكثير النقع مضعف للمعدة مطلق للبطن ويحتمله إلا أصحاب الأمزاج الملتهبة الحارة في الأحوال والأزمات الحارة وإذا أخذ في انحطاط الحميات الحارة فإنه يطفئ تطفئة عجيبة ويطلق البطن فأما سائر الناس الأصحاء وخاصة المبرودون الذين يعتريهم النفخ والرياح فلا ينبغي أن يتعرّضوا له[3].

[1]- مؤلف مجهول، نفسه، ص206-207.
[2]- المصدر نفسه، ص207.
[3]- ابن النفيس، منافع الأغذية ودفع مضارها، ط1، المطبعة الخيرية، ص217.

2- **خبز البلوط:** وقد يتخذ من البلوط في بعض الأحوال خبز وهو عافل للطبيعة جدا، وليس يسلم من مرضه إذا أدمن عليه وخاصة من لم يعتده إلا بالإكثار من الدسم، ومن الحلوى والأشربة الحلوة.

3- **خبز الأرز:** ولأن الخبز المتخذ من الأرز يتلو المتخذ من الحنطة في كثرة اغتذاء الناس به فيبنغي أن نذكره فنقول: أن خبز الأرز في الجملة أعسر هضما وأبطأ خروجا من خبز الحنطة ولذلك قد وقف الناس منه بالتجربة على أن لا يأكلوه إلا مع المالح أو الدسم الكثير أو اللبن أو مع الثوم وذلك أنهم متى لم يأكلوه مع هذه الأشياء عظم ضرره وكان من القولنج السفلي والريحي وينفع منه أي من القولنج المذكور أكله مع المالح لأنه يسرع بإخراجه ولا يترك فضلاته يطول لبثها في المعي ويلذع المالح للمعي ومع الدسم واللبن.

كما يؤكل الأرز المطبوخ بالسماق للقصّر إلى عقل البطن ومع الرّائب في بعض الأحوال للتطفئة وتسكين العطش وذلك بعد جودة طبخ الأرز نفسه، فأما خبزه فإن أكل ببعض هذه الأشياء عظم ضرره على المعدة ومن أجل ذلك يدفع مضرته بما يسرع إخراجه... والعسل وعقيد العنب والتمر في اغتذائه ويسرع خروجه... والأرز يسخّن قليلا ويجفّف كثيرا إلا أن يقع مع الأشياء المرطّبة كما ذكرنا فينفع من استطلاق البطن ويغدو غداء كثيرا ويخصّب الجسد إذا طبخ باللبن وأكل مع السكر فيزيد حينئذ في المني ونظارة اللون[1]. ومن الأغذية الشديدة النفع للجسد والمانعة للأمراض:

4- **بياض البيض وصفرته:** بياض البيض يولّد دما لزجا وأمّا صفرته فتولّد دما كثيرا معتدلا وهو كثير الإغذاء[2].

---

[1]- ابن النفيس، المصدر السابق، ص7.

[2]- المصدر نفسه، ص2.34

5- البيض المسلوق بالخلّ: وإن سلق البيض بالخل كان طعاما نافعا لمن به قروح الأمعاء والذرب العجّة ويجب على من يعاني من القولنج تجنّب الإكثار من البيض المسلوق خاصة مع الشواء واللبن أو الجبن[1].

6- الكرفس: يسخّن إسخانا شديدا صالحا يدرّ البول ويغزّر اللبن وإن أكثرت المرضعة منه أورثها صرعا كما يهيّج الباه الشهوة الجنسية وصالح للمعدة، مسكّن للغثى[2].

أمّا من الأشربة

1- الماء المغليّ أمّا الذي يغلّى ثمّ يبرّد ويشرب فأقلّ نفخا وأوفق لمن يعتريه النفخ في جوفه وهو أقل موافقة للمحرورين الملتهبين[3].

2- الماء القطر: وهو سريع النزول عن المعدة والنفوذ إلى الأعضاء والخروج بالعرق.

والبول الا أنّه سريع التبخّر الى الرأس ولذلك يضرّ في هذه الحالة بالذين تمتلىء رؤوسهم وتظلم أعينهم ويسرع اليهم الزّكام والنزلة.

أضحى الطهي و فن الأطباق علامة بارزة في مسار الحياة الإجتماعية عند سكان المغرب الإسلامي، ولم يعد الغذاء أو التغذي أسلوباً ميكانيكيا الياً، في حين تحول إلى سلوك حضاري يواكب مسار حياة المواطن اليومية، إلى أن الإعتقاد السائد أثناء فترة الرخاء لم يخف ما مدى تحفظ الدولة و بعض فئات المجتمع من أوقات الأزمة خاصة عند فئة الصوفية ، ففن الطهي و نوع الموائد ارتقى بشأن الأمة إلى درجة التمدن و التحضر ينافس أهل الأندلس.

---

[3]- المصدر نفسه، ص34.

[1]- المصدر نفسه، ص34.

[2]- المصدر نفسه ص13.

الفصل الثالث

النّظام الغذائي زمن الشـدّة

أوّلا: النّظام الغذائي زمن المجاعة والأوبئة

ثانيا: موقف الفقهاء والصوفية من أطعمة المجاعة

ثالثا: جهود الدّولة في تأمين الغذاء

تمهيد:

لم يسلم المغرب الإسلامي في مرات عديدة من هزات انعدام الأمن الغذائي، وهي ظاهرة اجتماعية واقتصادية تباينت فيها إمكانيات ضمان القوت وتعامل المجتمع مع مشكلة التغيرات المناخية والبيئية التي أفرزت نمطا غذائيا بديلا لم يرق إلى درجة تلبية أذواق الساكنة التي استحسنت توفره لأنه يبقي على حياة الفرد رغم ما يترتب عن ذلك من أضرار جسدية ونفسية تفضي إلى الموت.

في سياق سوء المعيشة أدرك المجتمع أن عاملي المجاعة والأوبئة وأنواع الحصار ساهمت في فرض وصفة غذائية تساير مرحلة زمن الشدة والعسر، وقد أفرزت هذه الظروف سلوكا وإيقاعا يستجيب لمستجدات نظام غذائي خارج عن العادة والمألوف من أجل خلق توازن بيولوجي ونفسي، وقد ترتب عن كل هذا خطابا جديدا في ثقافة الطعام التي تعايشت مع ما هو حلال ومع ما هو حرام، وهي عبارة عن إشكاليات فقهية وابتكارات جديدة سعت إلى تقديم بعض المبررات لتجاوز هذه المحنة.

أولا:- النظام الغذائي زمن المجاعة والأوبئة:

إنَّ الإشكالية التي يمكن أن تثار حول هذا الموضوع هي: ما مدى تأثير المجاعات والأوبئة على النمط الغذائي لدى سكان المغرب الإسلامي في الفترة المدروسة؟

أ- الطعام زمن المجاعة: لقد ساهمت الحروب والنزاعات السياسية وشدة أو طول مدة الحصار إلى حدوث مجاعات زادت من تفاقم وضعية الأمن الغذائي، وهو ما طُرح بحدة

في الإيستوغرافيا الوسيطة التي سجلت انعكاس الاضطرابات السياسية ببلاد المغرب في قلة المؤن، وارتفاع الأسعار[1]، كما أثرت على البنية السكانية.

كان للكوارث الطبيعية دور كبير وتأثير بالغ على صيرورة نمط غذاء السكان وذلك في ظل حدوث مجاعة ضربت أسقاع الغرب الإسلامي بما فيه المغرب الإسلامي، وجعلتهم في مواجهة الطبيعة التي أحكمت قبضتها على السكان، همهم إيجاد ما يسد به رمقهم[2]، وفي ظل غياب سعة العيش الكريم وشدة ضائقة الجوع، وبناء على ما هو متوفر من متون نصية تم رصد وتصنيف سلوكات عدة في استحداث أطعمة بديلة في زمن المجاعة.

1- ظاهرة استهلاك الأغذية قبل نضجها:

إنَّ استهلاك الزرع والمحصول قبل نضجه، ظاهرة سلكها سكان المغرب الإسلامي خوفا من تلفها ويبسها وتعفنها نتيجة ظرف مناخي مفاجئ يضر الزرع والثمار التي قاربت النضج، وغالبا ما يتمثل ذلك في الجفاف، حينها يصطدم السكان بشبح المجاعة فيسارعون إلى قطفها وجنيها وتخزينها واستهلاكها عند الحاجة لسد الرمق وهو ما شهدته سجلماسة التي هددها القحط والجفاف، في حين كانت تجود السماء عليها ببعض المطر فتنبت أرضها ثمارا، فيسارع الناس إلى قطفها قبل نضجها ويأكلون الزرع إذا أخرج شطأه[3]، وفي هذه الظروف العصيبة لجأ المزارعون إلى عملية الاستلاف على أمل إرجاعه في السنة الموالية مما يفسر مبادراتهم بحصاد الزرع قبل أوانه[4]،

---

[1]- ابن عذاري: البيان المغرب – قسم الموحدين – تحقيق محمد إبراهيم الكتّاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985م، ص16.

[2]- عبد الهادي البياض: م س، ص185.

[3]- الحميري: م س، ص306.

[4]- الزركشي: تاريخ الدولتين، ص45/ السعداوي أحمد: الآفات والكوارث الطبيعية بالمغرب الوسيط، دار سيراس، تونس، 1982م، ص281.

ومن مظاهر الأزمات الغذائية ما تعرضت له إفريقية سنة 873هـ/1468م من شح في المؤن والمدخرات الغذائية، فأُجبر الناس على أكل القمح فريكا وكانت سنابله فارغة من الحبوب، فإذا حصد جمعت الأغمار ولم يكن بها شيء، فشكا الناس قلة الطعام وغلائه إلى السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان (839-893هـ/1435-1488م) فأمر بأن يخرج من بيت المال كل يوم ما يصنع منه ألف خبزة وتفرق على الفقراء والمساكين في تونس حتى كثر الطعام ورخص ثمنه[1].

لقد أفرزت المجاعات التي عصفت ببلاد المغرب زمن الدراسة واقعا اقتصاديا مريرا صعب على إنسان هذا المجتمع معايشته واتخذ من ظاهرة الدَّين والسلف وقتئذ كحل راهن لهذه الأزمة، صحيح أنَّ الدين والسلف ظاهرة طبعت الحياة اليومية للإنسان نتيجة الفقر والحاجة وضعف دخله الفردي، غير أنَّ سنين الجدب جعلت تعامل الناس بالدين والسلف ضرورة لا مناص منها كحل جذري لأزمة الجوع[2]، وقد أفتت كتب النوازل الفقهية في هذه الحالات واتخذت من الظروف مسلكا يبيح ما حرم بغرض الإبقاء على حياة الفرد وتجنب الفناء، ذلك ما سئل عنه أبو القاسم البرزلي:" هل يباح في مثل هذه البضاعات الفادحة الواقعة عندنا بالمغرب في هذه السنة سلف الزرع المبلول أو الفاسد ليؤخذ صحيحا لما في ذلك إحياء النفوس؟ وقد علمتم ما مات في هذه السنة من الخلوق بالجوع، وتتقلدون القول بذلك وترجحون على المشهور لقلة مواساة الناس وإهمالهم أحوال الضعفاء والمساكين فأجاب... سلف اليابس والمبلول جائز" وقد أخذ من قوله في المدونة في تسليف الزرع ليحصده ويدرسه، وكان شيخنا ابن عرفة يفتي به ويعتل بأنه لو باعه

[1]- الزركشي: المصدر السابق، ص10/ ابن أبي دينار: المؤنس في اخبار افريقية وتونس،ط1286،1ه، ص136/ برنشفيك: م س، ج2، ص110.

[2]- نون شيشل: ظاهرة الدين والسلف في المجتمع المغربي في العصر الوسيط، أساليب التعامل والإشكاليات المطروحة ضمن حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2006م، صص35-36.

وأسلم ثمنه لكان أكثر من سلفه إنما هو محض منفعة للمتسلف، وبهذا أقول إذا بلغ المال إلى ما ذكرت وإن كنت استحسن أنه يستلف وينوي الدافع أنه أتاه قبله فيكون إذا أعطاه جديدا خمس قضاء ويخرج من الخلاف، وإن أبى إلا الشرط فهده ضرورة تبيح المحظورة[1]، فالظروف والحاجة التي تدفع بالنظام الغذائي المعتاد لعموم الناس لحافة الخطر تلجئ السكان لإيجاد سبل تساعدهم على حماية نظمهم الغذائية، وتحصيل طعامهم زمن المجاعة والأوبئة، ومن ذلك اضطرارهم لبيع ممتلكاتهم أو التخلي عنها أو رهنها كضمان لذلك، وقد أورد الونشريسي في بعض نوازله ما يلي:" أنَّ بدوية رهنت بيتا لها في الشدة في ساحة القصر وفيها مطمورتان في سبعة دنانير وحازه المرتهن وأخو المرأة حاضر في المنزل ولم ينكر ولم يغير عليها " وفي نازلة أخرى أوردها الونشريسي دائما مفادها:" عن امرأة ترتب في ذمتها لرجل ثمن قمح ورهنت في ذلك دارها فلما تم أجل الرهن جاء إلى المرأة فوجدها مريضة هي وزوجها في زمن مسغبة وطلب منها دينه وهددها إن لم تخلصه بأنه تخلصه في دار... نخافت على نفسها من قوله بتهديده إياها فوافقته على البيع ودفع لها ثلاثة دنانير ذهبا فقال هذا الذي أوجب لك إن لم تبيعي لهذا الرجل، نفعل بك كذا، فباعت وقبضت ما ذكر والدار حينئذ تساوي ستين وأرادت الآن القيام على المشتري... فهل لها القيام أو لا قيام لها "[2].

ومن قضايا الرهن التي ارتبطت بالأزمات الغذائية وتم تداولها في سياقات النوازل ما مدى صلاح ومقاومة الحبوب لظاهرة التخزين التي تعطيها كتب النوازل القدر الكافي في مشتقات هذا النبات (الحبوب) وما مدى مقاومته واستهلاكه لسد مشكل الجوع وأنَ معظم الأطعمة والأطباق المحضرة منها في مقدمتها رغيف الخبز وأطعمة أخرى من جنس

[1]- المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، م2، رقم 1336، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، ورقة 41ب.

[2]- الونشريسي: المعيار المعرب، ج5، ص102.

الحبوب والدقيق الذي يصنع من البسيبسة والأحساء مثل الجشيشة والحريرة والعصائد كالبازين، وما يفتل منه كالبكوكس والكسكسي[1].

لقد بلغ الأمر أشده في عملية تحصيل الطعام، فالكوارث الطبيعية وبالأخص الجفاف ثم المجاعات وما يتبع ذلك من والأوبئة التي أضرت باقتصاديات المنطقة وقلصت من النشاط التجاري والمبادلات بين الناس وارتفاع الأسعار بالنسبة للمواد الأساسية وقلة الغذاء، زادت الأوضاع سوءا الأمر الذي دفع بكثير من الناس إلى لتداين فيما بينهم لدفع الجوع عن عوائلهم غير أن ذلك لم يكن ممكنا دائما بسبب عموم الظهرة، وهذا أمر ليس بجديد على أهل المنطقة في قضية البيوع بالسلف لأجل مسمى، غير أن الظاهرة تزداد وتيرتها إبان المجاعات كحل أخير لتصريف أمور حياتهم[2].

2- العودة إلى الأغذية النباتية:

إنَّ ضائقة ندرة القوت زمن المجاعة والقحط ألزم سكان المغرب الإسلامي وباقي شعوب البحر المتوسط مبدأ الضرورات تبيح المحظورات فغابت الحبوب بما فيها القمح والشعير وأضحى الساكنة في غير مأمن فاستبيحت نباتات، كان الإنسان في غنى عنها وإن كانت صالحة كطعام مثل النبق كنموذج من النباتات التي تم استغلالها في صناعة الخبز في سنوات المجاعة، وقد ورد نص لابن أبي الخير حول العلاقة الوثيقة بين حدوث المسغبة واستهلاك هذه المادة النباتية كبديل عن حبوب الخبز ووصفه أنه كثير بثغر الأندلس في مدينة إقليش ومدينة سالم وغيرها تؤكل هناك ويتخذ منها خبز في الجدب[3].

---

[1]- سهام الدبابي الميساوي: المرجع السابق، ص21، 39، 53، 65.

[2]- إبراهيم القادري بوتشيش: ظاهرة الدين والسلف في العصر الوسيط، ط1، دار الطليعة، بيروت،2006م، ص36،65.

[3]- أبو الخير الإشبيلي: م س، ص605.

كما اعتبرت بعض جذور النباتات وأوراق بعض الشجر المعروفة عند البعض نظاما غذائيا يمكن استغلالها في طبخ الأطعمة البسيطة لتكون أغذية بديلة يعتمد عليها زمن القحط وقلة الطعام فقد كان أبو المهدي بن سلامة (ت560هـ) " إذ أصابتهم سنة قحط شديدة الأمر الذي دفعه ومن معه من أصحابه لاستخراج أصول وجذور النبات التي اعتادوا على أكلها في سنوات المجاعة "[1]، وغالبا ما اتخذ من بلوط الغابات بديلا لصناعة وتوفير رغيف الخبز بدل الحبوب حيث كان يتم جمعه ونشره حتى يجف ثم يطحن ويخلط بحشائش أخرى ويصنع من دقيقه الرغيف[2].

في ظل هذه الظروف الصعبة هام الإنسان على وجهه كي يكتشف بديلا يخلصه من شبح الجوع المميت، فقد شارك الحيوان غذاءه واتخذ من الشيلم مصدرا للغذاء، ففي الأوقات العادية كان علفا للماشية، إذ كان يطحن ويعتصد ويعايش منه في المحل[3].

لقد بلغ من أمر ظاهرة اختفاء المؤن والغذاء واشتداد العوز بسكان دول المغرب الإسلامي ومنها الدولة المرينية أن لجأ الناس إلى تحضير غذاء بديل مستمد من البرية وتمثل في نبات " إيرني " أو إيرنا كما ورد عند ابن عباد[4]، وتكمن طريقة الاستفادة من هذا النبات في سلق جذوره لمرات متعددة للتخلص من السموم التي يحملها ثم يعرض للشمس ليجفف ويطحن للحصول على دقيق يصنع منه خبز يصعب هضمه ناهيك عن المضاعفات السلبية التي قد يتسبب فيها غذا لم تيم التخلص من كل سمومه.

---

[1]- أبو المهدي بن سلامة: من أهل أسكطاي إحدى قرى دكالة، اعتبره ابن الزيات التادلي أحد الأولياء وأدرج اسمه في كتابه، ومن أقوال الشيخ:" لا تكتموا عن إخوانكم ما تشاهدونه من كرامات وحدثوا بها فتحببوا لهم طاعة الله ". ابن الزيات: التشوف غلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، الدار البيضاء، ط2، 1997م، ص261-263.

[2]- ابن الزيات: م س، ص215.

[3]- الشيلم: نبات يشبه نبات الزرع ... له قصبة كقصبة الزرع. أبو الخير الإشبيلي: المصدر السابق، ص805-806.

[4]- ابن عباد الرندي، الرسائل الكبرى، مطبعة المعلم الأزرق (الحجرية)، فاس1330ه ، ص254.

أجبرت غريزة حب البقاء السكان على تناول غذاء غير طبيعي سيء العواقب على الصحة، فاتخذوا من فيتور الزيتون والنارنج وعصائد الخروب[1]، كما عولوا في مواجهة المجاعة على أنواع أخرى من النباتات البرية تبقي على وجودهم مثل الجمار وهو قلب النخلة وشعر الدوم[2]، والبلوط والخبيز[3]، وعناب السدر، ومقارنة بفظاعة الغذاء بين بني مرين وتلمسان، فهذه الأخيرة كانت الأسوء، وقد قال بن النظيف الحموي" وفيها كان في الغرب من الغلال مالا يعبر عنه وانهم أكلوا الميتة جميعها"[4]، وكان نبات الخروب هو الآخر من نباتات البرية وقد تم استهلاكه في أحواز تلمسان وسهولها، عرفت هذه النبتة في جبل بني يزناسن وجبل مطغرة وجبل ولهاصة وحدد نمط نظام غذائهم زمن الشدة والرخاء وذلك في غياب وانعدام القمح والشعير[5]، ودائما في سد الذرائع ونقص المؤن والطعام أجاز العوز والجوع تناول نباتات كثيرة منها بقلة دعاع[6] ونبات الاستب[7].

[1]- محمد معروف، نشاط مصطفى: التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني، مج6، ع17، بحوث ومقالات، ص10.

[2]- نفسه، ص10.

[3]- نفسه، ص10.

[4]- محمد بن علي الحموي ، التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تح أبو العيد دودو، ب ط ، مطبعة الحجاز ، دمشق ،1401ه، ص 101 .

[5]- حسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حاجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1401ه، ج2، ص431-432.

[6]- بقلة دعاع: نبات ينمو على وجه الأرض يتميز ببذوره ذات اللون الأسود، تنمو في وسطه براعم صغيرة، ينمو بين التخوم والزروع. أبو الخير الإشبيلي: المصدر السابق، م1، ص232.

[7]- نبات الاستب: أنواعه كثيرة، أشهرها الذي يتميز بأوراق تشبه الزيتون، ظاهرها لونه مائل للسواد، يعلو قدر القامة، يزهر أزهارا تشبه الشقائق يتميز بدوران لونها بين الخضرة والأصهب، حجمها أصفر من الخردل تسمى الجلجل، ينبت في الأخاديد. ابن الخير: المصدر نفسه، ص81-82، 231/ عبد الهادي البياض: المرجع السابق، ص183.

في سنين المجاعة، كان الخبز والعصيدة المصنوع منها طعام الكثيرين وكذا نبات التابودا[1] التي صنعت منه أرغفة سيئة المذاق، فهذا الشيخ أبو علي الرجراجي (ت612هـ) كان يسعى لسد جوعه فسارع إلى تجفيف أوراق الأشجار ليسحقها ثم ليأكلها[2]، وقد صاحب تناول النباتات البرية وتحت إكراه الجوع مخاطر كثيرة من سموم مندسة في تلك النباتات مثل نبات عقار[3] الذي أنهى حياة الكثير من الناس.

استهلك أهل المغرب الإسلامي عشب الطهف وهو عشب ضعيف رقيق الورق له ثمرة حمراء، صنعوا منه الخبز والعصيدة[4]، وقد اضطر الفقراء إلى مزج بعض المواد للحصول على خبز رديء لأنه لا ينبت أي شيء حسن في جباله ما عدا القليل من الدخن[5] الذي يخلطونه مع بذر العنب ويستخرجون منه دقيقا ويصنعون منه خبزا أسودا كريها[6].

3- العودة الى الاقتصاد البحري:

تعدّ بلاد المغرب الاسلامي بلادا ساحلية بامتياز حيث تمتد السواحل من إفريقية شرقا إلى المحيط الاطلسي غربا، وبحدوده الشمالية ذات الطابع البحري، وقد خاضت الجغرافيون المصادر الجغرافية والتاريخية في هذا الشأن، وقد سبق ذكره في الفصل التمهيدي، وصار ساكنة المغرب يملكون مهارة إدراك تجميع السمك وسلامة الصيد، إضافة إلى التجارة.

---

[1]- التابودا : نبات ينتج ثمارا تشبه الدرنات قشرتها سوداء اللون، تجفف وتسحق ليتم الحصول على حنطتها. إبراهيم عبد الكريم: المرجع السابق، ص81.

[2]- ابن الزيات: مصدر السابق، ص418-419.

[3]- نبات عقار: يبلغ طوله القامة في زمن الربيع ورقه يشبه ورق الحسك كثيف الأغصان ولونه أخضر مائل غلى الصفرة له ثمار مدحرجة الشكل، منابته في قمم الجبال. أبو الخير الإشبيلي: المصدر السابق، 443-444.

[4]- أبو الخير الإشبيلي: نفسه، ج1، ص379.

[5]- ابن منظور: المصدر السابق، ج5، ص312.

[6]- الحسن الوزان : المصدر السابق، ج1، ص257.

تطرق معظم الجغرافيين إلى أهمية بلاد المغرب الساحلية حيث يذكر أبو بكر الزهري المناطق التي ينتقل اليها هذا النوع من الاسماك ويبين طريقة اصطياده والوسائل المستعملة لتحقيق ذلك فيقول:" يصطاد بالموضع المسمى بطرف الفخ وهو طرف الجبل، جبل طارق "[1] وفي المغرب اشتهرت بنزرت[2] بحيرتها الغنية بمختلف أنواع الحوت على طول السنة والتي قدرت باثنى عشر نوعا.

ويذكر الادريسي هذه الأنواع فيقول: " وهذه الاثنى عشر نوعا من الحوت والتي ذكرناها هي البوري والقاجوج والمحل والطلنط والاشبيليات والشلية والقاروص واللاج والجوجة والكحلاء والقلاّ"[3]، وكان يصطاد بكثرة في بونة[4] بالمغرب الأوسط وهي مدينة ساحلية شرق المغرب الاسلامي وبوابة إفريقيا وقد كثر اصطياد السمك في المغرب خلال القرن السادس الهجري وكان يحمل الى المناطق الداخلية مجففا ومحفوظا في العسل ليبقى طريا[5] وقد يتوهم القارئ أن ذكر هذه الثروة ينحصر في مدة الدراسة، وأنها حرفة أجبر الناس على امتهانها لكن الكوارث الطبيعية والمناخية والجفاف أجهدت السكان وألزمتهم السعي إلى إيجاد غذاء جديد يعوضهم ما هم بحاجة إليه من قوت، ولعل هذا يؤكّد أهمية الأسماك والحيتان وغيرها في النظم الغذائية المعتمدة عند السكان، فسواحل مدينة تونس وهي من المناطق الساحلية المعروفة بتنوع الثروة السمكية يتواجد بها صيادون كثر يعملون بأرجائها، وهؤلاء كانوا مكلفين بتصبير وتخزين الحيتان والاسماك ولا يتغير طعمها ويبقى

---

[1]- جبل طارق: يقع بالجزيرة الخضراء وقد بنى فيه الموحدون مدينة سميت بمدينة الجبل.

[2]- بنزرت، مدينة صغيرة عامرة ولها اسواق وبها بحيرة منسوبة اليها تبعد عن طبرقة بسبعين ميلا ينظر: الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق مج1، ص289.

[3]- المصدر نفسه صص288-289.

[4]- بونة، تبعد عن مدينة مرسى الخزر بمرحلة وهي مدينة لا بالكبيرة ولا بالصغيرة، تقع على ساحل البحر. ينظر: الإدريسي، المصدر نفسه ص295.

[5]- عز الدين موسى، م س، ص203.

طازجا غير معفن لأمد بعيد ذلك ما ساعد الصيادين على نقله إلى المناطق الداخلية من بلاد المغرب الاسلامي، وذلك وفر نمطا غذائيا جديدا للسكان، يقول البكري:"وبها من أجناس الحوت الذي لا يكون مثله في غيرها ما لا يحصى كثرة، أجناس تجري في البحر من شهور العجم [1]".

تعد الوديان من المناطق التي وفرت أغذية مختلفة من الأسماك مثل وادي ملوية الذي يتوفر على الحيتان بكثرة بالخصوص عند مصبه، وأيضا وادي زا به به أسماك مختلفة، ونهر تافنة به أسماك ذات أحجام صغيرة رغم طول مجراها وتعدد روافده، ووداي شلف عند مصبه تتجمع أعداد كبيرة من الأسماك، ويعمل الصيادون على صيدها[2]، وكانت منطقة العرائش ومنطقة القصر الكبير تتميز بعيونها وأوديتها ومستنقعاتها حيث تعد البيئة الملائمة لتعدد أجناس وأصناف الأسماك خاصة أسماك التون حيث تصطاد بتلك الجهة[3].

حدثت في الكثير من المرات ظاهرة الغش في المزج بين الحوت البائت بالطازج، فذلك يعني سوء التغذية وقلة الكمية، دفع بصيادي السمك إلى ذلك ، لذلك شدد المحتسب أن لا يخلط البائت مع الطازج بل كل يوضع على حدى، وأن يوضع على البائت عندهم الملح كي يحفظه من التلف، وهذا يدخل في سياق التخزين عند الحاجة[4].

أسهمت كتب المناقب وما تعالجه من سلوكيات أهل التصوف والشيوخ إلى حد كبير في هذا التخريج المتعلق بمخلفات الجوع والقحط والجفاف ففي مجاعة سنة 535هـ/1140م جمع أحد الأولياء خلقا كبيرا من المحتاجين والجوعى وحرص على توفير قوتهم وأنفق ما

[1]- البكري، المصدر السابق، ص699-698.

[2]- حسن الوزان، المصدر السابق، صص250-252.

[3]- المصدر نفسه، ج1، ص302-303.

[4]- السقطي، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ،تحيق ج، س، كولان وليفي بروفنصال، باريس، 1931م، ص35.

توفر لديه من صيد الحوت إلى أن أخصب الناس[1]، وقد سادت وعمت ظاهرة التكافل الاجتماعي إلى درجة كبيرة، وأصبحت ظاهرة الابقاء على الحياة مكسبا وخصلة متداولة بين سكان المغرب الإسلامي تحت وصاية الأولياء والمشايخ، ففي هذا الشأن لم يبخل هذا الوالي على الجوعى وفارغي البطون، وعمل على توفير الغذاء لهم، فلجأ إلى ساحل البحر من أجل اصطياد السلاحف البحرية وحيوان اللمط والكركي للاقتيات من لحومها[2].

والراجح أنّ اللجوء إلى المغذيات البحرية من سمك وسلاحف يعدّ المأمن الدائم للإنسان في كسب قوته باعتبار البحر مجالا طبيعيا محصّنا لا يتأثر بالكوارث الطبيعية من جفاف أو تقلّبات مناخية أو تصحّر، كما تصنّف ثرواته في أصناف الغذاء الحلال الذي لا تشوبه صفة الحرام، بل أثنى الله سبحانه وتعالى على ما يحتويه من طعام وحلية، وقد كان للفقهاء والعلماء رأي في ذلك، وقد التزمت كلّ النوازل بصلاح وقبول ما تجود به البحار والأنهار من غذاء.

يعد المتصوّفة جزءا فاعلا في تخفيف أزمة الغذاء، فهم يرون أنّ التقشّف والحرمان هو أصل رسالة الإنسان في هذه الحياة، فهم يؤثّرون غيرهم على أنفسهم، وفي سياق الحديث عن سلوك صيد الأسماك نرى أنّ هذه الفئة من الناس حصلت على نظام غذائي مستمد من الحوت وأجباح العسل ومنهم الشّيخ أبو موسى عيسى سليمان، الذي كان يحصل على قوته فيقصد الوادي ويدخل فيه ويخرج منه أنواع الأسماك التي يصطادها بيده، فيأكل من

[1]- ابن الزيات، م س، ص183.

[2]- العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1981م، ص129/ ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1981م، ط2، ص99.

حلال يده[1]، فطريقة الطّهي وإعداد السمك عند الشيخ بن سلمان وكثير من الصوفية تكاد تنفي استخدام الزّيت والمريء واحتمال تصنيف ذلك في مقام الترف والبذح وربما يكون الشيخ قد طبخ سمكة بالدفن في رماد حار حتى يذهب شوكه وزفورته[2].

من خلال هذا الطرح والتقديم في إعداد الطعام لدى المتصوّفة نكون قد أدركنا مدى العلاقة بين استغلال خيرات البحر والوادي أثناء الشدة، ولجوء عامة الناس وبخاصة الجياع والفقراء إلى ثروات البحر، وأيضا مدى تجاوب فئة المشايخ والأولياء لهذا النّظام الغذائي.

4- العودة الى النمط البدائي في تحصيل الغذاء (الالتقاط): لم يعد الإنسان في مأمن حين تشتد المجاعة والجوع، فتتغير ذهنية الإنسان وسعيه إلى حب البقاء في الحياة وإبائه التهديد والزوال حينها التجأ الى أحضان العهد الحجري ومارس حياة بدائية قائمة على الجمع والقطف والالتقاط والقنص، وحينها وجد نفسه أمام الاقتصاد الطبيعي[3]، فما عاشته تلمسان من حصار كلفها نظاما غذائيا نادرا وصل بالحكام وعلى رأسهم السلطة الزيانية إلى وضع صعب، وقد أدرجت المصادر ما عاشه محمد بن عثمان السلطان الزياني داخل مطبخه فقد أصبحت النباتات وأوراق الشجر طعاما فاخرا يطبخ في مطابخ الدولة الرسمية فذلك يدل على شدة المعاناة نتيجة الاجتياح المريني والحصار الطويل[4] الذي تعرضت له، وكان من

---

[1]- الشيخ أبو موسى عيسى بن سلمان لقب بالرفروفي من أهل تادلا ودفينها وأحد من علماء المغرب الذين أخذوا عن الشيخ الطرطوشي في المشرق، ينظر: ابن الزيات، المصدر السابق، ص108-109.

[2]- اسحاق بن سليمان الاسرائيلي، كتاب الأغذية والأدوية، تحقيق محمد الصباح، ج4، ط1، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1412هـ، ص593.

[3]- إبراهيم القادري بوتشيش وعبد الهادي البياض، ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات، المغرب والأندلس، خلال القرن 6-8هـ، مجلة عصور الجديدة، العدد 7-8، 2012-2013م، ص36.

[4]- الحصار الطويل: تعود أسبابه للصراع المرير بين الزيانيين والمرينيين واشتد مع نهاية القرن السابع الهجري حيث أقدم السلطان المريني أبو يعقوب يوسف المريني بغزو منطقة المغرب الأوسط وحاضرته تلمسان وأعلن حصاره يوم 2 شعبان

أثاره أن اشتد البلاء والجوع على السكان بما فيهم الخاصة وأعيان الدولة وعلى رأسهم السلطان الزياني وهو الأمر الذي أدى إلى قبول ترخيص تناول أي شيء يساعدهم على البقاء والحياة وقد ثبت أن إعداد طعام السلطان المحضر في مطبخه كان من أوراق شجر الليمون مخلوطا مع مجموعة من أوراق أشجار أخرى والغرض من مضاعفة استخدام الأوراق زيادة حجم الطعام المطبوخ الذي كان يعد من لحم حصان وحبوب شعير[1].

5- التحوّل إلى الاغذية المقززة:

في ظل انتشار الجدب والقحط والمجاعة وانعدام المؤن وبعد أن استنفذ الإنسان كل حلول إحضار الطعام وتوفيره واستخدام كل الامكانيات المتاحة وفق السّبل الشّرعية السليمة، عجزت الساكنة على توفير قوتها بما فيها السلطات والحكومات فتجرع المواطن في المغرب الاسلامي مرارة نظام غذائي شاذ ومقزز ومدمر للإنسان الذي أكرمه الله بنعمة الطعام من البرّ وهذا لقوله تعالى:((يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ"))[2] وقد كان لهذا النمط من الغذاء مظاهر كثيرة وأسباب مختلفة، فالإنسان إذا وقع تحت طائلة الجوع القاهر تتحكم فيه سلوكيات مغايرة تدفعه لاختيار الأغذية الشاذة والمقززة كما يفعل الحيوان[3].

فزمن الحصار كان له مفعوله في فرض هذا الغذاء غير المعهود والمتنافي مع طبيعة البشر ففي المغرب الأوسط ونتيجة الطوق الذي ضربه وأحكمه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المريني (698ه-706هـ/1299م/1306م) على مدينة تلمسان والذي دام سبع سنوات، أجبر

698هـ وانتهي في ذي القعدة 706هـ/1306م، جراء ذلك فقدت الدولة الزيانية معظم أملاكها في منطقة المغرب الأوسط ينظر: عبد الرحمن بن خلدون المصدر، السابق، ج7، ص128.

1- حسن الوزان، المصدر السابق، ص18.

2- سورة البقرة، الآية 168.

3- جوزيه دي كاسترو، جغرافية الجوع، ترجمة زكي الرشيدي، تحقيق محمد موسى، دار الهلال، د. ت، ص59.

أهلها على الاقتيات بجميع الحيوانات من فئران وعقارب وحيات وضفادع وغير ذلك[1]، وهذا ما جعل أسعار المأكولات ترتفع إذ بيع لحم الحمير والقطط والكلاب بمثقال ونصف أما الحية والفأر بعشر دراهم[2]، وفي غفلة من أمرها واجهت دولة بني مرين سنة 681هـ/1282م أزمة غذاء خانقة نتيجة اجتياح أسراب الجراد لمزروعاتهم فأتت على الأخضر واليابس في وقت أقدمت فيه دولتهم على ما به من مخزون القمح والحبوب لدولة البرتغال[3].

عمت ظاهرة التغذي على الجراد في المغرب الاسلامي خاصّة في المغرب الأقصى في إقليم السّوس والجبال وأصبحت ظاهرة الجفاف عادة طبيعية متكرّرة تضرب المغرب باستمرار تسببت في مجاعة قاتلة أباحت أكل الجراد الذي غزا الموائد المغربية[4] ويذكر الادريسي أنَّ أهل مدينة مراكش كانوا يأكلون الجراد، ويباع عندهم منه كل يوم الثلاثون حملا فما دونها وفوقها بقبالة عليه[5].

كما غزا موائد أهل الصحراء جنوب المغرب بسبب عامل الجفاف، ذلك ما لاحظه الرحالة ابن بطوطة حين زار تلك البقاع من الصحراء سنة 754ه/1353م حيث وجد أهلها يأكلون التمر والجراد... ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الفجر[6].

لم يعد الجفاف ظاهرة طبيعية فقط بل أصبح هاجسا اجتماعيا تسبب في انقراض أمم وشعوب، وتسبب في أزمة الجوع بدرجة عالية من الخطورة فسكان بعض المدن المغربية

1- ابن الأحمر، روضة النسرين في أخبار بني مرين، تحقيق وطبع عبد الوهاب بن منصور، 1962م، الطبعة الملكية، ص61.

2- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص128.

3-Pierce chonul expansion européenne du xill au xv siècle, pu f 2 e1983 p3

4- ابن بطوطة، تحفة النظار، ج2، تحقيق علي الكتاني المنتصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982م، ط2، ص802.

5- الادريسي، المصدر السابق، ج1، ص235.

6- ابن بطوطة، ص809.

أكلوا الحيوانات الضارة بل بلغ بهم الجوع إلى حد التغذي على الجيف البالية ونهش عظامها المنخورة وهذا بشهادة ابن زهر عندما كان أسيرا لدى الأمير المرابطي علي بن يوسف وقد تزامنت أزمة أسره مع مسغبة عمت مدينة مراكش وما جاء في هذه الشهادة:" وشاهدت بمراكش قوما قد بلغ جهد الجوع بهم، فكانوا يكسرون عظام الجيف البالية من حفير مراكش ويطلبون مخاخها وكان ظهر فيهم الموت الذريع"[1]، وقد شهدت بعض جهات الصحراء في المغرب الاسلامي سلوكا غذائيا مغايرا لقيم أداب الأكل وذوقه بسبب عسر تيسر الطعام الذي يوفر استقرار وأمان السكان من الموت، وقد كان للأستاذ عبد الهادي البياض رأيا فيما هو حاصل ومرده لظروف الطبيعية وقلة الغذاء والرغبة في البقاء مما حتم على السكان انتهاج وتبني أكل لحوم الذئاب والكلاب حتى ساد لديهم اعتقاد أن ذلك النظام الغذائي صحي يحصنهم من عدة أمراض معدية قاتلة[2] واستدل بمدينة سجلماسة ومنطقة الجريد وذكر البكري:" وليس بسجلماسة ذباب ولا يتجذم من أهلها أحد "[3]، وقد أرجع عبد الهادي البياض هذا الشذوذ والتقزز الغذائي لزمن المجاعة والقحط التي أصابت البقاع المقفرة التي تفتقر لوفرة الغذاء الذي يغنيهم عن ذلك النظام الغذائي المقزز[4].

المقزز[4].

ومصيبة المجاعة أزمت الأندلس والمغرب الاسلامي التسليم بمغذيات مقرفة تباينت عنها مواقف الفقهاء والمفتين ومنها كتب المناقب، فكان لابن القيم الجوزية فصلا من فصول ما قيل عن هذه الأزمة:" لقد تعاقبت على إنسان المغرب والأندلس فواجع دفعت به إلى

[1]- ابن زهر، كتاب التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق عبد الله الوداني، مطبعة فضالة المحمدية، الرباط، 1991م، ص460.

[2]- عبد الهادي البياض،م س ،ص189.

[3]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص836.

[4]- عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص191.

حالات اضطرار فكانت في بداية الأزمات بتجنب الوقوع في الحرام، فأقبل على استهلاك الجراد لأنه حلال ويسد الرمق رغم علمهم بتأثيراته السلبية على الصحة فطبيعته حار ويابس فهو قليل الغذاء والمداومة على أكله يولد الهزال "[1]، ومن أجل التقليل من مضاعفاته الصحية ابتكر طرقا عديدة في تحضيره فكان يؤكل الجراد مقليا ومملحا[2] ومن طرق تحضيره أيضا كان يؤخذ ويغلى في الماء وتزال الأجنحة وأرجله ويقلى في الزيت حتى تجف رطوبته ثم يوضع عليه قرفة فلفل ثم يؤكل[3] وما ورد سابقا أن بلاد المغرب الاسلامي تتداخل فيها عوامل التأثير الطبيعي والبيئي في نظام غذاء السكان، فأهل الأندلس في إحدى السنوات العجاف شهدت بلنسية مجاعة رهيبة انعدمت فيها الأقوات فتعذر على المعدمين تأمين غذاءهم حيث كان لا يصل إدراك شيء من الموجود إلا أهل الجاه[4]، أما الضعفاء فأقبلوا على أكل جلود الحيوانات ولحومها التي تفاوتت أسعارها وأصنافها حيث" بيع رطل لحم البغل بستة دنانير ورطل جلد البقري بخمسة دراهم... وتقوت سائر الناس بالجلود والأصماغ وعرق السوس وأحكم الوباء قبضته، فبينما الرجل يمشي سقط ميتا لم يبق ما يدب على أربع "[5].

اضطر سكان الريف الفقراء إلى مزج بعض المواد للحصول على خبز رديء، لأنه لا ينبت أي شيء حسن في جبالهم ماعدا القليل من الدخن[6] الذي يخلطونه مع بذر العنب

---

[1]- ابن القيم الجوزية، الطب النبوي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1377هـ، ص298.

[2]- الإدريسي، المصدر السابق، ج4، ص38.

[3]- ابن رزين التيجيبي، المصدر السابق، ص275.

[4]- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج4، ص38.

[3]- المصدر نفسه، ص39.

4- ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص257.

ويستخرجون منه دقيقا ويصنعون منه خبزا أسودا كريها[1]، فمنطقة الجريد بما فيها قسطيلية استحسن سكانها لحم الكلاب وسهروا على تربيتها داخل بساتينهم ويطعمونها حتى تصبح وجبتهم، وعن ما نقله البكري تمت ضيافة غريب فأطعموه لحما استطابه وحسن ذوقه فسأل عنه فقال له لحم جرو مسمّن[2].

إن السواد الأعظم من السكان أصبح عاجزا أمام ظاهرة تفشي هذا النمط الغذائي الغريب الذي أثر في سلوكيات وذهنيات السكان فتغيرت مفاهيم قواميس الغذاء لأنه ظرف طارئ فأكلوا الكلاب والنباتات البرية وبعض الأغذية الغريبة لم يعتادوا على أكلها إلا بسبب الجوع والفقر[3]، ومن مخلفات الجفاف الذي ضرب معظم بقاع المغرب الاسلامي، انتشار الأوبئة نتيجة شرب الناس للمياه القذرة والراكدة في برك وذلك لانعدام المياه الصالحة للشرب وهو جزء من النظام الغذائي[4] وبالموازاة لما جرى في المغرب الإسلامي فعالم النظام الغذائي الرديء الذي أضر بهذه المنطقة قد جثم على أرض الشام ففي سنة (718هـ/1316م) وعم القحط والجوع بالجزيرة حتى أكل الناس لحوم الميتة وبيعت الأولاد وجلى الناس إلى حيث توفر سبل العيش ومات البعض من ذلك الجوع[5]، الجوع[5]، وقد كان لمجاعة 777هـ/1375م بالغ الأثر في المجتمع إذ بلغت ذروة هذه المجاعة إلى دفع عدة أسر إلى بيع أبنائها لشراء الأقوات أو التخلص منهم[6] نتيجة الفقر واضطر

---

[1]- حسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص257.

[2]- البكري، المصدر السابق، ص709.

[3]- ابن السماك العاملي، الحلل الموشية في ذر الاخبار المراكشية ،تح:عبد القادر بوباية،دار الكتب العلمية ،بيروت،ط،2010م، ص209/ ابن خلدون، العبر، ج7، ص128.

[4]- سعيد بن حمادة، الماء والإنسان في الأندلس، ص187.

[5]- الذهبي محمد، ذيول العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3، ط1، 1985م، ص114.

[6]- الحنبلي ابن عماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج8، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1993م، ص431.

الناس لشدة هول العوز والفقر إلى أكل الحيوان الميت ولحوم أولادهم وعبيدهم وجواريهم[1] ومنه نستنتج أن جميع طبقات المجتمع كانت مستهدفة حتى الأسياد والأثرياء.

جاء في كتاب" المعرب " عن المغرب الأوسط والمتعلق بالخسائر البشرية الناتجة عن المجاعة ببجاية سنة 581هـ/1185م نتيجة تعرضها لغزو بني غانية القادمين من مايوركا، فعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء فكانوا يصبحون في الخرب وفي سكك المدينة زمرا أمواتا ذكورا وإناثا[2]، والشيء نفسه أكدته مصادر المرحلة بتبيان كثرة الوفيات بالمغرب الأقصى جراء هذه الكوارث المرتبطة بالفقر والمجاعة، فخلال الربع الأول من القرن السابع الهجري يرصد لنا أحد المؤرخين استفحال المجاعة وارتفاع عدد الضحايا بفاس في قوله:" فقلت الجبايات بالمدينة ومات أكثر الناس جوعا وقلّ الإنفاق "[3] وفي نفس السياق الذي ارتبط بالمهالك والأسى، أشار ابن أبي زرع بنص بالغ الأهمية يميط فيه اللثام عن هول وباء ومجاعة سنة 693هـ/1294م بحصدها أرواح المستضعفين من عامة المجتمع في قوله:" المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب "[4] ففاجعة المجاعة أرخت بظلالها في معظم كتابات المؤرخين منهم ابن الأحمر في القرن 8هـ/14م في عهد أبي فارس عبد العزيز(ت799هـ/1397م) حيث عانى من وطأته المستضعفون أكثر من غيرهم[5] وظلت المجاعة أحد الثوابت اللصيقة ببلاد المغرب الإسلامي بما فيها المغرب الأوسط، وقد

---

[1]- ابن قاضي شهبة،،تاريخ ابن قاضي شهبة، ج3، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دار الجفان والجابي للطباعة والنشر، 1994م، صص648-652.

[2]- ابن عذاري المراكشي، م س، ص181.

[3]- عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص27.

[4]- ابن أبي زرع الفاسي، م س، ص539.

2- بن الأحمر، م س، ص50.

اجتاحت هذا الاقليم في الفترة الممتدة ما بين 588هـ-927هـ/1192-1520م والجدول أدناه يعرض مجاعات المغرب الأوسط[1].

سنة المجاعة	المكان	النص الدال على ذلك	المصدر
588هـ/1192م	بجاية	فأقام السيد أبو زيد على هذا الحال والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عم الموتان	ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص181
610هـ/1213م	بجاية	وقعت مجاعة ببجاية فذهب أبو زكرياء يحي بن أبي علي المشهور إلى العامل.	الغبريني، عنوان الدراية، ص135/ رسائل موحدية، 182/2.
614هـ/616هـ	المغرب	في سنة ست عشرة وستمائة كان المحل العظيم والمجاعة التي شكاها الطاعن والمقيم وتناهى الحال في مزيد السعر إلى ما لانهاية له وكان ابتداء	ابن عذاري ،البيان المغرب، قسم الموحدين، ص266-267

تعد الفترة الموحدية والمرينية محطة من محطات تاريخ المغرب الاسلامي والتي هي محل الدراسة وكان لها نصيب أوفر من أزمة ظاهرة المجاعة وقد صادفت هرم الدولة وتقهقرها وهذه عينة من المجاعات التي هزت كيان الدولتين .

سنة الآفة	المصدر	المكان	آثارها من خلال نصوص
616هـ/1219م	ابن عذاري، قسم الموحدين، ص266-267.	غير محدد	"وفي سنة ست عشرة وستمائة كان المحل العظيم والمجاعة التي شكاها الطاعن والمقيم وتناهى الحال في مزيد السعر الى مالا نهاية له وكان ابتداء الحال في السنتين

[1]- مسدور سمية، المرجع السابق، ص127.

			المتقدمتين لهذه السنة المؤرخة
613هـ/1233 م	ابن عذاري، قسم الموحدين ص323	أغمات	... وأخذ في التضييق على أغمات والانتهاء إلى سورها فأقاموا لها محاصرين يومين لم يجد أحد فيها شيئا يبتاعه واحتيج طعام يرسم زاد الدار الخليفة الرشيد فتطوف خاصته المشرف أبو البركات على الأسواق والديار فلم يجتمع له إلا قدر تسعين مدا من القمح
631هـ/1233 م	ابن عذاري، القسم الموحدين، ص325-336	مراكش	واستولت المجاعة على جمهور الناس ورأوا محنا يستعاذ منها وأما أسواق المدينة ... تصنع من نوار الخروب وماعدا هذا ليس له وجود البتة حتى لقد هلكت أمما لا تحصى

[1]

لقد ساهمت التطورات السياسية في بلاد المغرب في سقوط وأفول سلطة الدولة المرابطية ليحل محلها نفوذ الدولة الموحدية خاصة على يد عبد المؤمن بن علي (524ه-558ه) الذي قام بحملات عسكرية على نطاق واسع من بلاد المغرب[2]، وقد أوقع مدينة مكناسة في طوق خانق بلغ حد سبع سنين[3]، ولذلك كانت الحملات العسكرية التي شنها السلاطين والخلفاء دون مراعاة لآثارها الإنسانية دور كبير في تفاقم المجاعات، هذا إن لم يكن الهدف منها هو إحداث المجاعة التي يضطر معها ساكنة المدينة إلى الاستسلام.

[1]- كريمي ماجدة، قراءة المدينة الموحدية والمرينية من خلال أزمة المجاعات والأوبئة ،الناشر:الجمعية المغربية للبحث التاريخي، أكتوبر، 2009م، ص109.

[2]- ابن خلدون، العبر، ج6، صص305-311.

[3]- ابن غازي، م س، ص21/ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص191.

طال أمر الحصار واشتدت حاجات السكان للغذاء وتغير نظام غذائهم قصرا وتبدلت سلوكاتهم تحت ضغط الجوع والخوف فاستحسنوا الغذاء المقزز إلى أكل خسيس الحيوان[1] والتي تعني الهوام والكلاب والجرذان التي تشمئز منها النفوس ونهى الشرع عن أكلها.

عمت المجاعات كثيرا من مدن بلاد المغرب الإسلامي في فترات متزامنة أو متفاوتة، ومنها مدينة برقة التي فنيت بها الأقوات وما نجى من الناجين من شبح الجوع والهلاك اختاروا نشاط صيد الحيات والأفاعي كغذاء محتم يقتاتون عليه في ظل ظروف الجدب والمجاعة وقد انعكس هذا الغذاء بالويل والخطورة على مستهلكيه وصحة أبدانهم حيث أحصى التيجاني عدد الناس الذين استهلكوا الحيات السامة نحو سبعمائة نسمة ولم يسلم منهم سوى مائة شخص[2]، وقد تبين أن نسبة تحمل الأشخاص لهذه الأغذية السامة لم تتعدى 15%.

إذن تحمل السكان ما لا يطاق في ظل أزمة الغذاء الشاذ الذي لم يرق إلى درجة كرامة الانسان وعيشه الكريم والجدول رقم1 يبرز هذه المفارقة الغريبة التي ألّمت بالإنسان في بلاد المغرب وفي عدة مناسبات.

إحصائيات نسبة المخاطرة بتناول الحيات السامة في برقة سنة 706هـ/1306م.

عدد من أكل لحوم الحيات			نسبة المخاطرة	
العدد الكلي	عدد الضحايا	عدد الناجين	نسبة الضحايا	نسبة الناجين
700 ن	600 ن	100 ن	%85	%15

[1]- ابن غازي، المصدر نفسه، ص25.

[2]- التيجاني، رحلة التيجاني، تحقيق حسن عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، د، ط، ليبيا، تونس، 1981م،ص191.

شهد الناجون حول هول كثرة الموتى وتعفن جثثهم في أحيائهم وخيامهم وعدم القدرة على مواراتهم للتراب وتحوّل جثثهم الى مصدر يتغذى عليه الأحياء رغم نتاءتها وقذارتها.

6- ممارسة السلوك العدواني لتحصيل القوت:

حب البقاء واستمرار الحياة هو مطلب كل إنسان على هذه الأرض إلا أن الظروف الصعبة التي مرت بها الساكنة في ظل ندرة القوت والمجاعة سادت حالة اضطراب نفسي خطير مست غالبية سكان المدن حيث وصلوا إلى درجة العجز في الحصول على الغذاء وقد ترتب عن ذلك سلوك عدواني، تمثل في الاعتداء على ممتلكات الغير لضمان البقاء وتفشي ظاهرة التسول، وقد أشار إلى ذلك بعض المؤرخين كابن عذاري من خلال مجاعة مراكش سنة 631هـ/1233م، فقال:" أنه إذا ظهر شيء من خبز الشعير في السوق يحشر الناس عليه... ثم لا يعدم الذي يتوصل إليه أن يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء والمساكين حتى ينتزعوه منه قهرا "[1].

ومن خلال احصاء سنوات المجاعة في المغرب الإسلامي سواء في عهد المرابطين أو الموحدين وكذا الدولة المرينية والزيانية والحفصية تبين أن المجاعة عمت كل هذه الرحاب مخلفة مأساة وأضرارا، هلك الكثير منها ولم يعد للإنسان خيارا الا افتكاك قوته بالقوة والاعتداء فاختفت خصال الكرم بسبب العوز والفقر والجوع، فمجاعة تلمسان 688هـ/1289م أنهكت السكان وأتعبت كاهلهم وجردتهم من خصالهم المألوفة، فحديث العبدري عن تعذر أهل مليكش التي هي من أطراف تلمسان عن القيام بواجب الضيافة إزاء جمع من الحجاج قد مروا بهم نتيجة سوء الأوضاع الاقتصادية وترتب عن ذلك بعض

1- ابن عذاري، قسم الموحدين، ص321.

السلوك الذي كان يهدد أمن الناس وهي ظاهرة اللصوصية وانتشار فئة اللصوص بكثرة في الطريق الرابط بين تلمسان ورباط تازا[1].

وبانعدام القيم وتغير الذهنيات بفعل الأوبئة والأمراض والجفاف وخضوع الإنسان لعاملي التأثير والتأثر تحول إلى شخص شرس متمرد على كل القيم الأخلاقية، بل يحرص على غريزة البقاء، هذا هو الشخص الذي شكلته الظروف الصعبة التي شهدتها مدينة سبتة سنة 635هـ/1237م والتي دامت سنتين كاملتين، فاشتد الغلاء والوباء، فأكل الناس بعضهم بعضا[2]، فذلك هو سلوك عدواني لم يكن يصل إليه إلا بعد انهيار توازنه النفسي وبلوغه درجة عالية من الهياج العصبي غير العادي، واستحكام صورة اليأس المتناهية والتوتر مما يولد له تبلّدا في الإحساس[3].

شهدت الدولة الموحدية أكبر انحراف في السلوك غذائي خرج عن نطاق تقاليد التغذية الذي لم تعهده الساكنة من قبل في زمن المجاعة الحادة، فهو سلوك فظيع تمثل في أكل لحم الأدمي[4] رغم أن الفقيه راشد بن أبي راشد الوليدي أفتى في شأن نازلة تتعلق بمدى شرعية أكل لحم الأدمي[5] وهذا يدخل ضمن الأغذية المقززة والشاذة وأسلوب السلوك العدواني في تحصيل الغذاء، وفي هذا السياق لم تغفل النوازل هذا من المسائل المتعلقة بالتعدي على ممتلكات الغير واغتصابها كسلوك أفرزته أزمة المجاعة والجوع والتي ترتب عنها ممارسة اللصوصية لتأمين حاجة الغذاء، فهذا " رجل تعدي على بقرة رجل في سنة جذبة غالية السعر قليلة الطعام والبقرة معروفة بغزر اللبن يقام بها معاش الأهل، تضاعف عليها

[1]- مسدور سمية، المرجع السابق، ص133.

[2]- ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص362.

[3]- جوزيه دي كسترو ، جغرافية الجوع، ص61.

[4]- نشاط مصطفى، التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني، مجلة أمل، 1999م، صص5-15، ص10.

[5]- راشد بن أبي راشد الوليدي، الحلال والحرام، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط، ص191.

قيمتها أم لا؟ فأجاب ابن محسود إنما يلزم المعتدي قيمتها ما تساوي ذلك الوقت الذي تعدي فيه عليها فإن لم يجد من يعرف قيمتها، حلف صاحبها على قيمتها وغرمها المعتدي "[1].

قد تتحول الرغبة في الحصول على الطعام إلى قدرة وطاقة عدوانية لدى الإنسان، وهي أحداث مرعبة تناقلتها أقلام المؤرخين، وعن مجاعة 487هـ/1094م يذكر ابن عذاري المراكشي، أنَّ " رجلا هجم على نصراني وقع في الحفير فأخذه باليد ووزع لحمه "[2]، ومشهد آخر أورده ابن الخطيب، أقبل فيه الجياع على أكل الموتى وانتكت العظام الرفاة، واستنقعت الجلود وأكلت الجيف"[3].

فحتى طبقة الفقراء والعبيد على حد سواء مارسوا هذا السلوك العدواني لنيل قوتهم والتحرر من قيود التسلط الممارس عليهم، فهم لا يملكون حتى حرية أنفسهم، ويبدو أن بعض أسيادهم كانوا يخلون عليهم بمؤنهم وخاصة في مثل هذه الظروف التي لم يكن فيها الإنسان قادرا على إطعام نفسه فما بالك بمن يعولهم، وقد عاتب الفقيه الإباضي أبو نوح سعيد بن زنغيل أهل ورجلان لدى عودته إليها بأن الواحد منهم " يطلق عبيده فلا يعولهم ولا يمونهم ولا يكفيهم طلب معاشهم فينطلقون إلى أموال الناس على غير رضا أصحاب الأموال "[4]، لكن هذا التصرف كان أقوى من أن يتم التحكم فيه، وبالتالي فإنَّ هذه التصرفات تبدو سلوكا مدفوعا إليه باضطرار.

ب- غذاء زمن الشدة في الأمثال الشعبية:

---

[1]- المازوني، الدرر المكنونة، ج2، ورقة 39ب .

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص39.

[3]- لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ج2، ص334.

[4]- جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3هـ-4هـ/9-10م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص426.

انتشرت في المغرب الإسلامي أمثال شعبية صاغتها العامة نتيجة تجربة عاشتها الساكنة في ظل رداءة الغذاء وعلاقته بالصحة نتيجة الجوائح والجوع والكوارث الطبيعية وتعبيرا عن حالة الرخاء أو الشدة، وقد اختلف النسيج اللغوي لتلك الأمثال من منطقة إلى أخرى حسب الظروف البيئية الاجتماعية، ومن الأمثال الشعبية المعبّرة عن حالة العامة.

- **ارفع ما شيت يقولك الزمن هيت**[1]. ارفع أي: ادّخر، وهيت بالإمالة: أي هات والمعنى ادّخر لزمن الشدّة

- **الجوع مالو عينين**[2] أي أن الجائع يضطر إلى أكل كل ما يجد.

- **كول الزيت ولا تمشي لطبيب**[3]، وفيه ما للزيت من فوائد صحية.

- **من كلا سبع من البلوّط كلا شر من عود**[4]، ضرب هذا المثل كتنبيه لخطر البلّوط على المعدة بسبب ثقله وعسر هضمه ما يؤدي إلى الإمساك.

- **لي عشاه قلية يبداه بالغزّ**[5]، والقلية عادة تكون من القمح اللين أو الصلب تحمّر في مقلاة وترش بقليل من الماء المملّح. وإن كان هذا المثل يضرب في الاستعداد للأمر مبكّرا فهو أيضا مثال لأحد الأنظمة الغذائية البسيطة، وهناك مثل يراعي الجانب الصحّي ويعدّ أسلوب وقائي لسلامة الانسان ومن ذلك:

---

[1]- الزجالي القرطبي، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بن شريفة، منشورات وزارة الشؤون الثقافية والتعليم، المملكة المغربية، د ط، د.ت، ق2، رقم 427، ص96.

[2]- المصدر نفسه، ق2، رقم 378، ص8-6.

[3]- المصدر نفسه، ق2، رقم 1124، ص260.

[4]- المصدر نفسه، ق2، رقم 1394، ص322.

[5]- فادة بوتان، الأمثال الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987م، رقم 123، ص38.

" أفطر فطور الأمراء، وتغذّى غذا الملوك، وتعشّى عشا الفقرا، تسلم من كل دا "[1]، فهذا المثل يعد قاعدة صحية في الثقافة الغذائية.

وبانهيار قيم التضامن أحيانا وإقصاء الرحمة من القلوب بسبب حرص الإنسان على البقاء وتغليب أنانيته على سلوكياته، قال عبد الرحمن المجدوب في هذا الشأن: " اللفت ولات شحمة وتباع بالسوم الغالي وفي القلوب ما بقات رحمة شوف حالي يا العالي"[2].

ومن خلال تحليل خطاب الطعام في الموروث الشعبي إبّان المجاعات تبيّن أن انعدام الطعام أو فقدانه يؤثّر على تديّن الفرد، وهو ما يوضحه المثلان:

- شحال اكدك من استغفر الله يا البايت بلا عشا.

- بات بلا كم تصبح بلا دين [3].

ومن ابتكارات مقاومة الجوع ولو بطمأنة النفس طلبا للقناعة قال في ذلك عبد الرحمن المجدوب:" خبزة والقلب مشروح والصحة هو ايدامه "[4] يعني أن الضحك والتّرويح عن النفس يكمل ما نقص من غذاء، ولم تهمل الأمثال الشعبية كرامة الإنسان في وقت ندرة الغذاء وتجنّب كشف ظاهرة الجوع والتستّر عن مواجع فراغ البطون، منها:

- " كول التبن وادهن فمك بالسمن "، خبزي تحت باطي ما سمع حد عياطي. - لي خلّص دينو شبع[5].

---

[1]- رابح خدوسي ، موسوعة الأمثال الشعبية، دار الحضارة، د. ط، د. ت، ص25.

[2]- عبد الرحمن المجدوب، ديوان عبد الرحمن المجدوب، الطبعة التجارية، د، ت، د. م، ص6.

[3]- محمد بلاجي، أقنعة الطعام، مجلة أمل، عدد 16، 1999م، ص162.

[4]- عبد الرحمن المجدوب، المرجع السابق، ص17/ محمد بلاجي، المرجع نفسه، ص170.

[5]- محمد بلاجي، المرجع نفسه، ص164.

كما تضمّن الموروث الشعبي من خلال الأمثال ظاهرة إفلاس اقتصاد الدول وسقوطها في نفّ المجاعة فنتج عن ذلك ندرة الطعام.

اذا جاع المخزن جعنا[1].

ثانيا- موقف الفقهاء والصوفية من أطعمة المجاعات:

أ- **الخطاب الفقهي:**عملا برخص الاجتهاد التي وردت في الدين الاسلامي وتكريسا لنظام مرونة الإسلام وتكيفه مع الأوضاع الراهنة، حرص الفقه والفقهاء على إزالة اللبس والغموض الذي شمل مسائل عديدة تتعلق بالحلال والحرام وما بينهما، وما تعلق بقوت وغذاء السكان فقد التزم الخطاب الديني عند الفقهاء عند فترة الرخاء بالاعتدال والهدوء والتريث والتمحص وماتعلق بأطعمة المجاعات ووقت الضيق والقحط واصدار أحكام متوازنة تعالج أخطار وسلامة أغذية زمن الشدة.

لم يستقر الحال على هذا النمط من أحكام وفتاوى الفقهاء الذين عاشوا مرحلة الرخاء بل ما تعرض له سكان المغرب الإسلامي من مسغبة ومجاعة غير من سياقات اجتهادات الفقهاء والعلماء والعمل بمبدأ الضرورات تبيح المحظورات، فاعترف الخطاب الفقهي بتأثير المجاعة في سلوك الإنسان وضرورة ايجاد حل فأجاز للفرد أن ينقذ نفسه وذلك باستهلاك ما يسد رمقه ويبقي على حياته بهدف طرد شبح الموت[2]. ولعل الظروف الصعبة التي فرضتها المجاعات والأوبئة والتحولات التي طرأت على نمط الغذاء المعتاد إلى غذاء شاذ، دفعت السكان في المناطق الصحراوية إلى تناول الجراد، لأنه حلال رغم ما يحمله ويخلفه

[1]- محمد بلاجي، المرجع نفسه، ص161.

[2]- الزحيلي، نظرية الضرورة الشرعية، دار الفكر المعاصر، بيروت- دمشق، ط4، 1994، ص69.

من مضاعفات جانبية على صحة الإنسان، وقد قيل فيه:" حار يابس قليل الغذاء وإدامة أكله يورث الهزال"[1].

وقد أوجب توظيف فقه الأولويات لإيجاد حلول شرعية للمضطرين، وعادة ما تفلح النوازل الفقهية في فك معضلة طرأت نتيجة موروث ثقافي أو عادة محكمة قد تحرمك من الطعام كالذي ورد عند الونشريسي فيما يخص عملية الذبح من القفا والتي أجازها الفقيه السكوني الذي يعد أحد علماء حاضرة تونس، وقد رخص لذلك زمن المسغبة التي عز فيها الطعام إلى حد الندرة والحاجة ترخص لذلك[2].

إن الاجتهاد الفقهي لدى العلماء توصل إلى وضع ضوابط وقواعد الاستنباط واستخراج الأحكام تماشيا والضرورة، إذا فقد المضطر طعاما حلالا يتقوت به طبقا لما جاء في قوله تعالى في سورة الأنعام:((وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ))[3].

ويبدو أن الأئمة الثلاث كان لهم رأي وفتوى حول الميتة فالإمام مالك رحمه الله قال في ذلك:" حد ذلك الشبع والتزود منها حتى يجد غيرها " أما الشافعي وأبو حنيفة النعمان رحمهما الله فقالا:" لا يأكل منها إلا ما يمسك الرمق " وبه أخذ أصحاب مالك[4].

لم تعد القواعد الشرعية محترمة في وقت شاعت وعمت المجاعة وأصبح الإنسان بين رحا الفناء أو البقاء، فاخترق الفقهاء القاعدة الشرعية كاجتهاد ينقذ البشرية من الزوال وذلك

---

[1]- ابن القيم الجوزية، المصدر السابق، ص298.

[2]- الونشريسي، م س، صص20-22,

[3]- سورة الأنعام، الآية 119.

[4]- ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق محمد صبحي، ج2، ط1، مكتبة ابن تيمية، ص533-534.

بتفعيل سلوك الدين والسلف لتحقيق التآزر والتضامن، وتجنب المخلفات السلبية للمجاعة لذلك سمح الفقهاء للناس بالسلف في أطعمتهم حتى وإن كانت عهود رد الدين أو السلف بعينه لم تتم كأن يرد سلف الزرع زرعا أو الزيت زيتا[1] وهذا مظهر من مظاهر التازر والتكاثف، ويذكر صاحب المعالم أن طعام الفقراء كان مقتصرا على خبز الشعير المصنوع من الدشيش (الجشيش)[2] أو أكل الخز واللبن[3].

ونظرا لخصاصة الطبقة المعوزة ربما احتاجوا لطهي طعامهم على بعض الأزبال اليابسة أو عظام الميتة إن لم يتوفر لهم الحطب خاصة أيام الشتاء القارس وزمن السيول والفيضانات، وقد أجاز ابن رشد أكله تحت غطاء مبدأ الضرورة تبيح المحظورة على خلاف أبو عمران الذي حرّمه[4]، وقد لجأ البعض إلى أكل طعام به نجاسة على حد ما ورد عند الونشريسي في إحدى نوازله:" أن شخصا سئل عن من عجن دقيقا كثيرا للخبز فظهر أن الماء الذي عجن به وقعت فيه فأرة وكان الزمان زمان مسغبة "[5] وهو نص يعطي أهمية الدقيق لصاحبه في جواز أكله أم لا؟ وبغض النظر عن استفسار صاحب الفتوى للمضار التي تترتب عن النجاسة الحاصلة في الطعام وخطرها على صحة الانسان فموقف الفقه وتراخيصه التي أقرها ما هي إلا حل ظرفي يجنب الإنسان شر الفناء في حين شدد الإسلام في تحريم بعض الأطعمة على المسلمين كأكل الميتة لارتباطه بالجانب الصحي أكثر لما لذلك من أثر سيء على صحة آكلها، والميتة هي ما مات موتا عاديا أو نتيجة الإصابة بأمراض أو كبر الحيوان وشيخوخته أو بذبحه دون اتباع أحكام الذبح الشرعية

1- الونشريسي، المصدر السابق، ج5، ص47،211، ج6، ص203.

2- الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص322.

3- ابن الزيات، المصدر السابق، ص302.

4- البرزلي، فتاوى البرزلي، ج2، ص48.

5- الونشريسي، المعيار المعرب، ج1، ص164.

كذكاة شرعية[1] ومن باب تخليص السكان من الموت أثناء الحاجة أجاز لنا سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ورخص للناس أكل الميتة مثل لحوم السمك والجراد في قوله عليه الصلاة والسلام:" أحلَّت لَكُم ميتتانِ ودَمانِ، فأمَّا الميتَتانِ، فالحوتُ والجرادُ "[2]

ولم يقس ديننا على نمط غذاء الإنسان حين يكون عرضة لمسغبة، فسمح له بأكل الميتة في أوقات الحرجة كالجفاف والمجاعة وهو غير مخيّر بل مجبر على ذلك[3]، والدّم المسفوح[4]، ونازلة أخرى وردت من نوازل الونشريسي أنه سأل الفقيه سيدي علي بن محسود عن الزرع الأخضر والفول الأخضر يحتاج الناس إلى سلفه فكان رده:" ذلك جائز في وقت الجائحة وشدة المجاعة لما فيه إحياء النفوس "[5].

ب- الخطاب الصوفي في أغذية المجاعة:

تكون عقيدة النظام الغذائي عند أهل التصوف هو عدم المتعة بالملذات بل الإبقاء على حياة الإنسان فهو سلوك تقشفي لقهر النفس وصدها عن مغريات الحياة، وتزخر النصوص المناقبية بما يدعم ذلك، وقد بلغت درجة تقييد النفس والتشدد في تهذيبها وترويضها عند البعض منهم، وحسبنا أن أحد المتصوفة كان لا يأكل طيلة عمره سوى خبز

---

[1]- سمير سالم وآخرون، الغذاء والتغذية في الإسلام، منظمة الأغذية والزراعة، المكتب الإقليمي للشرق الأدنى، القاهرة، 1999م، ص30.

[2]- ابن ماجة، سنن ابن ماجة، تحقيق أحمد فؤاد عبد الباقي، ج1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت، د. ط، ص1101.

[3]- زينب ملياني، الأطعمة والأشربة بالمغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين، أطروحة دكتوراه، 2016-2017م، ص158.

[4]- جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، تفسير الجلالين بهامش المصحف الشريف بالرسم العثماني مذيلا بصحيح أسباب النزول من باب المنقول للأمام السيوطي، قراءة وتعليق: بوسعيد بلعيد الجزائري، دار الامام مالك للطباعة والنشر، باب الواد، الجزائر، 2010م، صص106-107.

[5]- الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص44.

شعير بالماء[1]، واقتصر طعام متصوف آخر على بعض النباتات كمساليخ الكلخ[2]، ودائما في خطاب الطعام في السلوك الصوفي يعتمد على مبدأ الندرة وسد الحاجة كحد أقصى لعلاقة الإنسان بالطعام، فسلوك الطعام عندهم هو درجة من درجات التقرب إلى الله وكبح الملذات ولو على حساب صحتهم، بل أن أحد المتصوّفة كان من شدة قلة ما يأكله أن صار جسمه كالسفود المحترق[3]، والمشهد الثاني في الفكر الصوفي هو شرعية الأطعمة، وقد حرصت كتب المناقب على سرد عدد من تراجم المتصوّفة والأولياء الذين أخذوا أنفسهم بالتقشف في المشرب والمطعم، أو الذين عاشوا حياة عادية كعامة الناس لكنهم تناولوا المباح وابتعدوا عن شبهة الحرام[4].

إنَّ غذاء رجال المتصوفة لم يصل درجة الرخاء بل نزل إلى مستوى أغذية زمن الشدة والمجاعة وهو ليس بجديد عندهم، فكانوا قدوة لجبر الخواطر لدى الفقراء والمهلوكين جراء الأوبئة والمجاعات وانطلاقا من المبادئ الثلاثة التي التزمت بها المدرسة الصوفية من خلال خطاباتهم لمواجهة الجوع (الندرة، الشرع، التكافل) ومنه اتضحت هوية شخصية الأولياء وما مدى التزامهم باليسير والقناعة.

2-1 ندرة الطعام والسعي لسد الجوع: في هذا السياق تكرّر عدم جدوى كثرة الطعام لأن الغاية تسعى إلى عدم تحقيق الإحساس بالمتعة واللذة بل وسيلة لدفع الجوع فكان الشيخ أحمد الغماري (ت874ه/1469م) اذا أصابت مجاعة حاضرة تلمسان سنة 842هـ/1439م التي أرهقت وأتعبت خلقا كثيرا بما فيها الشيخ، فاختار خلوة مسجد الحلفاويين الكائن بالحاضرة وأغلق الباب على نفسه ونام من شدة الجوع الذي مسه ليستيقظ وإذا بفاجعة

---

[1]- ابن الزيات، م س، ص207.

[2]- ابن الزيات، المصدر نفسه، ص207.

[3]- ابن الزيات، المصدر نفسه، ص145.

[4]- إبراهيم القادري بوتشيش وعبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص183.

زمن المجاعة انقضى وولّى ونجّاه الله من فتنتها بسبب نومه الطويل داخل هذا المسجد[1]، ومنهم كذلك من أخذ بهذا الاتجاه كالشيخ بويدر يرني السنوسي، الذي أصيب بالجوع الشديد لعدّة أيّام فمكث بجامع سيدي الحلوي الواقع بحاضرة تلمسان إلى أن أنجده وأغاثه رجلان صالحان على تجاوز نكبته بتميرات أعادت له ضوء الدنيا وتجاوز جوعه[2]، أمّا الشيخ الورع أبو حفص الزغوني فقد أتوه بزكاة في زمن القحط الشديد من طرف أحد المزكّين فردّها عليه وقال أنه ليس بحاجة إليها وأنه لو أراد أن تكون داره من فضة لحصل، ومن كرامات الشيوخ أن احتفن التراب أمام الرائي فتحوّل إلى ذهب حينها همّ الرجل بالمغادرة وهو في حالة الانبهار لما شهد "[3].

انتقل التصوّف السني من فكرة الانزواء والخلاص الفردي إلى مشاركة عامة الناس محنهم ومساعدتهم على تجاوزها، وقد حق لأحد الدارسين القول أنَّ تصوف المرحلة المدروسة (ق4-8هـ/10-16م) قد غلب عليه الاتجاه الاجتماعي[4]، ومن هذا المنظور تغيّر السلوك الصوفي نحو ظاهرة القحط والمصغبة إلى سلوك تطبيقي حمل أهل الولاية والصلاح مشعله انطلاقا من مفهوم المجاهدة، ولعل النوائب والفواجع التي ألّمت بالمغرب والأندلس كان لها النصيب الأوفر في حدوث ظاهرة الوعي الاجتماعي.

---

[1]- يجدر بالذكر أن فاجعة تلمسان عجّلت بغلق مسجد حاضرة تلمسان، الخلفاويين لفترة من الزمن. **ينظر:** محمد بن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، د. ط، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1326هـ، ص33/ ابن صعد التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالاشياخ الاربعة ،تح:يحي بوعزيز ،ط1، 2002،ص222.

[2]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص35.

[3]- موسى بن عيسى المازوني، صلحاء واد شلف، نسخة مصوّرة من الخزانة العامة، الرباط، رقم 43،523، ورقة 137ن.

[4]- عبد الهادي البياض، م س، ص261.

لم تعد الكرامة في السلوك الصوفي كافية في مداواة الأزمة بل انتقلت إلى مظاهر البذل والعطاء، فهو أصدق تعبير لها، ومنه لم تعد الكرامة شحنة فردية تخص صاحبها، ولم تعد تميزا شخصيا بل تحوّلت إلى الانفاق على المعسرين زمن الشدة، وفي فلك التجارة النامية المربحة لقوله تعالى: **((إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ))**[1].

كان لأبي يعزى فلسفة خاصة في الانفاق على المعسرين، فقد كان يبذر تسعة أعشار من زرعه ويكتفي هو بالعشر[2] وهذا سلوك اجتماعي تربوي يسعى إلى تحفيز وجرّ الأغنياء إلى خصلة الانفاق وإشاعة روح التضامن لتحقيق التكافل وتختفي فيه عوارض التمايز الطبقي وتجعل الإنسان تحت طائلة الامتحان والتجربة، ومدى قدرة تحمله لهذه المهالك فجاء على لسان أبي يعزى: أنني أستحي أن أمسك تسعة أعشار وأصرف العشر للمسكين فإن هذا من سوء الأدب مع الله عز وجل[3]، وقد سلك بعضهم سلوكا خاصا في مجاهدة النفس ولو كان ذلك في معصية أوامر الحاكم وولي أمرهم، فمنهم من هام على وجهه في الأرض ومسه ضر الجوع وصبر على ذلك لإسكات الجوع، فالطعام بالنسبة لهم مجرد وسيلة لسد حاجات المضطر فقط، وفي هذا المعنى يروى أنَّ الشيخ أبي محمد عبد العزيز التونسي (ت486هـ/1093م) أخذته فسحة مع أحد أصدقائه على سواحل المغرب الأقصى

[1]- سورة فاطر، الآية 29.

[2]- الصومعي، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق علي الجاوي، 1996م، منشورات جامعة بن زهر، أكادير، ص257.

[3]- ابن القنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفارسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، ص25/ عبد القادر بوتشيش، المغرب والأندلس، ص157.

وهما يكابدان شر الجوع وألم فراغ البطن فسرعان ما صادفا سمكة لفظها البحر فأخذ الشيخ قطعة نيئة منها وأكلها وقال لصاحبه أمّا أنا فقد اكتفيت[1].

2-2- **شرعية الطعام المستهلك:** لم يمئن بال المتصوفة على نمط غذائهم إلا إذا صلح مصدره وأجازه الشرع، وقد حرصوا أشد الحرص على صفاء منبعه فهو أحد مرتكزات الفكر الصوفي، وسادت عادة التحري عن مصدر الأطعمة وبلغ الأمر درجة إشراف الصلحاء على مصدر غذائهم بنفسهم وبحرث قوتهم بيدهم.

من دعاة مبدأ شرعية الطعام الشيخ أبي عبد الله محمد بن محيو الهواري، فقد أرّقه أمر طعامه فعزم الخروج للبادية وترك المدينة فسئل لم فعل ذلك، فقال:" ما أسكنني البادية إلا هم هذه اللقمة، أريد أن أنظر إليها وقت دخولها إلى وقت خروجها " فكان يحرث الأرض ويبذر الحب بيده ويبقى ملازما لغراسته إلى غاية نضجها وحصادها وجمعها، وبذلك يكون قد اطمأن لحلال قوته[2]، فالاطمئنان عن شرعية الطعام عند الصلحاء والأولياء هو عهد بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، وكانوا يبحثون عن كل ماهو مباح وبعيد عن شبهة الحرام كأجباح النحل والحوت[3] وصيد السلاحف من سواحل البحر[4].

لم تتحرج السلطة في المغرب الإسلامي من سلوكيات الزهّاد ورجال التصوّف وإن كان البعض منهم يعترض على نظام السلطة إلا أن الشق الثاني من نشاط هذه الفئة كان له دور كبير في إراحة المجتمع من بعض المظاهر كاللصوصية والعوز والجوع وذلك بتكريس

---

[1]- أبو محمد عبد العزيز التونسي، دفين مدينة أغمات، ويعود أصل الشيخ لمدينة تونس، أخذ الفقه عن الشيخ أبي عمران الفاسي، جلس لتدريس الفقه وتعليم الناس أمور دينهم عرف عنه الزهد وهروبه من أهل الدنيا. ينظر: ابن الزيات، المصدر السابق، ص92-93.

[2]- ابن الزيات، مصدر السابق، ص179.

[3]- ابن الزيات، المصدر السابق، ص183.

[4]- المازوني، صلحاء شلف، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ص293.

مبدأ الإيثار وقهر النفس عن الهوى والجشع، فالشيخ أبو جبل يعلى (ت503هـ/1109م) كان جزارا في حاضرة فاس[1]، وقد نقل ابن الزيات أن معظم بيع وشراء الشيخ في الغنم وهذا بعد تحقق من طيب مكسب زبائنه، وكان جل اللحم الذي يبيعه موجّه لقوم يعرف تقواهم ومن ذوي الفضل فيقطّع ذبيحته قطعا قطعا ويجعل لكل واحد منهم قدر كفايته من اللحم الذي يرسل في طلبه[2] وقد اشتغل الزهّد والصلحاء بحكمة ومبدأ ما تيسّر وإن قل وعظم أجره بسلامة مصدره وطهارة كسبه ذلك ما اعتاد عليه الشيخ أبو الحاج يوسف بن موسى الضرير (ت520هـ/1126م) عاش منعزلا عن الناس بحاضرة مراكش لا يقبل المال من أي كان وناب عنه أحد اخوانه بالتكفّل بزاده فيحرث قوته من أرض له ويبعث به إليه مع أضحية العيد التي يخصّصها له من كل عام، فكان هذا دأبه في تحصيل غذاءه[3].

وفي ذات السياق نذكر أن هؤلاء الزهّد والشيوخ جعلوا الحياة مطية لتهذيب أنفسهم وكبحها عن متاع الدنيا، فكانوا يملكون الضيعات والبساتين، فهذا الشيخ أبو محمد مع عبد الله بن يحي الزناتي (ت536هـ/1141م) كانت له ضيعة يعتني بها وبشجرها المثمر خاصة الأعناب يستطيبها ويأكل منها مع أهل سائر بنيه من كل سنة إلى جانب حرث وزراعة الحبوب فيحصل على مقدار ما ينتفع به طيلة السنة وكذا رعيه ببقرته التي توفّر له كمية

---

[1]- أبو عبد الله التميمي الفاسي، المستفاد من مناقب العبّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، ط1، ج2، مطبعة طوب بريس، الرباط، 2002م، ص189.

[2]- الشيخ أبو جبل يعلى، دفين حاضرة فاس وواحد من أهلها، قيل عنه أنه جاب جبل درن من غربه حتى مشرقه عند موقع أوتان مشيا على الأقدام، زار مصر وحج البيت الحرام وجاوره لمدة تسعة أعوام كاملة ولمّا عاد لفاس اعتكف في إحدى الزوايا حتى لقي ربّه. ينظر: ابن الزيات، التشوف الى رجال التصوف، ص101-103.

[3]- الشيخ أبو الحاج يوسف بن موسى الضرير، أندلسي من مدينة سرقسطة نزيل حاضرة مراكش ودفينها، تتلمذ على يد الشيخ أبي مروان بن سرّاج، والشيخ أبي علي الجياني، ويعد آخر تلميذ للشيخ أبي بكر محمد الحضرمي المرّادي في علوم الاعتقادات. ينظر: ابن الزيات، المصدر نفسه، ص105-106.

وافرة يوميا من اللبن فيتخذ منه شرابا ويستخرج منه زبدة، ويمكن صناعة جبن منه ينوّع به مصدر غذائه اليومي[1]، وكما جرت العادة أن هؤلاء المشايخ كانوا يكرمون بعضهم البعض ورغم زياراتهم المتبادلة إلا أن شرط الحلال وارد في مطلبهم لسد الرمق والجوع، ومن نماذج ذلك حلول الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم (ت559هـ/1163م) ضيفا على أحد أصحابه فطلب منه الشيخ طعاما حلالا من أطعمته التي يأكلها فأكرمه وقدم له خبزا ولبنا فأكل منه الشيخ[2]، فتوارث ودأب معظم هؤلاء الشيوخ الأولياء على ظاهرة التحري والتأكد من سلامة وطهارة مصدر الغذاء فاختاروا حياة الخلوة بعيدا عن العامة في مواضع خاصة بهم ويعتمدون على الأغذية التي تتوفر عليها تلك المنطقة، وحدث أن دخل مجموعة من الأفراد إلى جبل الحديد الواقع في منطقة مراكش وهم رهط من العبّاد والنسّاك قوتهم من الماء والفواكه التي تنبت بهذا الجبل[3]، وهذا الغذاء لا يمكّنهم من البقاء في هذا الجبل إلا بتجفيف ما يصلح من تلك الفواكه وادخارها لبقية السنة.

3-2 مبدأ التكافل الاجتماعي لدى الخطاب الصّوفي: ما هو متعارف عليه عندهم، أنّهم لازموا حياة الفقر والندرة وهم في سعة من العيش والوفرة، وكانوا يؤثرون على أنفسهم لاسعاد غيرهم ومساعدة الضعفاء والمحتاجين، والتخلي عن الملذات وإغاثة الملهوفين لقوله سبحانه وتعالى:((وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ))[4]، وقد ازداد نشاط أهل التصوف في عهد المجاعات بالمغرب الإسلامي فأقدم أحدهم على جمع المساكين والفقراء بجامع علي بن يوسف وأخرج لهم القمح والسمن الذي كان عنده وقام بتوزيعه

---

[1]- الشيخ أبو محمد مع الله بن يحي الزناتي، من بلاد تادلا ودفين قصبتها، اعتبر من أهل العلم والعمل والكرامات. ينظر: ابن الزيات، المصدر السابق، ص133-134.

[2]- الشيخ علي بن اسماعيل بن محمد بن حرزهم، يكنّى بأبي الحسن من أهل فاس ودفينها وواحد من علماء المغرب في علم الفقه، وأحد الزهّاد ورجل من رجالات التصوف. ينظر: ابن الزيات، المصدر نفسه، صص168-170.

[3]- حسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص112.

[4]- سورة الحشر، الآية 9.

عليهم ولم يبق شيئا لنفسه وذلك بسبب المجاعة التي ضربت مراكش[1]، وبعضهم ارتقى سلوكهم إلى درجة الانقطاع والخلوة وتفريج كرب المساكين أثناء الشدة، ومنهم أبو عبد الله المهداوي (ت595هـ/1198م) أثناء المجاعة التي أصابت فاس، فأخرج كل القمح الذي كان عنده للناس ولم يقبض ثمنه بل أخذ عنهم تعهّدات غير أنه قام بحلّها في الماء وقال لهم أنتم في حلّ وما بعت إلا من الله ولكنّ احتلت عليكم بالبيع إلى أجل[2].

اشتدت كوارث القحط في الفترة الانتقالية بين المرابطين والموحدين فذهب ضحيتها المعدمون من ذوي الدخل المحدود، فكان الشيخ أبو محمد السكوني[3] وفي المجاعة التي ألّمت بمراكش وأحوازها عام 501هـ/1107م تصدّق أبو عمران موسى بن إسحاق الوريكي (ت592هـ/1195م) بأربعمائة دينار[4].

وقد تحصل الكوارث والعواصف البحرية لكن لم تبق رهينة التفسير العلمي والمنطقي بل تجازوت جدود العقل إلى حدود الإيمان والتوبة حيث ربطها الفقيه ابن الحاج بالذنوب مبيّنا دور الإقلاع عن الشر والإنفاق على المحتاجين في تأمين الرحلة وتسكين هيجان البحر، وإذا حصل ذلك على صاحب مركب فتتعيّن عليه المبادرة إلى تجديد التوبة عليه وعلى من معه في السفينة، إذ لعلّ ما أصابهم يكون بسبب ذنب اقترفوه وعوقب به الجميع، فإذا حصلت التوبة فيمتثلون السنّة وهي إخراج الصدقة بنية رفع هذه الشّدة

[1]- ابن الزيات، المصدر السابق، ص232.

[2]- المصدر نفسه، ص333.

[3]- السكوني، رجل رحل إلى المشرق في حدود 540هـ/1145م عند ابتداء فتنة المريدين. ابن الزبير، صلة الصلة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، تحقيق الهراس وسعيد أعراب، القسم 4، ص38.

[4]- ابن الزيات، المصدر السابق، ص298.

والبلاء عنهم فيعطونها لفقرائهم فإن هم فعلوا ذلك قوي الرّجاء في خلاصهم واغاثتهم[1]، وقد وردت في هذا الشأن كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

استمرت سلوكيات التضامن والتكافل قبيل نهاية العصر الوسيط، وما لاحظه لسان الدين ابن الخطيب الذي زار ضريح أبي العباس السبتي من كثرة الزوّار المتردّدين على قبره فقال عند ذلك: رحمة الله على ذلك القبر لكثرة زائريه فيقتحم ذو الحاجة باب الروضة خالعا نعله ويقعد بإزاء القبر مدة لذلك، ومن عجز عن الصدقة بالنقدين تصدّق بالطعام ونحوه فإذا خفّ الزائر وكان آخر النهار عمد القائم على التربة إلى ما أودع في تلك الأواني وقسّمه على المحاويج الحافّين بالروضة وبالطرق الموصلة إليها، ويحصون كل عشية فيعمّهم ذلك الرّزق المودع في تلك الأواني وإن قصّر عنهم استكملوه في غده[2]، وهكذا صار التكافل أثناء الأزمات خصلة اجتماعية متأصّلة في ممارسات سكّان العدوتين بفضل الجهود التي نقلها هؤلاء الصلاّح ومن دعاة التّضامن، وفي ذلك ما ينهض حجّة على أنّ المسألة الاجتماعية والتخفيف من عبء الفئات المستضعفة كان واردا في كتب المناقب والكرامات كردّ فعل ضدّ الأزمات الاجتماعية[3].

فالفئة المستهدفة والتي استسلمت لقضاء الله ونكبات الدّهر قد نالت مساعدة مشايخ الصوفية التي جنّدت كل إمكانياتها لنيل الثّواب في الدنيا والآخرة، فقد عظم دور الشّيخ الولي الصّوفي محمد بن عمر المعروف بالهواري (ت843هـ/1439م) فله كرامات كثيرة يقال أنّه كان آية في الكرم والرّحمة للمساكين، وكان خدوما مأديا لحاجة من يقصده على حسب ما ورد عند ابن صعد الذي قال:" كنت عند الشيخ يوما وقد ورد إليه جماعة من الشّرفاء

[1]- ابن الحاج، المدخل، ط2، ج4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1972م، ص61.

[2]- ابن صعد الأنصاري، النجم الثاقب في ما لأولياء الله من مفاخر المناقب، م،خ،ع،الرباط رقم،د،1910م،ص،300.

[3]- عبد الهادي البياض، م س، ص279.

الكائنين بمواطن مغراوة من بلاد الشلف يشكون ظلم وليّهم وجوره على الأهالي وغيرهم من الرعية، فاشتد غضبه ثم بعث للخليفة كتابا لذلك الأمر فوضع حدّا لذلك "[1]، وحذا حذوهم الشيخ أحمد بن الحسن بن عبد الرحمن العمري نزيل تلمسان (ت874هـ/1470م) وما عرف عنه أنه كان يتولى بنفسه خدمة المرضى والفقراء ويسقي لهم الماء ويحمل الطعام الى منازلهم ويتفقّد أحوالهم[2] وها هو الولي أبو عمران ابن اسحاق يتصدّق بكلّ ماله الذي ورثه والمقدّر أربعمائة دينار على المساكين زمن المجاعة وبالرّغم من حاجة أولاده لهذا المال وعندما توفي هذا الوليّ ترك أولاده وزوجته في حالة شديدة من الفقر حتّى جمع الناس لهم صدقة على قبره واشتروا لهم دارا بهذا المال[3].

ساهم الرجل الصّوفي والوليّ الصالح بأساليب شتى في محاولة منهم لتحسين مستوى معيشة بعض فئات السكان والتّقليل من حدّة الفقر إمّا عن طريق أداء الكرامات والدّعاء أو تشجيع الصّدقة كما كانت لهم اسهامات في وقف وتعطيل بعض الظواهر والآفات المنتشرة كظاهرة السّرقة واللصوصية كما أوردت لنا دائما كتب المناقب بعض المواقف المعارضة للسّلطة خاصة ماتعلّق بالضرائب التي أنهكت بعض العامّة وتخويف الحاكم بالكرامة والدعاء المستجاب، وقد ورد في إحداها ما يلي:" إذا غلت أسعاركم وقلّت أمطاركم وضعفت ثماركم وتنكّرت قلوبكم وعميت عن الرّشد مسامعكم وكثرت النميمة والغيبة في خياركم وجارت عليكم ملوككم فالتجؤوا إلى الله بالأولياء الذين خلف ظهوركم يؤمّنكم الله... ممّا تخافون "[4].

---

[1]- بختة خليلي، الفقر في المغرب الاسلامي، جامعة اسطمبولي،2015-2016م، ص319.

[2]- ابن صعد الأنصاري التلمساني، روضة النسرين، ص194.

[3]- موسى بن عيسى المازوني،صلحاء واد شلف، ورقة 139ب.

[4]- نللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع، ص317، نقلا عن مناقب أولياء تونس، م 18555، ورقة 10.

ثالثا- جهود الدّولة في تأمين الغذاء : عانى المغرب الاسلامي من آثار ومساوئ المجاعة والأوبئة كغيره من التخوم المجاورة كأروبا وغيرها ورغم حضور السلطة بكلّ امكانياتها وقرارات ملوكها في وقت طغى فيه التكافل الاجتماعي الذي كان يحرّكه الوازع الديني والأخلاقي فدور السّلطة والحاكم تجسّد في تحقيق وتثبيت أركان الملك[1] وذلك من أجل الحصول على شرعيّة للحكم[2]، فالخليفة المستنصر الموحّدي أولى اهتماما كبيرا لتجنّب عواقب حدوث مجاعة سنة 616هـ/1219م فسارع إلى إصدار أمرية مفادها فتح مخازن الطعام الذي جمعه طوال سنوات الرّخاء والخصب وتفريقه على النّاس وعلى الأغنياء مقابل ثمن بينما بالمجّان على الفقراء والمحتاجين، فكانت صدقاته حينئذ كثيرة حتى استطاع الناس تجاوز هذه المحنة[3]، فسخاء الدّولة والسّلطة الهدف منه استتباب الأمن، فالسّلطان أبو يعقوب المريني كانت من أولويات مساعدته موجّه للعلماء والصّلحاء فقط فكان يبعث لأسرة ابن مرزوق أثناء حصار تلمسان كلّما تحتاجه من الطعام تقديرا لعلمهم وورعهم[4].

وإذا كانت الحواضر تزخر بالحصون والقلاع والأسوار والأسواق والمساجد فهناك داخل هذا النسيج العمراني أهراء ومطامير ومستودعات بنيت وفق شروط استحضر القائمون عليها كأهمية المناخ والتضاريس إلى جانب اختيار المواقع الاستراتيجية، وغالبا ما تكون هذه المخازن في المرتفعات والروابي الآمنة، وقد حرص مهندسو الأهراء على ضرورة توفّر عنصر التّهوية اللّازمة لسلامة المدخّرات من عوادي التغيّر والفساد فاعتبروا ذلك شرطا صحيا لازما عند بناء المستودعات والأهراء الرّسمية[5]، ولم تعد أساليب التّخزين كافية

---

[1]- ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الدار العربية للكتّاب، ص201.

[2]- الأمين البزاز، هول المجاعات والأوبئة بالمغرب، مجلة كلية الاداب ،الرباط،1993م،ص99.

[3]- ابن عذاري، م س، ص266-267.

[4]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص194.

[5]- الهري: مخزن كبير سفلي قد يعلوه بناء كالحصن وغيره ، حركات إبراهيم، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط، ص78.

عبر المستودعات والأهراء لتأمين الغذاء وقت المجاعة بل لجأت الدولة إلى محاربة ظاهرة المضاربة والاحتكار زمن الكوارث الطبيعية، ففي ظروف تمتع الدولة بالقوة والنّفوذ كلّفت مصالح الحسبة بأداء دور كبير في مراقبة وملاحقة المحتكرين والضرب على أيدي المتلاعبين بالأسعار حماية للمستهلك من تجاوزات التجّار والمضاربين[1] فالمحتسب كان يسعى لضبط النظام وإجبار التجّار على بيع سلعهم بالسّعر المتداول وفي حالة اكتشاف سلع وبضائع لدى المضاربين وحاجة السكان إليها، فيصدر المحتسب طرقا زجرية لوقف هذه الظاهرة وأن تباع السلع التي تمّ حجزها، ويكون لهم رأس مالهم، والربح يتصدّق به وينهون عن ذلك فمن عاد ضرب وطيف به وسجن"[2]، وقد شدّد المحتسب في مراقبة دخول وخروج السلع وحرص على إبعاد التجّار حين تردّ سلع أهل البادية من طعام إلى السّوق حتى لا يستأثر بها الخيّاطون والتجّار ويتحكّمون بعد ذلك في ثمنه فيرتفع السّعر[3] فإذا كان حال المحتسب وتطبيقه لقوانين السلطة من خلال فرض النظام وكبح المضاربة والاحتكار فبعض السّلاطين قاموا أيام المجاعة والقحط بمواساة الضعفاء وتوزيع الصدقات لتطويق الجوع والتّخفيف من المعاناة كما فعل السلطان أبو سعيد عثمان (709هـ-731هـ/1310-1331م) أيّام القحط الشّديد الذي هزّ المغرب طيلة ثلاثة سنوات متتالية من 723هـ-1323م إلى سنة 725هـ-1325م وما ترتّب عنه من ارتفاع الأسعار حيث فتح أهراء الزّرع وأخرجه للبيع فبيع بأربعة دراهم للمدّ والناس يبيعونه بخمسة عشر درهما وأمر بالصّدقات فلم يزل يفرّقها طول أيّام الشدّة يمرّ بها التقاة على حارات المدينة فيعطونها أهل التستّر

[1]- عبد الهادي البيّاض، المرجع السابق، ص113.

[2]- الونشريسي، المعيار المعرب، ج6، ص425/ ابن زكون، منتخب الأحكام وبيان ما عمل به من سير الحكام، ص414.

[3]- المجليدي أحمد سعيد، كتاب التيسير في أحكام التّسعير، تقديم وتحقيق موسى لقبال، الجزائر، د، ت، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص51-52.

والبيوتات وذوي الفاقات والحاجات كلّ على قدر حاله وضعفه فكانوا يأخذونها من دينار ذهبا إلى ربع دينار[1].

إنَّ ما قام به المحتسب في وقت قوّة الدولة قبل ضعفها هو إحدى أساليب السّلطة في فرض هيمنتها وحماية الفقير الّذي عجز عن تدبير شؤونه، فحكّام تلمسان في شخص يغمراسن تجسّدت في تخفيف الجباية على التجار، وكان قسط كبير منها على شكل الغلّات ومواد مختلفة، تجمع تلك البضائع في مخازن الدولة لتمويل الجيش أو توزيعها على الأهالي أيام المجاعة[2]، ومن مظاهر تسهيل طرق توفير الطعام للسكان أبى السلطان الزياني كعادته أن يفرض العطايا وحدّد الرواتب للموظفين في تلمسان [3] فهذا مكسب اجتماعي حسّن معيشة السكان وسهّل عملية تحصيل الطعام، وقد اعتنى مؤسس الدولة الزيانية بالزراعة، وكان يقتطع عشر الانتاج الزراعي في المناطق الشّرقية ليخزّنه في إحدى الحصون القريبة من تلمسان ووضعه في مطامير تحسبا لأي حرب أو حصار، ومجاعات، ولم يكن السلطان أبو حمو موسى الثاني (760هـ-791هـ/1359-1389م) أقل شأنا من سابقيه.

يبدو أن سلاطين دول المغرب الإسلامي خلال هذه الحقبة الزمنية قد أبانوا عن مدى حرصهم على شؤون الرعية رغم محدودية إمكانية الدولة إلا أن الوازع الديني كرس مبدأ التآزر، فها هي الجهة الغربية من الإقليم برعاية الدولة المرينية كان لها حضور مميز في هذا الشأن، ففترة الأمير يعقوب بن عبد الحق (656هـ/1258هـ) تميزت بصلاح أحوال الاقتصاد إذ قال صاحب الأنيس المطرب:" في السنة التي ولي فيها الأمير يعقوب زمام الحكم فتح الله على الرعية بالخيرات والدعة ما لا يوصف ولا يقوم أحد بشكل ما بيع

[1]- الهلالي محمد ياسر، أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المغرب، 2002م، ص2000.

[2]- رشيد بورويبة وآخرون، م،س، ص487.

[3]- يحي بن خلدون، بغية الروّاد، ج2، ص47/ ابن خلدون، العبر، ج7، ص106.

الدقيق فيها بمدينة فاس وغيرها من بلاد المغرب بربع درهم والقمح ستة دراهم للصحفة والفول وجميع القطان ما لها سوم، ولا يوجد من يشتريها، والعسل ثلاث أرطال بدرهم والزّيت أربعون أوقية بدرهم والكبش بخمسة دراهم، والزيت درهم ونصف للرّبع والتّمر ثمانية أرطال بدرهم واحد، واللوز صاعا بدرهم واخد، والملح حمل بدرهم وذلك ببركة ويمن خلافته وحسن سيرته ونيّته "[1].

لم تعرف مرحلة الدويلات الثلاث (الحفصية- الزيانية- المرينية) استقرارا أمنيا إلا في النادر، وقد ترتّب عن ذلك خراب وحروب وحصارات، ولم تخف هذه المرحلة حضور وجهد بعض خلفاء بني مرين في التّخفيف من عبء الرعية، فهذا السلطان يوسف الذي كان سخيا وكريما ورحيما برعيته أيّام الأزمات قد بلغ عنه أنه كان يوزّع الحبوب والمؤن عندما حلّ بدولته القحط فأطعم النّاس خوفا من المجاعة سنوات 687هـ-693هـ/1288-1293م[2]، ومن مساعي وجهود الدولة في المغرب الأدنى لتحسين المستوى المعيشي للأهالي خلال القرن (ق7هـ/13م) وخاصة ملوك الدولة الحفصية أنهم ركّزوا على تثبيت أسس السلطة وتمتين قواعدها وتنمية الجانب الاقتصادي الذي أرخى بظلاله على الحياة العامة للسكان وذلك بإصلاح أوضاع المجتمع التي تعرّضت للأمراض والمجاعة وباقي الكوارث الطبيعية، فلا شكّ أنّ ضمان السلم والأمن والاستقرار لا يتأتى إلا من خلال الشروط السابقة الذّكر، فاذا كان مؤسس الدولة الحفصية أبو زكريا الحفصي (626هـ-647هـ/1249-1299م) صاحب الإصلاحات ومؤمّن طرق التجارة وباعث حياة السلم وجامع الأموال مالم يجمعه أحد[3] فجهود السلطان الواثق يحي بن المستنصر (675هـ-1277م)

---

[1]- ابن أبي زرع، م س، ص302.

[2]- السلاّوي، الاستقصا، ج3، ص90/ مرمول كربخال، المصدر السابق، ج1، ص45.

[3]- الزركشي أبي عبد الله بن ابراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة تونس، 2002م، ص25.

قد أكسبت المجتمع عدة مكاسب منها إشاعة العدل والعمل على تطبيقه وإفاضة العطاء على المحتاجين والفقراء[1].

كان ولاّة أمور بني حفص يعيرون اهتماما كبيرا لفقرائهم ومحتاجيهم، فالسلطان أبو عمرو عثمان كان له دور كبير عقب المجاعة التي ضربت وحلّت بالشعب الحفصي فحسب شهادة الزركشي في قوله:" وقعت بتونس مجاعة وغلاء في الطعام، أصاب الناس فبلغ قفيز القمح أربعة دنانير ذهبا والشعير على الشطر من ذلك، فشكى الناس قلّة الطعام وغلائه للسلطان فأمر بأن يخرج من المخزن في كل يوم ما يصنع منه ألف خبزة وتفرّق على الفقراء بتونس... وذلك في ثالث ربيع الثّاني إلى رجب حتى كثر الطعام ورخص ثمنه "[2].

عان المغرب الإسلامي من أزمة غذاء حادة، أهانت كرامة الإنسان و صنفته مع باقي الخلائق و جردته من إنسانيته في وقت كاد أن يعدم الغذاء ، فاستعان بالطبيعة من نباتها وبحرها، وعمت الفوضى و ما كان هذا إلا اختبار عسير عرفته ساكنة المغرب الإسلامي وما هي إلا سنوات استعاد فيها هذا الإقليم عافيته من خلال تجند مختلف الفئات و الطاقات لإيقاف هذا الظرف العصيب الذي كاد أن يعصف بالعامة ، فاستعادت بلاد المغرب طبيعتها وحضارتها التي واكبت ما بقي من عمرها .

[1]- ابن خلدون، العبر، ج6، ص404-405.

[2]- الزركشي، المصدر نفسه، ص150.

الفصل الرابع

الأمراض والأوبئة وطرق الوقاية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجري.

أوّلاً: الوضع الصحي العام في بلاد المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة

ثانياً: أبرز الأمراض والأوبئة التي انتشرت في بلاد المغرب الإسلامي.

ثالثاً: جهود العلماء والحكام في التصدي للأوبئة.

رابعاً: وسائل الوقاية وأساليب العلاج.

شهدت الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجري/10-14م في المغرب الإسلامي صعوبات وتحديات كبيرة للصحة العامة وبخاصة خلال الأزمنة التي كانت تتكرر فيها الأمراض والأوبئة حيث أثرت بشكل واضح وعميق على النسيج الاجتماعي والاقتصادي والسكاني للمنطقة على الرغم من التقدم النسبي الذي بلغه الطب الإسلامي خلال هذه الفترة بفضل ثلة من الأطباء سواء الذين قدموا من المشرق، أو الذين تكوَّنوا في بلاد المغرب منذ العهدين الأغلبي والعبيدي، وقد ظل فهم وإدارة الأمراض المنتشرة في المنطقة مسعا بالغ الأهمية لدى السلطة والعامة، فتطور الطب في المغرب الاسلامي هو امتداد لما عرفه العرب من اسهامات كبيرة في هذا الميدان وقت ازدهار الدولة الاسلامية وذلك بالاعتماد على ترجمة التراث الطبي اليوناني وتأسيس المدارس الطبية لتخريج الأطباء وقد برع المسلمون بصناعة الطب وتشخيص الأمراض وما جمعوه من تجارب ساعدهم على علاج المرضى وذلك بالاعتماد على مخزون المؤلفات الطبية وفي الأدوية والعقاقير[1].

لقد رافقت الانجازات الطبية التي حققها المسلمون في الأندلس تاريخ تطوره وأثرت بصورة كبيرة على ما شهدته أروبا من تحوّل إيجابي في الجانب الصحي والطبي، قال شاخت: كانت شبه جزيرة أيبيريا هي المكان الذي جرى فيه الاتصال المستمر بين الاسلام والحضارة الأوروبية الناشئة[2]، وسنحاول من خلال هذا الفصل استكشاف وتتبع الوضع الصحي العام، وتحديد الأوبئة والأمراض البارزة والمنتشرة في الأوساط الاجتماعية، ودراسة جهود العلماء والحكام في مكافحة هذه الآفات، وتحليل وسائل وطرق الوقاية

[1]- العكاوي رحاب خضر، الموجز في تاريخ الطب عند العرب، بيروت، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، 2000م، ص232.

[2]- جوزيف شاخت كليفورد بوزورت، تراث الاسلام، ترجمة محمد زهير السهوري وآخرون، تحقيق شاكر مصطفى وفؤاد زكريا، عالم المعرفة، 1987م، ج1، صص102-103.

والعلاج التي استخدمتها النخب الطبية، والسلطة الحاكمة في إدارة هذه الأزمات الصحية، وهي محاولة نقدم من خلالها نظرة شاملة للمشهد الصحي في بلاد المغرب الإسلامي خلال فترة الدراسة.

أولاً : الوضع الصحي العام في بلاد المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة.

1- تاريخ تطوّر الطب في المغرب الإسلامي:

بدأ الطب في المغرب الإسلامي بسيطا من قِبل رجال جمعوا بين الفقه والتطبيب عُرفوا في المنطقة بفقهاء البدن كابن البنا محمد بن فرج (ت303ه/915م)[1] وغيره والذين عالجوا المرضى بالرقيا التي وردت فيها كثير من الأحاديث الصحيحة، أو بشيء من الطب، ويُعد العهد الأغلبي أواخر القرن الثاني، وخلال القرن الثالث البداية الحقيقية للطب بمفهومه العلمي من خلال الاهتمام الذي أولاه الأمراء حينما استجلبوا أصحاب هذه المهنة واحتفوا بهم في قصورهم ومنهم إسحاق بن عمران المعروف بسمّ ساعة الذي استجلبه الأمير زيادة الله الثاني (249-250ه/863-864م) من بغداد فسكن القيروان وأصبح طبيبا لأمراء إفريقية، أمَّا إبراهيم بن أحمد (261-290هـ/000-000م) فقد أسَّس بيت الحكمة برقادة[2] والذي لا شكَّ في أنه احتوى على كتب الطب التي ساهمت في انتشاره، كما عرف العهد الأغلبي الدِّمن مفرد دِمنة وهي بمثابة البيمارستانات في المشرق، حيث

---

[1]- الدباغ: معالم الإيمان، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1968م، ج2، ص316.

[2]- بناها إبراهيم الأصغر سنة 264هـ/877م على ستة أميال في الجنوب الغربي من القيروان وانتقل إليها من العباسية بعدما أنشأ بها القصور والفنادق ودواوين الحكومة والحمامات فأصبحت العاصمة الثانية للأغالبة، إلى أن هرب منها زيادة الله الثاني عند اجتياحها من طرف العبيديين، فسكنها عبيد الله المهدي ثم انتقل منها إلى المهدية سنة 308ه/920م فخربت بعد ذلك. البكري: المسالك والممالك، جزء مسمى المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحرير وتقديم وتعليق حماه الله ولد السالم، دار الغرب الإسلامين بيروت، ط1، 2013م، ص108/ حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية، 1983م، ص89-90.

أنشئت أول دمنة بالقيروان على يد الأمير زيادة الله الأول (201-223هـ/217-239م) ثم تلتها دمن تونس، وسوسة وصفاقس، سُخِّر لها أطباء لمعالجة المرضى والسهر على راحتهم، وشاركهم في هذه الخدمة الفقهاء والصالحون، فكان أبو عمرو هاشم بن مسرور يبعث بالخبز إلى نزلاء الدمنة، أمَّا ابن قشاش فكان يُعدُّ الحلوى والدهن والطيب يوم العيد ويوزعها على الجذماء[1]

أمَّا في العهد العبيدي فقد حافظ الطب على طابعه البلاطي حيث احتفظ خلفاء بني عبيد بأطباء عهد الأغالبة، وممن خدم هؤلاء، عبدوس بن زيد (ت300هـ/912م) كان حاذقا خبيرا بعلامات الأمراض[2] وهو الذي عالج أبا القاسم بن المهدي العبيدي، إلا أن أشهر طبيب في هذا العهد على الإطلاق هو ابن الجزار القيرواني أبو جعفر أحمد (ت369هـ/979م) صاحب التآليف الكثيرة في الطب[3] وهو من عائلة طبية معروفة، حيث كان أبوه وعمه أبو بكر طبيبان وعنهما أخذ الطب، وقد أنشأ عيادة يستقبل فيها المرضى في مكان مستقل بجوار بيته، خصَّص قسما منها لتحضير الأدوية، وكان لا يأخذ مقابلا من الفقراء وهو ما ساعد على حصول طبقة واسعة من العامة على العلاج، وقد خدم أيضا طبيبا في البلاط العبيدي لدى الخليفة إسماعيل المنصور (334-341ه/946-953م) وتعتبر المكتبة الطبية الضخمة التي خلَّفها واحتوت على ما قيل خمسة وعشرون قنطار، تراثا وعمدة في الطب لمن أتى بعده من الأطباء.

---

[1]- المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م، ج2، ص144، 201.

[2]- القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005م، ص191.

[3]- ابن أبي أصيبعة، م س، ص481.

كان الطب مع نهاية القرن الخامس الهجري/11م في بلاد المغرب قد قطع شوطا كبيرا حيث انتشر علم الطب ومؤلفاته بشكل ملفت، وسيبرز ذلك أكثر على عهد الموحدين بفضل النهضة العلمية حيث اهتم خلفاء هذه الدولة بالعلوم العقلية كالفلسفة والفلك والطب الذي أصبح مهنة رسمية بدليل استحداثهم منصب مزوار الأطباء[1] الذي كان يعيِّنه الخليفة مباشرة وبنفسه، وممن تقلده في عهد الخليفة المنصور، نجد الطبيب أبو جعفر الذهبي (ت600ه/1203م) وبذلك أصبح الطب مهنة رسمية تخضع لضوابط وشروط صارمة لمن يتعاطاه، فتمَّ إخضاعه لنظام الحسبة، فلا تُمنح إجازة ممارسة الطب إلا من أثبت المحتسب والمزوار أحقيته في التطبيب حتى لا يُعرِّض حياة الناس للخطر، كما تمَّ أيضا إخضاع الصيادلة بائعي العقاقير والمستحضرات الطبية للمراقبة، كما أنشئت بعض البيمارستانات وإن كانت قليلة منها بيمارستان مراكش في عهد الخليفة يعقوب المنصور[2]، وبيمارستان إفريقية الحفصية الذي أنشأه أبو فارس عبد العزيز في القرن 7ه/13م وأوقفه للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين[3].

أدَّى سقوط بعض مدن الأندلس الهامة في يد الصليبيين خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري إلى هجرة كثير من العلماء إلى عدوة المغرب ومنهم الأطباء الذين ساهموا في تطوير ونشر علم ومهنة الطب، ونذكر من هؤلاء الطبيب ابن أندراس أبو القاسم محمد بن أحمد الأموي (ت674ه/1272م) من أهل مرسية، استوطن بجاية زمنا وأقرأ بها أرجوزة الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب، ثم استدعاه السلطان المستنصر الحفصي

[1]- ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص532.

[2]- عبد الواحد المراكشي،م س، ص364.

[3]- الزركشي، أخبار الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966م، ص116.

واتَّخذه طبيبا خاصا له، ومنهم أيضا أحمد بن علي الخولاني الغرناطي، سكن تونس، وكان يداوي الناس إلى أن مات في طاعون سنة 750ه/1349م[1].

ساهمت ظروف كثيرة ومتنوعة في تطور الطب في المغرب الاسلامي مثلما شهدته باقي مجالات الحياة فهناك منحنى متصاعد للتطور الحضاري في جل الميادين وهو امتداد لما شهدته بلاد الأندلس والذي انعكس على الوضع الصحي العام للمنطقة.

لقد كان للتطور العمراني وظهور عدة حواضر دور كبير في ظهور المدارس الطبية التي أصبحت محط مزارات العلماء وطلبة العلم[2]، كحاضرتي قرطبة وغرناطة بالأندلس، وفاس وتلمسان ببلاد المغرب، ومن أسرار التطوّر الكبير الذي عرفه الطب ببلاد المغرب الاسلامي هو إقبال المسلمين على ترجمة الأعمال الكلاسيكية المختلفة الاختصاصات والتي تعود للحضارات القديمة وكانت بمثابة الوقود الذي فتح مجال البحث أمام المسلمين ،ذلك ما شجّع حكّام وملوك المغرب على تشجيع العلم بما فيها الطب وتحوّلت الضفة الجنوبية للبحر الرومي الى مرجع علمي وقاعدة لتصدير المعارف المتطوّرة نحو أروبا[3].

إنَّ ممارسة مهنة التطبيب ببلاد المغرب دليل على وجود منظومة صحية رسمية قائمة تُشرف عليها الدولة، والتي سعى خلفاؤها وسلاطينها إلى التخفيف من معاناة المرضى والقضاء على الأمراض وبخاصة المعدية منها، كما ساهم الأطباء في نشر المعارف الطبية في أوساط العامة فاكتسب الناس وعيًا وثقافة صحية وأصبحوا على علم بكل ما يتعلق بحياتهم

---

[1]- ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تصحيح سالم الكرنكوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت، ج1، ص219.

[4]- شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج1، ص211.

[3]- المركز الديمقراطي العربي، الدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ألمانيا، برلين، كتاب وقائع المؤتمر الدولي العلمي، الطب والخدمات الصحية بالعالم الاسلامي عبر العصور، 2003م، ج1، ص79.

في المسكن والملبس والمأكل والمشرب والمنكح، ولا شك أنَّ ذلك قد حدَّ من انتشار الأمراض القضاء على أسبابها.

2- ملامح الحياة الصحية في المدن والبوادي:

تميّز الوضع الصحي العام ببلاد المغرب الإسلامي في الفترة المدروسة بتفاعلات مختلفة للعوامل البيئية والاجتماعية والديموغرافية، في ظل التزايد السكاني في المراكز الحضرية، والتنقل والحركة المستمرة للقبائل البدوية التي كان يغلب عليها هذا الطابع بحثا عن الماء والأراضي الرعوية، بالإضافة إلى استمرار الهجرات خاصة بعد أحداث مثل سقوط بعض مدن الأندلس إلى زيادة الكثافة السكانية في الحواضر الكبرى هذا التحضر- على الرغم من كونه علامة على الازدهار- خلق أيضًا ظروفًا مواتية لانتشار الأوبئة والأمراض المختلفة.

تشير المصادر التاريخية إلى الظروف الصحية داخل المدن الكبرى في كل من المغرب الأدنى والأوسط والأقصى إلى أن المناطق الحضرية كانت أكثر عرضة لانتشار هذه الأمراض والأوبئة من المناطق الريفية، وهذا ما سجله ابن خلدون في مقدمته على أن المناطق ذات الكثافة السكانية العالية كالمدن، والنشاط البشري الكبير الذي شهدته أدى إلى المزيد من فساد الهواء والذي ربطه بانتشار الأمراض على عكس المناطق الريفية الأقل كثافة سكانية، فعلى الرغم من أنها لم تكن محصنة فقد شهدت تفشياً أقل حدة بسبب تحسين دوران الهواء وانخفاض الكثافة السكانية، يقول ابن خلدون:" وممّا يراعى في ذلك للحماية من الآفات السّماويّة طيب الهواء للسّلامة من الأمراض، فإنّ الهواء إذا كان راكدا خبيثا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو منافع متعفّنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من

مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة "[1] وإشارة ابن خلدون هذه تعكس بحق أهمية جودة الهواء في الصحة العامة للساكنة.

أعطى ابن خلدون أيضا أمثلة على المدن والقرى التي عرفت بفساد الهواء، وهو ما جعلها عرضة لتفشي الأوبئة والأمراض المختلفة مثل بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقيّة، وهي من المناطق التي لم يلبث المرض مغادرتها من حمّى العفن، وقد أورد ابن خلدون سببا آخر ذكره الجغرافي أبو عبيد البكري في حديثه عن هذه المدينة وعن سبب المرض الذي كان ينتشر بها كل مرة بقوله:" ويذكر أهل قابس أنّها كانت أصحّ البلاد هواء حتّى وجدوا بها طلسما ظنّوا أنّ تحته مالا، فحفروا موضعه فأخرجوا منه تربة غبراء، فحدث عندهم الوباء من حينئذ "[2]، وقد استغرب ابن خلدون على هذه الحكاية التي أوردها البكري فوصفه بأنه لم يكن من أهل النّباهة والعلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبيّن خرفه فنقله كما سمعه دون تمحيص، وهو ما جعل ابن خلدون ينفي ذلك ويعرض الأسباب الحقيقية لهذا المرض من خلال التّحليل المنطقي والتّفسير العلمي، وهو الهواء الرّاكد والفاسد المحيط بالمدينة، والّذي يهيّئها لتعفين الأجسام، فيصيب الساكنة فيحصل المرض[3].

وفي ذات السياق فقد أفقد الطاعون والأوبئة بريق تلك المدينة وحضارتها، وأتلف معالمها العمرانية، وينقل لنا ابن خلدون الواقع المزري والدقيق لهذه الظاهرة حيث قال وهو يتحدث عن الطاعون الأسود:"... وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها...

---

[1]- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981م، ج1، ص433.

[2]- البكري، المسالك والممالك، ، ج2، ص 667.

[3]- ابن خلدون، م س، ص433.

وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السّبل والمعالم وخلت الديار والمنازل[1].

وفي قراءة أخرى للظروف الصحية بين البادية والحضر أنّ أهل العمود، أي أهل الخيم كانوا في مأمن من خطر الوباء، وكذا الرحّالين من العرب بإفريقية والمناطق التي يسود فيها نمط عيش البداوة بسبب حرية دوران الهواء وقلّة امكانية فساده[2] كما سلم منه أهل الصّحراء من سكان السّودان، يقول حسن الوزّان:" لم يظهر الطاعون قطّ في أرض السودان ".

أ- البنية التحتية الصحية: - الحمامات، المرافق الطبية، البيئة -:

امتلكت دول وحواضر المغرب الإسلامي بنية تحتية صحية ناشئة، والتي على الرغم من أنها لم تكن كافية وشاملة دائمًا لمكافحة الأوبئة واسعة الانتشار إلا أنها عكست درجة من اهتمام المجتمع بالصحة العامة.

كانت الحمّامات العامة منتشرة في كل مكان تقريبا، ولم تكن مجرد أماكن للنظافة الشخصية أو الزينة فحسب، بل كانت أيضًا مراكز اجتماعية بينما قد يكون تأثيرها المباشر على الوقاية من الأمراض المعدية محدودًا بسبب الفهم المعاصر، إلا أنها ساهمت في النظافة العامة.وقد ظهرت قيمة وأهمية الحمّامات خاصة ما تعلّق بأمراض الطفوحات الجلدية ولا يمكن حصارها الا بمقاربتين أولاهما تشجيع العلاج بالمياه المعدنية الحارة وتعمير الحمّامات كما هو الشأن في الأندلس حيث حمّت جيان التي كان يقصدها أهل الأسقام والعاهات من جميع النواحي فلا يكاد يخطئهم نفعها[3]، وكان الإقبال شديدا على الحمامات، فكان لكل

[1]- ابن خلدون، المقدمة، تصحيح وتنقيح تركي فرحان المصطفى، دار إحياء التراث العربي، ص320.

[2]- ابن الخطيب، مقنعة السائل عن المرض الهائل،تح:حياة قارة،دار الامان،الرباط، ص43.

[3]- عبد الهادي البيّاض،م س، ص95.

جنس في حمّة " بلّش " مثلا بيت خاص به، وورد على لسان الرحّالة ابن بطوطة قوله:" بها العين الحارّة " وهناك بيت الاستحمام للرّجال، وبيت الاستحمام للنّساء[1]، واعتمادا على قاعدة رفع الضرر، حسم الفقهاء مسألة مشاركة الجذمى للأصحاء في استعمال المياه العامّة حتى لا تنتقل منهم العدوى، فمنعوا هؤلاء من السقي والاستحمام داخل المدن، ولا ورودهم الماء وإدخالهم أوانيهم فيه ما يضرّ بالأصحاء[2].

فالحمّامات الساخنة تريح أعضاء الجسم المنهوكة وتشفي من بعض الامراض كالسلّ[3]، أمّا العيون الباردة فعولج بها الحمّى، فقد ذكر البكري أن بمدينة ميلة عينا تعرف بعين الحمّى، يرشّ منها على المحموم فيبرأ لبركتها وشدّة بردها[4]، ورغم أنَّ البكري لا يقدم تفسيرا علميا ويعزو ذلك لبركتها، فلا شك أنَّ طبيعتها هي سبب الشفاء.

واذا كانت الحمّامات الحارة إحدى مرافق العلاج الطبيعي للمرضى في وقت عجز فيه الطب الاستشفائي عن مداواة بعض العلل، فقد ألزمنا ذلك تقديم بعض المعلومات عن هذا الفضاء العامّ الذي يستقبل روّادا من فئات مختلفة منهم العليل والسليم، فهي تعد من المرافق الحيوية في المدن الاسلامية لارتباطها بالنظافة والطهر، فالدولة الموحدية مثلا كانت نموذجا صريحا كما هو الحال في بلاد الأندلس، فتاريخ الحمّامات ونشأتها كان قبل دولة المسلمين[5].

تعدّ روما المسيحيّة صاحبة أوّل إنجاز وتشييد للحمامات في التاريخ القديم، وهي تجمع بين الوظائف الصحية والاجتماعية، وكانت تشتمل على بركة الاستحمام وهي بركة جماعية

---

[1]- ابن بطوطة، م س، ج2، ص768.

[2]- الونشريسي، م س، ج6، ص422.

[3]- برنار قانون، الصحة أو المحنة في سياسة الصحة، المطبعة البهية، 1829م، ص68.

[4]- البكري، م س، ص149.

[5]- ارنس كونل، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966م، ص168.

للإناث والذكور في وقت واحد، ولم تعد الحمامات تلتزم بالطهر والنظافة بل شملت الصخب والمجون ومثل هذه الأمور غير واردة في الحمامات الاسلامية[1]، وكما أسلفنا الذكر أنَّ الموحدين كانوا سباقين في بناء الحمّامات، ففي عهد حكم الخليفة النّاصر تم تشييد ما يقارب ثلاثة وتسعون وثلاثمائة حمّاما[2]، وسبعون حمّاما منها ما هو مخصص لعلّية القوم فقط[3]، والبعض يذكر أنّ المدينة نفسها كانت تحوي ثمانين حمّاما عامّا والعديد من الحمامات الخاصة[4]، وهذا أمر لا يستغرب حيث أولى المسلمون ولا سيما في الحواضر أهمية للنظافة والهندام.

تكون الحمّامات قد ساهمت في معالجة وتقديم الطب الوقائي ضدّ الأوبئة والأمراض، وكمرفق اجتماعي، فكانت قبلة للفئة العامّة والخاصّة وهو ما أكسبها قيمة اجتماعية وكمعلم عمراني تعدّ إحدى مظاهر النسيج العمراني الذي يعكس مدى الرقي الحضاري للحارات والمدن ذلك ما جعل بلاد المغرب وعدوة الأندلس في مصاف الأمم التي أعطت عناية كبيرة لتشييد الحمّامات وهي نخدمة عمومية ومرافق صحية.

قامت المرافق الطّبية مثل البيمارستانات دورًا حاسمًا في علاج المرضى خلال الفترة الحفصية على سبيل المثال شهدت تونس تطورًا في التخطيط العمراني الجديد الذي شمل المستشفيات ومراكز رعاية المرضى المصابين بأمراض منتشرة كانت هذه المؤسسات مراكز للبحث الطبي ورعاية المرضى ممّا يشير إلى نهج منظّم للرعاية الصحية ومع ذلك غالبًا ما

---

[1]- شرقي نوارة، الحياة الاجتماعية في المغرب الاسلامي العهد الموحدي(524ه-667ه) رسالة ماجيستير، جامعة الجزائر، 2007-2008م، ص238.

[2]- حسن علي حسن، الحضارة الاسلامية في المغرب والأندلس، العصور الوسطى، دار الكتب الحديثة ، ط2، مصر، 1996م، ص403.

[3]- جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين، دار الوفاء للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1987م، ص173.

[4]- ROGER LE TOURNAU, les avant le protectorat, société marocaine, librairie et édition CASABLANCA, 1949, tome XIV, P495.

كانت هذه المؤسسات والمشافي الصحية تسد وتكفي حاجيات المرضى من ما يعانونه من أمراض وأوبئة، وقد كان للعوامل البيئية من جودة الهواء والماء أثر كبير في سلامة صحة العامة، هذا ما أشار إليه الأطباء لبلاد المغرب الإسلامي كالتهابات الهواء والماء والغذاء فعالية هذه المرافق تتحدّى بسبب الحجم الهائل والطبيعة الغامضة للأوبئة تم الاعتراف بالعوامل البيئية مثل جودة الهواء والماء، كما ساهم هذين في الصحة غالبًا ما أشار الأطباء في شمال إفريقيا إلى التهابات الهواء والماء والغذاء، خاصّة من المياه الراكدة والانهيارات الطينية كأسباب للأوبئة، هذا الوعي على الرّغم من أنّه لم يؤدّي دائمًا إلى تدخّلات فعالة واسعة النطاق يسلط الضوء على فهم العلاقة بين البيئة والصحة.

لم يقتصر اهتمام الخلفاء والسلاطين في دول المغرب الإسلامي على الجانبين السياسي والعلمي فقط، إذ نجد مثلا أنَّ أبا فارس عبد العزيز السلطان الحفصي بعد أن تولى السلطة في تونس بعد وفاة والده الخليفة أبي العباس أحمد سنة 796ه/1393م، أخذ في سياسته بالحزم فاستقامت له الأمور، فكانت من حسناته الخزانة بجوف جامع الزيتونة التي حبس فيها وفي غيرها من الكتب في العلوم الشرعية والعربية واللغة والطب والحساب والتاريخ وغير ذلك، وإحداث البيمارستان في تونس للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين، وأوقف على ذلك أوقافا كثيرة يقوم به، ومن أبرز أطباء هذا البيمارستان، محمد الشريف الحسنى الزكراوي[1] نسبة الى جدّه أبو زكرياء الفاسي نزيل تونس سنة 874ه/1469م وإن كان هذا بعد فترة الدراسة بقليل، فقد عُدَّ طبيبا تحمّل مسؤولية تسيير البيمارستان وقرأ العقليات.

[1]- أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الاسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012م، ص182.

حظيت مراكش في عهد الموحدين باهتمام الخلفاء، فأنشأ فيها المنصور أبو يوسف يعقوب المنصور بيمارستان مراكش[1] الذي أصبح بحق من المظاهر العمرانية والمؤسسات الصحية التي عكست الوجه الحضاري للموحدين في هذا الجانب، حتى قيل أن ما يُظن أن في الدنيا مثله نخامة، وقد جلب إليه الأطباء من الأندلس وإفريقية والمغرب الأوسط، وزوده بالأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثيابا ليلا ونهارا للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فاذا نقه المريض وتحسَّن حاله فإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنيا دفع إليه ماله، ولم يقتصر على الفقراء فقط بل شمل حتى الأغنياء، فكان كل من مرض بمراكش حمل إلى هذا البيمارستان الذي يمكن أن نسميه بالتعبير المعاصر بالمستشفى الحكومي، فيعالج المريض إلى أن يستريح أو يموت، وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله، ويعود المرضى ويسأل عنهم ويقول كيف حالكم وكيف القومة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال وبقي على هذا الحال الى أن توفي في شهر صفر 590هـ/1194م.

ونذكر من أشهر الأطباء الذين خدموا البيمارستان المراكشي، نجد أبو إسحاق إبراهيم الداني وهو من بجاية ونقل إلى الحضرة، فأصبح أمير البيمارستان وطبيبه المشرف، توفي بمراكش في دولة المستنصر بن الناصر[2]، وكذا الطبيب محمد بن القاسم نزيل غرناطة الذي قال عنه ابن الخطيب كان بارع الكتابة وعارفا بالطب (ت858هـ/1454م) وعليه يمكن القول أنَّ الطب بلغ مرحلة جد متقدمة في العهد الموحدي.

كان لبلاد الأندلس فضل كبير في وضع أسس وتطوير بيمارستانات بلاد المغرب، وذلك لسابقتها في هذا العلم حيث برزت عائلات نبيهة اشتغلت بالطب كآل ابن زهر،

[1]- نفسه، ص182.

[2]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأدباء في طبقة الأطباء، ج2، ص89.

وهذه المرة في سلا وذلك بعد قدوم أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر الأنصاري الأندلسي من بلاد الأندلس فأقام بها وعالج المرضى وأنشأ بالقرب من قبره بيمارستانا، توفي سنة 864هـ/1459م وتمّ تجديد هذا البيمارستان سنة 1248هـ/1846م[1].

ب- نظرة المجتمع للأمراض وأسبابها:

كان تصوّر المجتمع للأمراض والأوبئة وأسبابها في بلاد المغرب الإسلامي غالبا مزيجًا من الملاحظة التجريبية، والمعتقد الديني، والممارسات التقليدية، بينما قدم بعض العلماء مثل ابن خلدون نظريات متطورة تربط الأوبئة بالعوامل البيئية مثل فساد الهواء، وتأثير التحضر والعمران على دوران الهواء، وأقرّ آخرون مثل الطبيب ابن زهر بحدود المعرفة الطبية، ولجأوا أحيانًا إلى تفسيرات خارقة للطبيعة، عازين الأمراض إلى الغضب الإلهي، لكن على العموم كان الطب ذو طابع علمي في الغالب.

أرجع البعض حدوث الطاعون إلى سبب روحاني وأنه وخز من الجان[2] وذلك عملا بقول الرسول عليه الصلاة والسلام والذي رواه أبو موسى الأشعري عنه إذ قال:" **فناء أمّتي بالطعن والطاعون، قيل يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: وخز أعدائكم من الجنّ وفي كلّ شهداء** "[3]. وفي ذات السياق أدلى العلماء بآراء مستوحاة من معارف فلكية وذلك بظهور الثريا وسقوطها، فأرجعوا حدوث الأمراض والأوبئة بسقوط النّجم، وإذا علت وارتفعت زالت الأوبئة والطواعين عن كل بلاد[4].

---

[1]- أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، مرجع سابق، ص183.

[2]- مسدور سمية، م س، ص121.

[3]- مسدور سمية، المرجع السابق، ص122.

[4]- الطبراني، المعجم الصغير المسمّى الرّوض الدّاني، تحقيق محمد شكّور محمود الحاج أمرير، ط1، بيروت، عمان، المكتب الاسلامي، دار عمار، 1985م، ج1، ص81، حديث رقم 104/ المسند، ج2، ص341، 388، حديث رقم 8476، 9027.

كان مفهوم عدوى الأمراض مفهومًا كما يتضح من عمل بعض المؤرخين كابن الخطيب حول الأوبئة وملاحظاته حول انتشار المرض، ومع ذلك غالبًا ما كانت آليات الانتقال الدقيقة غير واضحة في مواجهة التفشي الواسع النطاق لتلك الأوبئة، وغالبًا ما استجابت المجتمعات بمزيج من الاستسلام، والتفاني الديني، والتدابير العملية.

كان الناس يلجؤون أحيانا إلى التوبة إلى الله من المعاصي، ويكثرون من زيارة المساجد ويمتنعون عن الأعمال غير الأخلاقية، معتبرين الأوبئة أقدارًا إلهية، أو عقابًا منه على الذّنوب التي يرتكبها الناس في الوقت نفسه، وبالتالي ارتبطت الكارثة بأعمال الناس، وهذا التصوّر ليس خاصا بالفقهاء أو بعامّة النّاس فقط وأنما نجده في خطاب السلاطين والحكام[1].

كان هناك أيضا اعتماد على العلاجات التقليدية، والطب العشبي، وممارسات الشّفاء الروحية بما في ذلك الرقية والدعاء التي انتشرت بصورة خاصة في أوساط العامة، وهنا برز دور الشّخصيات الصوفية والمعالجين التقليديين في توفير الراحة والعلاجات المتصورة مما يعكس نهجًا شموليًا للصحة قد ساد المجتمع آنذاك، حيث كان يُنظر إلى الرفاهية الجسدية والروحية على أنها مترابطة، وذات علاقة بالصحة، وفي هذا الإطار يذكر المؤرخ ابن أبي زرع في حوادث سنة 307ه/919م قائلا:" كان بالمغرب والأندلس وإفريقية رخاء مفرط، ووباء كثير وطاعون، وفيها كانت الريح الشديدة السوداء التي أقلعت الأشجار وهدّمت الدّيار بمدينة فاس فتاب النّاس ولزموا المساجد وارتدعوا عن كثير من الفواحش[2].

1- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ما بين القرنين 18و19م، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1991م، ص347.

2- ابن أبي زرع، م س، ص98.

وعلى خلفية هذه الكوارث من مجاعات وأوبئة نتجت مأساة وخراب في المجتمع من جهة وأصلحت بعض السلوكات وقضت على بعض المفاسد من معاص ومجون ومنكرات، حينها أدرك المجتمع المغربي عواقب هذه الكوارث وأقرّ بذنبه وتحمّل وزر المسؤولية لقوله تعالى:{ **ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البرِّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذِي عَمِلُوْا لَعلّهُمْ يَرْجِعُونَ** }[1].

تجلّت عظمة الله سبحانه وتعالى وما عمّمه من نعم على عباده، ولم يلق شكرا وحمدا بل ظهر الفساد وعمّت الرّذيلة فتحمّل الانسان عواقب ذلك ولو يؤاخذ الله الناس بما عملوا ما ترك الله على الأرض من دابّة لقوله تعالى:{ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة ولكنّ يؤخّرهم الى أجل مسمّى فإذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا** }[2].

ثانياً : أبرز الأوبئة والأمراض في المغرب الإسلامي.

عرفت بلاد المغرب الاسلامي انتشار عدة أمراض وطواعين فتاكة، ارتبط بعضها بالظروف الطبيعية والمناخية أي عند الانتقال الفصلي، قال ابن سينا:" واعلم أنَّ اختلاف الفصول قد يثير في كل إقليم ضربا من الأمراض "[3] كما تصبح بعض المناطق من خلال موقعها الجغرافي وبخاصة الحارّة منها بيئات وَبِئَة قابلة لانتشار الأمراض وهو ما لاحظه ابن سينا أيضا فقال في ذلك:" والسنة المستمرة الفصول على كيفية واحدة سنة رديئة "[4] نتيجة عدم تجدد الهواء.

1- سورة الروم، الآية 40.

2- سورة فاطر، الآية 46.

3- ابن سينا: القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999م، ج1، ص117.

4- ابن سينا، المصدر نفسه، ص117.

كثيرا ما تؤدي المجاعات الناتجة عن القحط والجفاف الذي يدوم أحيانا لعدة سنوات إلى ظهور أمراض عضوية وجلدية، وكثيرا ما تُسبِّب الحروب وحالات الحصار والقتل إلى فساد الهواء المؤدي بدوره إلى الوباء، قال ابن حجر:" ينشأ - الوباء – عن فساد يعرض لجوهر الهواء بأسباب سماوية أو أرضية، فمن الأرضية الماء الآسن، والجيف الكثيرة كما يقع في مواضع المعركة إذا لم تُدفن "[1] إلا أنَّ أشدها خطرا كان انتشار الأمراض الوبائية والطواعين التي لا يمكن التحكم فيها بشكل تام حيث كانت تودي بحياة عشرات المصابين يوميا.

لا نريد الإطالة في الكلام عن مختلف الأمراض والأوبئة التي أصابت ساكنة بلاد المغرب، والتي لا تختلف كثيرا عن الأمراض التي كانت معروفة ومنتشرة في العالم آنذاك وإن اختلفت في أسبابها وبيئاتها بعض الشيء، وقد أجمل وبسط أطباء الإسلام في عرض تلك الأمراض التي تصيب الإنسان من القرن إلى القدم، أي كامل الجسم ووصفوا العلاج لكل واحد منها كابن سينا وكتابه القانون في الطب، وموسوعة الرازي" الحاوي في الطب" وابن رشد" الكليات في الطب" وإنما سنقتصر على واحد من المشهور منها لأثره البالغ، وهو الطاعون.

أ- مرض الطاعون:

يعد الطاعون "بلا شك" أحد أكثر الأوبئة تدميرا على مر التاريخ، والتي خلّفت تأثيرا كبيرا في بلاد المغرب الإسلامي، وقد أشارت السجلات التاريخية خلال فترة الدراسة بشكل متكرّر إلى تأثيره الواسع والقاتل عبر الفترات التي ضرب فيها المنطقة، وهذا ما جعل حضوره في المخيال الشعبي يكون مصحوبًا دائما بحالة الخوف من الموت، والارتباك

[1]- ابن حجر العسقلاني: بذل الماعون في فضل الطاعون، حققه وخرج أحاديثه كيلاني محمد خليفة، دار الكتب الأثرية، ط1، 1993م، ص48.

لانعدام وجود فهم علمي دقيق يُبين أسبابه وطرق انتشاره ما يُمكن الناس من تفاديه، سواء لدى العامة أو حتى في أوساط بعض النخب العلمية كالأطباء والمثقفين.

انعكس هذا الخوف والارتباك والغموض المحيط بهذا الوباء لدى العامة إلى تعامل المجتمع معه في الغالب بمنطق الاستسلام للقدر، واعتباره قضاءً وقدرا سماويا لا مفر منه، وذلك انطلاقا من بعض نصوص القرآن والسنَّة التي روت تسليط هذا الوباء على بعض الأمم السابقة التي خالفت عن أمر الله، وهذا الأمر وإن كان فيه جانبا من الإيمان بالقضاء والقدر، فقد عبّر من جهة أخرى عن ضعف التصدي لهذه الظاهرة ونقص آليات المواجهة والوقاية:

أما بخصوص التعريفات والمفاهيم التي قدمها العلماء لهذا الوباء، فهي تكاد تتفق عند معظم المؤرخين، فقد عرّفه محمد الرصّاع بأنه حمّى خبيثة دائمة ناتجة عن سوء في المزاج القلبي، كما يرى أن له سبب علمي يمكن تشخيصه من خلال فساد الهواء والغذاء، وهذا التعريف والتفسير يعبّر عن مرجعية دينية مستمدة من الأحاديث النبوية حيث يُنظر إلى الطاعون كمظهر من مظاهر الابتلاء الإلهي[1].

يُعد الطاعون من الأمراض الفتاكة التي تودي بحياة العشرات، بل المئات والآلاف حتى أُطلق عليه المُوتان أي الموت. فالطاعون كل ورم يكون في الأعضاء الغددية اللحم والخالية، ويكون هذا الورم القتال في أكثر الأمر في الأعضاء الضعيفة مثل الآباط والأربية وخلف الأذُن، وتكثر الطواعين في الوباء وفي بلاد وبئة[2]. وعرَّفه الحسن بن نوح القمري: بأنه أورام وبثور يخرج معها تلهُّب شديد مجاوز المقدار[3]. وقد وصف ابن الخطيب

[1]- الرصاع، الأجوبة التونسية عن المسائل الغرناطية، تحقيق: محمّد حسن، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، ص106.

[2]- ابن سينا: م س، ص163-164.

[3]- التنوير في الاصطلاحات الطبية، تحقيق غادة حسن الكرمي، الرياض، 1991م، ص65.

كيفية انتشاره، والفئات الأكثر عرضة له فقال:" يتعلق بالناس تعلُّق النار بالحلفاء والهشيم بأدنى ملابسة من إلمام بمريض، أو بمباشرة ثوبه وآنيته... وفي الضعفاء وأهل الشَّظَف أفتك، وبصنفي النساء والصبيان أمطى "[1]، ويرى البعض أن الطواعين خرجات وقروح وأورام[2] هذا ولعل أشهر طاعون عرفه العالم بما فيه العالم الإسلامي هو طاعون سنة 749-750ه الذي يُقال أنه بدأ من الصين قبل هذا التاريخ ثم زحف غربا ليضرب أسيا الصغرى وأوروبا وشمال إفريقيا، والذي هلك فيه الآلاف من أهل المغرب الإسلامي، فمات به في تونس في يوم واحد مائتان وألف، وفي تلمسان سبعمائة ونيِّف[3].

ب- الجدري والحصبة، الجذام، والجرب والحمى الوبائية:

وهي من الأمراض التي تظهر على جسم الإنسان أي خارجية، تسببها غالبا البيئة الطبيعية والمناخ، أو بسبب أنماط الحياة وهي غالبا الأمراض الجلدية، وبعضها تصيب الأجهزة الداخلية لكن تظهر أعراضها على ملامح الإنسان المصاب، وإذا كان علاج هذه الأمراض يختلف حسب العناصر الاجتماعية العرقية فإنه في الغالب ظل طبا إسلاميا كمهنة مختصة يعتمد ممارسوها على العلم في الحواضر ولدى الطبقات الراقية، ويخضع للتقليد والسحر والدين في الأرياف ولدى الطبقة العامة.

الحصبة: ويصيب عادة الأطفال، وهي طفح جلدي أحمر.

[1]- ابن الخطيب السلماني: م س، ص77.

[2]- ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، ص91.

[3]- ابن الخطيب السلماني: مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص44.

الجدري: ويُعرف أيضا بالحميقاء، وتصيب الأطفال بصفة خاصة، حتى لا يكاد يفلت منها أحد منهم[1].

الجذام[2]: وهو مرض معدٍ، ويصيب أساسا الجلد، والأطراف والأعضاء الخارجية كالعيون والأنف والأذنين واليدين والقدمين والخصيتين.

الجرب[3]: وهو من الأمراض كثيرة الانتشار، والناتجة بصفة خاصة عن أنماط غذائية معيَّنة وبسبب التعب مع قلة الاستحمام.

جدول يبيّن عدد الأوبئة في بلاد المغرب خلال المرحلة المدروسة ما بين ق6-10هـ.

الاطار الزمني	الاطار الجغرافي	المصدر
588هـ/1192م	بجاية	ابن عذاري، البيان المغرب ص181.
610هـ/1213م	المغرب والأندلس	ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص272/ الناصري: الاستقصا، ج2، ص262.
630هـ/1232م	المغرب	ابن أبي زرع، نفسه، ص276.
656هـ/1258م	إفريقية وأحوازها	ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص121.
693هـ/1293م	المغرب	ابن أبي زرع، نفسه، ص248.

[1]- البلدي أحمد بن يحي، تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم، تحقيق محمود الحاج قاسم محمد، دار الرشيد، بغداد، د. ط، د. ت، ص321.

[2]- الرازي، المنصوري في الطب، شرح وتحقيق وتعليق حازم البكري الصديقي، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، 1987م، ص256.

[3]- المنصوري في الطب، ص250.

714هـ/1314م	بجاية	سبك المقال، ص261.
740هـ/1339م	الجزائر	المقري، المسند الصحيح، ص261.
749هـ/1348م	المغرب الأوسط	ابن فرحون، الديباج المذهّب، ص313.
765هـ/1363م	المسيلة	العبر،ج7، ص170.
805هـ/1402م	إفريقية وأحوازها	ابن قنفذ، الفارسية، ص199.
845هـ/1441م	تلمسان	القلصادي، رحلة القلصادي، ص109.
847هـ/1443م	افريقيا وأحوازها	الزركشي، تاريخ الدولتين، ص141.
871هـ/1466م	تلمسان	ابن مريم، البستان، ص224.
926هـ/1519م	تلمسان والمغرب	لفظ الفرائد،ج2، ص842.
927هـ/1520م	المغرب	لفظ الفرائد، ج2، ص842.

ساهمت أمراض أخرى إلى جانب التأثير المدمر للطاعون بشكل كبير في التحديات الصحية التي واجهها سكان بلاد المغرب الإسلامي بينما كانت أقل تفصيلاً في نطاقها الوبائي مقارنة بالطاعون، كانت حالات مثل الحصبة التي تعرف بالحصبة في العربية، والجذام والحمى الوبائية المختلفة منتشرة.

تسرد المصادر الوسيطة المتاحة حول مرض الوباء من خلال المؤلفات الطبية في الغرب الإسلامي أمراضًا عديدة أصابت مختلف أجهزة وأعضاء جسم الإنسان مثل الخرانق، والنقرس، والأمراض المزمنة، وأمراض المعدة، وأمراض العيون، والصداع والصرع، والبهاق، والجذام.

كانت الحمى الوبائية على الرغم من عدم تسميتها صراحة دائمًا، غالبًا ما ترتبط بعوامل بيئية مثل تلوث الهواء والماء، ومن المحتمل أنها كانت سببًا مهمًا للمرض والوفيات، خاصة خلال فترات المجاعة والجفاف. إن نقص المصطلحات الطبية الدقيقة في النصوص التاريخية يجعل من الصعب تحديد هذه الحمى بدقة تشخيصية حديثة، ولكن تأثيرها على الصحة العامة واضح من أوصاف المرض والوفيات المنتشرة وبخاصة في صفوف الأطفال الذين كانوا أكثر عرضة وتأثرا بتلك الأمراض، وقد خصص البلدي كتابا في ما يتعرض له الأطفال من أمراض منذ الولادة.

ج- الأمراض النفسية:

يضاف إلى الطب الجسماني (العضوي) الذي حظي بعناية كبيرة حيث شمل أعضاء الإنسان الداخلية والخارجية من القرن إلى القدم كما يقول الرازي، اهتمامهم أيضا بالنفس البشرية وما يتعلق بها من عوارض وحالات نفسية لا تنفك فيها عن الصحة البدنية، فظهر ما يسمى بالطب الروحاني، وغرضه إصلاح علل النفوس، وقد أشار الرازي إلى الهدف من تأليف كتابه الطب الروحاني فقال:" ليكون قرينا بالكتاب المنصوري[1] الذي غرضه في الطب الجسماني وعديلا له، فيه من عموم النفع شموله للنفس والجسد"[2] وبالتالي فإن الطب جاء علما متكاملا لحفظ صحة الإنسان، فهو يجمع بين العضوي والنفسي الذي غدى علما متخصصا قائما بذاته، وهي النظرة الإسلامية عن الإنسان التي تجمع بين المادة والروح.

[1]- المنصوري: وهو كتاب في الطب من تأليف أبي بكر الرازي (ت333هـ-915م) سمي بالمنصوري لأنه ألفه للملك المنصور بن إسحاق السامانى، عرض فيه علل الجسم البدنية، من تشريح وأمراض، وطرق علاج، والغذاء والدواء في عشر مقالات مختصرة، وهو من المصادر المبكرة في تاريخ الطب الإسلامي.

[2]- الرازي: الطب الروحاني، تحقيق: عبد اللطيف العبد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1978، ص35.

لم تقتصر إصابة الأمراض التي انتشرت في المغرب الإسلامي على أعضاء البدن الداخلية والخارجية فقط، بل شملت أيضًا أمراضا تخص النفس البشرية، والتي كانت بدورها تصيب أعدادا معتبرة من الناس، وإن اختلفت عن الأمراض العضوية فإنَّ تأثيرها كان أحيانا أبلغ، أدت بالبعض إلى الجنون والخبل والانطواء، أو انعكست أحيانا على الجسد بالهزال ثم الموت، وقد عكست هذه الأمراض تفاعل الإنسان مع البيئة الثقافية والدينية والاجتماعية التي يعيش فيها، حيث أصبح لتلك المعتقدات الشعبية والأساطير الدينية المنتشرة دورا كبيرا لتفسير الكثير منها، ومن هذه الأمراض نذكر الهذيان، والوسواس، والخوف الشديد، والاكتئاب إلى تأثير الجن أو الأرواح الشريرة أو العين والحسد وغيرها.

جرى الاعتقاد السائد أن الجنّ أو الشياطين يتلبسون بالإنسان مما يتسبب له في اضطرابات نفسية مختلفة، وهو ما جعل المصاب يلجأ إلى رجال الدين خاصة الفقهاء والقراء لطلب الرقية الشرعية أو العلاج الروحي، وقد شارك بعض المنجمين والسحرة والدخلاء على الطب في علاج هذه الحالات باستخدام الشعوذة والطلاسم والأحجيات، وهو ما يعكس التداخل الحاصل في علاج هذه الأمراض بين العلم والدين والخرافة في التعامل مع الأمراض النفسية، كما يبرز ذلك التأثير للمعتقدات الشعبية على عقلية وذهنية الفرد في بلاد المغرب الإسلامي خلال فترة الدراسة، لكن يجب أن نفرق هنا بين ما هو عقلي أو ثابت بالنص الصحيح، وما هو خرافي ومن حيل المشعبذين والانتهازيين الذين يستخدمون الطب غير الشرعي كوسيلة للكسب والثراء، ولذلك تشدَّد المحتسبون في مراقبة مهنة التطبيب لعلاقتها المباشرة بحياة الإنسان.

كثيرا ما يعرض لبعض الناس علل تولدها في أجسادهم وأوهامهم تخيلات وأفكار فتثير فيهم الرعب، واستشعار الخوف وفساد الظن، فيتمكن ذلك من أنفسهم، ويقوي

لديهم إمكانية الإصابة بما كانوا يتخيلونه[1]، وقد أورد المقدسي أمثلة كثيرة على ذلك، منها أن رجلا اختلط عقله لتوهمه سماع صوت الجن في الغابة فعالجه الطبيب بحيلة نفسية مماثلة حيث أوهمه بأن الذي سمعه هو مناداة هذا الطبيب نفسه له كان هناك لكي يساعده في رفع حمل فصدقه فيما قال وبرأ الرجل مما كان يجده[2].

الملاحظ من خلال ما تم الإشارة إليه في هذه الحادثة براعة المعالج في الفهم العميق للنفس البشرية ومداهبها، وتشخيص ما كان يعيشه ذلك المريض من وهم ووسواس جعله يعتقد أنه يسمع أصوات الجن، متماشيا مع المخيال الشعبي والتصورات التي رسمها عند الفرد، فكان العلاج في هذه الحال أو المرض هو حيلة قريبة من الواقع وقريبة للتصديق فيما جرى له.

وكثيرا أيضا ما كانت تعالج تلك الأنواع من الأمراض بالطب الروحاني والتنجيم، وهذا العلاج إن صحَّ إنْ نسميه كذلك هو عبارة عن طلاسم مخطوطة بأسماء مبهمة ورسوم أو رموز، وغالبا ما توضع تلك الطلاسم في تمائم وتُعلق على الصدر[3] أو توضع على عضو في الجسم.

وعلم الطلسمات علم باحث عن كيفية تركيب القوى السماوية الفعالة مع القوى الأرضية المنفعلة في الأزمنة المناسبة للفعل والتأثير المقصود مع بخورات مقوية وجالبة لروحانية الطلسم لتظهر من تلك الأمور في عالم الكون، وقيل هو مقلوب مُسلَّط، من جهة

---

[1]- المقدسي، مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء، تحقيق: يحي شعار، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط1، 1999، ص315.

[2]- المقدسي، نفسه، ص320.

[3]- جيجلي شخوم، الصناعة الصيدلية بالدولة الزيانية من خلال مؤلفات إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني 8هـ/14م، 2013، ص9 ــ31.

الغلبة والتسليط، تتبع طباع الأدوية والعقاقير، وحركات النجوم[1]، وقد انتشر هذا النوع من الطب انتشارا معتبرا من خلال الكتب المؤلفة فيه مثل قبس الأنوار وجامع الأسرار للندرومي، وكتاب شموس الأنوار وكنوز الأسرار[2] وهو ما تعكسه ظاهرة تعليق التمائم التي ذاعت كثيرا[3].

اختُلِف في حكم الطلسم بين الفلاسفة أو الأطباء، والفقهاء، فهي عند جابر بن حيان علم من العلوم المعترف بها، لأنه بالطلسم يُخرج العالم ما يريد إخراجه من أشياء كانت كوامن، فظهورها مرهون بفعل الطلسم مماثلة أو مقابلة[4]، بينما طالب ابن سعيد العقباني بمراقبة ومنع من يتعاطى عمل الحروز[5]، وأورد الونشريسي في المعيار بعض الفتاوى المتعلقة بهذا الموضوع، منها سؤال عمن يكتب حروفا مجهولة المعنى للأمراض، فأُجيب أنه إذا جُهل معناها الظاهر فلا يجوز أن يُستشفى بها[6]، وقد وردت أحاديث تُحرِّم اللجوء إلى هذه الطريقة من العلاج لأنها تفسح المجال لذوي النفوس المريضة من استغلال الناس ماديا وجسديا.

ثالثا: مدى انتشار هذه الأمراض وأثرها على السكان

كان انتشار الأمراض في بلاد المغرب الإسلامي واسع النطاق، حيث أثّر على المناطق الحضرية والريفية على حدّ سواء، على الرّغم من أن الرّوايات التاريخية تميل إلى التّركيز

---

[1]- حاجي خليفة، كشف الظنون في غراس الفنون، ج 2،دار الاحياء،بيروت،ص1114.

[2]- شخوم، م س، ص517ـــ 524.

[3]- البكري، المصدر السابق، ص141.

[4]- نجيب محمود، المرجع السابق ن ص260.

[5]- العقباني، تحفة الناظر وغنية الذاكر،تح:علي الشنوفي،دار المعهد الثقافي الفرنسي،دمشق، ص86.

[6]- الونشريسي، المعيار المعرب، ص171.

بشكل أكبر على التأثير المدمّر على المدن سهّل ترابط المنطقة من خلال طرق التجارة وحركات السكان الانتشار السريع لمسببات الأمراض، وغالبًا ما تبعت الأوبئة فترات من المجاعة والجفاف أضعفت السكان وجعلتهم أكثر عرضة للمرض، وكانت العواقب وخيمة حيث ارتفعت معدلات الوفيات، مما أدى أحيانًا إلى دفن جماعي واستنزاف شديد للقوى البشرية العاملة، فأثر ذلك بدوره على الاقتصاد والحياة الاقتصادية والاجتماعية بشكل كبير، حيث أدى ذلك إلى تعطيل مختلف الأنشطة والحرف الإنتاجية كالزراعة والصناعة والتجارة في الحواضر والأرياف.

عانت المدن في المغرب الإسلامي من الخراب، وتضرّرت القطاعات الاقتصادية بالإضافة إلى الخسائر الفورية في الأرواح، فالطرق التجارية بإفريقية صارت أكثر ضررا من الجبال المنعزلة والواحات الصحراوية فهذا الوباء جرف المناطق ذات النشاط التجاري الفاعل والكثافة السكانية الكبيرة[1].

أدت الأوبئة أيضًا إلى اضطرابات اجتماعية، بما في ذلك هجرات السكان من المناطق المتضررة إلى المناطق الأقل تضررًا، ومن الأمثلة الدالة على ظاهرة الهجرة رحيل السلطان الحفصي عمرو عثمان الذي لم يطمئن على نفسه من هذا الوباء فانتقل الى مدينة توزر[2]، كما عانت الطبقة العامة من آثار هذا الوباء من الناحية الاجتماعية والاقتصادية كهجرة السكان وإخلاء منازلهم والفرار إلى أماكن آمنة[3] وفقدان البادية لساكنتها بفعل الهجرة حتى بقيت أموال الأعراب سائبة لا تجد من يرعاها، وهجرت عدة قبائل من إفريقية إلى

[1]- الشاطر خليفة، تونس عبر التاريخ من العهد العربي الاسلامي إلى حركة الإصلاح ، مطبعة سنباكت، تونس، 2007م، ج2، ص118.

[2]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص147.

[3]- الشاطر خليفة، م س، ص118.

الأندلس ولم ينج منها إلا القليل ومات أكثرهم بالوباء[1] كما نتج عن ذلك تراجع عدد المزارعين وعمال الفلاحة، وقد أشار الوزان إلى ذلك بقوله:"... أضحى عدد الناس ببادية باجة لا يكفي للزراعة حتى أهملت كثيرا من الأراضي وأصبحت بورا "[2]، وسارع حكام تونس إلى إيجاد حلول للوقاية وتجنّب آثار الوباء الناتج عن نقص الهواء، فتمّ عزل المريض ومراقبته ومتابعته، ومراقبة دخول وخروج الموبوئين، وحرق ثياب الموتى الموبوئين والتّعجيل بدفنهم، كما أقاموا شرطا وقائية على الأطّباء وذلك بشمّ الخلّ لتطهير الهواء وقد جاء على لسان الشعراء حول هذا السلوك.

أراكَ تشمّ الخلّ في زَمنِ الوَباءِ ولَكنْ حُكمُ اللهِ في العبدِ نافذٌ

يَمـــوتُ الفتَى حَتْـــما وَفِـــي أنفِـــهِ الخـــلّ[3]

فبلاد إفريقية عيّنة من المغرب الإسلامي التي عانت من هذه الظّاهرة، وما رافقها من وفيات إلى درجة موت الكثير من الخاصّة ومنهم السّلاطين والعلماء من بينهم الفقيه الصّالح أبو علي عمّار المعروفي[4]، وباستمرار الأوبئة والطاعون الجارف إلى غاية عام 749هـ/1248م الذي شهد هلاك الكثير من البشر ومنهم عائلة العلّامة الكبير ابن خلدون حيث هلك فيه كل من أبيه وأمّه وشيوخه، حتى حمله ذلك على هجرة تونس.

كما كان لهذا الطاعون تأثير نفسي كبيرً أيضًا، مما أدّى إلى انتشار الخوف والذّعر والشّعور بالعجز، فعامل الخوف له عواقب وخيمة خاصة من الموت، ويكون سبب ذلك

[1]- المقريزي، السلوك، ج1، ص460/ حسن الوزان، المدينة والبادية، ج3، ص612.

[2]- حسن الوزّان، وصف إفريقيا، ج2، ص67/ حسن، المدينة والبادية، ج3، ص612.

[3]- ابن ميلاد، الطب العربي في تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1980، ص170.

[4]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص81.

هو الحروب والفتن المتكرّرة والأوبئة والأمراض، وأنّ المتصوّر للموت والخائف منه يموت مثلا في كلّ تصويرة موتة فتجتمع عليه من تصوّره له مدّة طويلة موتات كثيرة[1]، وليس بالضرورة أنّ الخوف يمتلك كلّ الأفراد، إذ حاول البعض التغلب على آثاره النفسية فإنَّ العاقل لا يغتمّ البتّة[2] ولا يتأثّر بالخوف بل يوفّر لنفسه ما يطرد عنه هذا الخوف والهمّ والغمّ الذي يؤثّر على صحّة الإنسان، وقد كان ضحية هذا المرض النفسي حتى على بعض أفراد السلطة كالأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين بمراكش بعدما بلغته أخبار أمرضته وأورثته همّا وغمّا أثر في جسمه فالتزم الفراش[3]، ومن الجوانب التي تضرّ بالإنسان الغم الذي سبق ذكره فهو يكدّر النفس والعقل والجسد، ولا علاج له الا بقطع مواد الغموم[4].

أدّت الطّبيعة المتكرّرة لهذه الأوبئة إلى أن المجتمعات عاشت تحت تهديد مستمرّ، ممّا نغَّص حياتهم اليومية، وممارساتهم الدّينية، واستجاباتهم المجتمعيّة للأزمات، فالسجّلات التاريخيّة على الرّغم من افتقارها أحيانًا إلى إحصائيات مفصّلة، تنقل باستمرار صورة للمجتمعات الّتي تكافح أزمات صحية متكررة وغالبًا ما تكون ساحقة.

ثالثاً : جهود العلماء والحكام في التصدي للأوبئة:

لا شك في أنَّ الأمراض بصفة عامة والوبائية منها كالطواعين كانت تُشكِّل هاجسا ليس لعامة الناس باعتبارهم أكثر عرضة لها وبخاصة بعض الفئات كما أشرنا سابقا، ولكن حتى بالنسبة للسلطة من حكام وأمراء وسلاطين، إمَّا بوصفهم مسؤولين عن رعيتهم ويجب حمايتهم، أو لأثر ذلك على جيش الدولة، وعلى الحياة الاقتصادية والاجتماعية بصفة عامة لما يرتبط بها من جباية وخراج، ولم يقِل هذا الهاجس أيضا عمن سبق، وذلك

[1]- أبو بكر الرّازي، م س، ص122.

[2]- نفسه، ص123.

[3]- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص101.

[4]- أبو بكر الرازي، المصدر السابق، ص27.

عند الأطّباء باعتبار مسؤوليتهم أيضا عن الصحة العمومية وعلاقتهم المباشرة بالأمراض والطب، أو بالنسبة لرجال الدين من الفقهاء الذين لا يقل دورهم ومكانتهم في المجتمع عن الحكام والأطباء.

أ- إجراءات الحكام للحد من الأوبئة:

إنَّ من واجب السلطان حماية رعيته من الظلم، وكل ما يهدِّد حياتهم من عدوان خارجي، أو مجاعة أو مرض، باعتبار مهمتهم الشرعية التي هي حفظ الدين وسياسة الدنيا، ولذلك سعى هؤلاء إلى توفير قدر من الحماية لرعيتهم لِما ينطوي عليه ذلك من أهداف سياسية ككسب ولائهم ومحبتهم لسلطانهم، وحفظ صحة الرجال الذين يتشكل منهم الجيش، وقد بذل رجال السلطة مساع حميدة وأشرفوا على ذلك بأنفسهم، أو من خلال أعوانهم ولعلَّ أهم ما قاموا به هو إنشاء البيمارستانات وتزويدها بالأطباء والمشرفين لخدمة المرضى، وقد ذكرنا سابقا بيمارستان مراكش في العهد الموحدي وبيمارستان تونس الحفصية، أمَّا بالنسبة للمغرب الأوسط فقد اشتهرت تلمسان الزيانية ببيمارستانها الذي جمع فيه السلطان أبو حمو موسى الثاني (760-791ه/1359-1389م) الناس في مجاعة سنة 776ه/1374م وأجرى عليهم الأرزاق مدة ستة أشهر[1] كل ذلك حفاظا على أرواح الرعية، وتوفيرا للخدمة الصحية.

كانت إذن مسألة الصحة من القضايا التي أشغلت بال السلطة وبخاصة زمن الموجات المرضية التي كانت تودي بحياة الآلاف من الناس، نفّذ حكام الدّول الّتي قامت في بلاد المغرب الإسلامي أيضًا تدابير مختلفة للحدّ من انتشار وتأثير الأوبئة، استجابة للاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية الشديدة التي تسببت فيها، بينما قد لا تتوافق إجراءاتهم دائمًا مع

[1]- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق بوزياني الدراجي، دار الأمل، الجزائر، 2007م، ج2، ص576.

استراتيجيات الصحة العامة، إلا أنها عكست وعيًا بالحاجة إلى التدخل الحكومي خلالا الأزمات ولو بالحد الذي يُشعر الساكنة بنوع من الاهتمام من قِبل السلطة.

تشير الروايات التاريخية إلى أنه خلال الأوبئة الشديدة كانت السلطات تراقب الوضع وتقوم أحيانًا بتدابير للتحكم في الحركة أو إدارة الموتى، على سبيل المثال خلال الطاعون في مراكش عام 571هـ/1175م نُصح الناس بحمل بطاقات تعريف، مما يشير إلى شكل من أشكال إدارة الصحة العامة المتعلقة بالوفيات وربما التحكم في الحركة.

وعلى الرغم من أن تدابير الحجر الصحي واسعة النطاق والصريحة بالمعنى الحديث ليست موثقة بوضوح دائمًا، إلا أن مفهوم العزل والحد من الاتصال كان مفهومًا ضمنيًا، وقد امتد دور الدولة ليشمل دعم المؤسسات الطبية مثل البيمارستانات، التي كانت ضرورية لتوفير الرعاية وإدارة المرضى، وعلاوة على ذلك كثيرا ما شجع الحكام الاستجابات الدينية، مثل الصلوات العامة والتوبة، مما يعكس تداخل السلطة الدينية والزمنية في معالجة الكوارث. وغالبًا ما أجبر تأثير الأوبئة على الاستقرار الديموغرافي والاقتصادي للدولة، الحكام على اتخاذ إجراءات حتى لو كانت محدودة أحيانًا بسبب الفهم العلمي السائد والقدرة الإدارية.

ب- إجراءات الأطباء في التصدي للوباء:

إذا كان الحكام يُمثّلون السلطة على الرعية ومن واجبهم حماية رعيتهم، فإنَّ للأطباء مسؤولية مباشرة في حماية المرضى وتوفير العلاج، ولا شكَّ أنهم بذلوا جهودا كبيرة وبخاصة زمن الأوبئة والطواعين والجوائح، ولعلَّ أول خدمة قدَّمها هؤلاء هي متابعة المرض من حيث سببه، وأثره ومن ثم البحث عن علاج له، وقد كانت نتائج تلك البحوث أساس التأليف الطبي، وبذلك انتشر الطب بفضل تلك المؤلفات التي أصبحت تُدرَّس،

وبذلك اكتسب الناس قدرا من العلوم الطبيَّة التي يُمكن أن تكون نوعا من الوقاية للإنسان من الأمراض.

انخرط ممارسو الطب في بلاد المغرب الإسلامي - على الرغم من محدودية فهمهم العلمي مقارنة بالطب الحديث - في نشاط حثيث في مكافحة الأوبئة، وكانت جهودهم في شكل مزيج من الملاحظة التجريبية، والمعرفة الطبية الموروثة من التقاليد اليونانية والهندية، أو التقليدية الإسلامية ونهج عملي للعلاج، وقد سعى الأطباء بجد لفهم طبيعة الأمراض وعلاجاتها، بينما ظلت بعض الأمراض المستعصية غامضة.

قدمت العلاجات الطبية من تلك الفترة والمذكورة في المصادر التي تم دراستها، إرشادات حول الأمراض المختلفة وطرق علاجها والوقاية منها، وشمل العلاج التداوي بالمواد الطبيعية وفي مقدمتها الأدوية العشبية، وأشكال أخرى من التدخل الجسدي، كما شملت أيضا الجنسين، والفئات العمرية المختلفة.

كان إنشاء البيمارستانات خاصة خلال القرن الثامن الهجري، بمثابة مراكز حاسمة للرعاية الطبية والبحث وتدريب الأطباء، ولم تكن هذه المؤسسات مجرد أماكن لاستقبال وعلاج المرضى فقط، بل قامت أيضًا بدور في الحركة الطبية الأوسع التي تهدف إلى فهم الأمراض ومكافحتها، وتقديم رسائل شاملة حول النظافة، والتي اعتبروها شكلاً متفوقًا من الطب للوقاية من الأمراض، يوضح هذا النهج الاستباقي الوقائي الذي تم استخلاصه من الموت المتكرر الناجم عن الأوبئة، جهدًا منسقًا من قبل المجتمع الطبي للتخفيف من تأثير هذه الآفات.

* **العلاج:** اجتهد الأطباء في البحث عن أسباب الأمراض ومن ثم مداواتها، فكانوا يكشفون عن العلل لدى المرضى بأجر أو بغير أجر، ثم يصفون الدواء، وكان بعضهم لا

يقبض أجره إلا بعد شفاء مريضه، وهو دليل على النزاهة، ويتم علاج المريض عادة من خلال ثلاث إجراءات أساسية هي: التدبير – الحِمية – والتغذية، استعمال الأدوية، إعمال اليد أي العمليات الجراحية.

* **الطب الوقائي:** لجأ الأطباء أحيانا إلى إجراءات وقائية لاستباق حدوث المرض، أو الحد من انتشاره ولا سيما في حالة الأمراض المعدية والطواعين، فكانوا ينصحون بالتحرُّز منها، ومن تلك الإجراءات نجد الحجر، وهو عدم مخالطة المرضى، وتقليل الغذاء، وترك الرياضة، والمكث في الحمام، وملازمة السكون والدعة[1]، وتجنب تناول بعض الأغذية المعيَّنة كاللحوم بأنواعها، كما نصحوا أهل المدن بتهوية مكان الإقامة، ورش الجدران بالخل[2].

رابعا: موقف العلماء والفتاوى الشرعية المتعلقة بالوباء والحجر الصحي:

أ- جهود الفقهاء

إنَّ حرص الإسلام على سلامة الفرد وبخاصة المسلم من الضرورات الشرعية، ومنها الصحة ولذلك فإنَّ دور الفقهاء والعلماء جاء مكمِّلا لدور الأطباء، وذلك من خلال شرح بعض الأحاديث الصحيحة الواردة في التعامل مع الأوبئة والأمراض، وكل ما يحفظ الصحة عموما، والحث على العمل والالتزام بها وبخاصة في أمر الوقاية، ومنها حديث: (لاَ يُورِدُ الْمُمْرِضُ عَلَى الْمُصِحِّ)[3] ويُذكَر في هذا السياق أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم منع دخول رجل مجذوم كان في وفد ثقيف فأرسل إليه قائلا:(ارْجِع فَقَدْ بَايَعْنَاكَ)[4]، فهذه

[1]- ابن حجر: بذل الماعون في فضل الطاعون، ص211.

[2]- ابن زهر: التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق ميشال الخوري، ط1، 1983م، ص421.

[3]- ابن ماجة، سنن ابن ماجة، كتاب الطب، حديث رقم 3565، ج3، ص389.

[4]- ابن ماجة: م س، حديث رقم 3568، ج3، ص390.

الأحاديث وغيرها الواردة في باب الطب تؤكد عدم تعارض الدين مع علم الطب إذ يحرص الإسلام على الصحة البدنية والنفسية للمسلم.

إضافة إلى التداوي بالرقية الشرعية من بعض الأمراض، ومن الإصابة بالسحر والجن، ولدغ الحيَّات التي وردت فيها أيضا أحاديث صحيحة، نصح الفقهاء الناس بالتضرُّع والدعاء لله سبحانه وتعالى زمن الأوبئة والطواعين، وممَّا أُثر من الأدعية التي قيلت في طاعون سنة 749ه/1348م السابق:" اللَّهُمَّ سَكِّن فتنة قهرمان الجبروت بألطافك النازلة من باب الملكوت، حتى نتشبث بأذيال قدرتك ونعتصم بك، يا ذا القدرة الكاملة والرحمة الشاملة، يا ذا الجلال والإكرام "[1] وغيرها من صيَغ الأدعية التي تحثُّ على الصبر والتسليم بقضاء الله وقدره مع الإلزام بطرق الوقاية والعلاج.

لقد كان لتدخُّل كل من الأطباء والفقهاء إلى جانب السلطة الحاكمة المُمثَّلة في الخلفاء والأمراء والسلاطين وقت المِحن والشدَّة ومنها الأوبئة والأمراض دور كبير في مواساة المرضى والتخفيف من مصابهم، والتي نبَّهت من جهة أخرى إلى ضرورة الاهتمام بالطب، والأخذ بأسباب العلاج، فظهرت البيمارستانات في كبرى المدن، وانتشرت الصيدليات وصناعة الأدوية التي لا شكَّ أنها ساهمت في العلاج والقضاء على الأمراض.

خامسا: وسائل الوقاية وأساليب العلاج

أ- العلاج بالأعشاب، والطب التقليدي:

تم في بلاد المغرب الإسلامي استخدام طرق وقاية وعلاج متعددة، والتي غالبًا ما استُمِدت من تقليد غني بالطب العشبي والممارسات التقليدية، واستخدم الأطباء والمعالجون مجموعة واسعة من الأعشاب المحلية والمستوردة، والتوابل، والمواد الطبيعية لإعداد

[1]- ابن الخطيب السلماني: مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص56.

العلاجات لمختلف الأمراض، وشمل ذلك استخدام نباتات معيّنة معروفة بخصائصها الطبية غالبًا بناءً على المعرفة التجريبية المتوارثة عبر الأجيال والموثقة في النصوص الطبية، فعلى سبيل المثال يشير تحليل المصادر إلى أن العلاج الطبيعي والطب العشبي كانا شكلين شائعين للعلاج طيلة الفترة الوسيطة ومنها فترات كل من دول الحماديين والمرابطية ثم الموحدين، وقد ذكر بعض الجغرافيين كالإدريسي ما يزخر به جبل مسيون ببجاية من نباتات طبية، فقال:" وفي أكنافه جُمَلٌ من النبات المُنتفَع به في صناعة الطب مثل شجر الحضض، والسقولوفندوريون، والباربارس، والقنطوريون الكبير، والرزاوند والقسطون والإفسنتين، وغير ذلك من الحشائش "[1] التي لا شك أنه كان للناس بها معرفة فاستعملوها في الطب.

بالإضافة إلى العلاج بالأعشاب شمل الطب التقليدي ضروبا أخرى كثيرة مثل الحجامة التي وردت فيها أحاديث صحيحة، والكي الذي لم يلق اجماعا من الفقهاء فمنهم من أباح ذلك والبعض حرّمه وآخرون وضعون في مقام المكروه وقد قال النووي" وما أحب أن اكتوى " في إشارة الى جعل الكي آخر حل في مداواة الداء حيث يشتد الألم والسعي إلى دفعه وقد يكون أضعف من ألم الكي[2]، ولذلك قيل في المثل العربي:" آخر الدواء الكي".

ضائقة المرض تكون قد أجازت وسيلة الكي عند غالبية الفقهاء والشيوخ وأطباء الطب التقليدي، وقد أفتى ابن القيّم الجوزية رحمه الله بجواز الكيّ من خلال أربع أنواع حسب الأحاديث أولهما فعله، والثاني عدم محبته له، والثالث الثناء على من تركه، والرابع النهي عنه، ولا تعارض بينهما بحمد الله تعالى، أي بين أحاديث الجواز، وأحاديث المنع، فإن فعله يدلّ على جوازه وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأمّا الثناء على من تركه

[1]- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2010م، مج1، ص259.

[2]- الكندهالوي، أوجز المسالك إلى موطأ مالك، تحقيق أيمن صالح شعبان، بيروت، دار الكتب العلمية، د، ط، د. ت، ص450.

فيدل على تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة... بل يفعل خوفا من حدوث الداء[1]، وكان لهذا الأسلوب من العلاج حكم وفصل لدى الفقهاء، ومنها النازلة التي ورد فيها أنَّ رجلا اشترى أمة، فاطلع بعد موتها على أن كيًّ بها عندما ابتاع رجل أمة وتبرأ إليه بائعها بمجموعة من الأمراض فيها، ولما لبثت خمسة أشهر وماتت، وبعد تغسيلها ثبت الكي الفاحش في جسدها، ولم يذكر في العيوب المذكورة عند البائع، فأجاب القاضي وبحضور الثقات ثبت أن الكي كان فيها قبيل البيع فعليه أن يرجع له بما نقص من ثمنها[2].

فالحديث عن اللجوء إلى الكي في هذا السياق هو التذكير بأنه كان وسيلة من وسائل العلاج التقليدي لدى السكان في حالة عدم نجاعة الطب، وإنْ كان ذلك غير محبّب لصعوبة ممارسته في مداواة المرضى، ولم يكتف الطب التقليدي بهذا، فقد كان السحر أيضا أحد معتقدات المجتمع العلاجية الذي يرى فيه مخرجا لمداواة مرضاه حين عجز الطبيب عن تشخيص المرض أو عدم شفاء المريض، عندها سارع السكان إلى علاج مواز هو السحر، واستخدام الأعشاب، وقد انتشرت ظاهرة حمل التمائم الوقائية بافريقية ولقيت إقبالا وقبولا شعبيا رهيبا، وكان الناس يستنكرون حمل التعاويذ والطلاسم السحرية لِمَا ورد فيها من أحاديث النهي، وكان الاعتقاد في نجاعته أدى الى تدخّل القضاة من حين إلى آخر لردع الظاهرة[3].

---

[1]- ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت، ج3، ص114.

[2]- ابن عذاري، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب ، اشراف محمد حاجي ،الرباط ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1403ه، ج6، صص247-246.

[3]- صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع، دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات على الجسد، بيروت، دار محمد علي للنشر، ط1، 2008م، ص298.

ومن الدراسات النفسية التحليلية يرجعون في بعض الأحيان نجاعة ونجاح بعض أنواع الأدوية أو الطلاسم لفعله النفسي أكثر من فعله الكيماوي أو الطبيعي [1] حينها استطاع علم النفس مامدى استعداد الانسان نفسيا لقبول هذا النوع من العلاج الذي لعه علاقة بالجانب الروحي وغير متعب للجسد وذلك عملا بمبدأ الضرورة تبيح المحظور.

فالايمان بالخوارق والأمور فوق الطبيعية لم تكن مستفحلة بدرجة عالية في الدولة المرابطية عكس ماكان سائدا في العهد الموحدي [2]والتوصيات كموازنة الأخلاط في الجسم، وهو مفهوم أساسي في الطب اليوناني القديم والإسلامي بينما قد تبدو بعض هذه الممارسات بدائية بالمعايير الحديثة، إلا أنها شكلت العمود الفقري للرعاية الصحية لغالبية السكان، وكانت غالبًا خط الدفاع الأول ضد المرض كما يوضع الشفاء الروحي، مثل الرقية والدعاء، جنبًا إلى جنب مع العلاجات الجسدية، باعتباره النهج الشمولي للصحة السائد في المجتمع، حيث كان يُنظر إلى الرفاهية الجسدية والروحية على أنها مترابطة.

ب- العزل الصحي والحجر أسلوب للوقاية:

كان مفهوم العزل والحجر الصحي على الرغم من أنه لم يكن رسميًا دائمًا بالبروتوكولات الصارمة للصحة العامة كما هو في العصر الحديث، مفهومًا وممارسًا في بلاد المغرب الإسلامي كوسيلة لمنع انتشار الأمراض المعدية قدمت الروايات التاريخية والنصوص الدينية إرشادات حول الحد من الاتصال بالمرضى دعمت تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم، مثل الحديث الذي ينصح بعدم دخول أو مغادرة أرض موبوءة بالطاعون، ضمنيًا فكرة تقييد الحركة لاحتواء الأوبئة بينما قد لا يكون مصطلح الحجر الصحي قد استخدم بمعناه

[1]- قارنر كورل، طبائع الناس وطرق التعامل معها تطبيق علم النفس في مكان العمل وفي الأسرة، ترجمة عمار فسيس، دمشق، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، 2014م، ص186.

[2]- حسن علي حسن، الحضارة الاسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين، القاهرة،، مكتبة الخانجي، ط1، ،1980م، ص480.

الحديث، كانت ممارسة عزل المرضى والحد من التفاعل مع المناطق المتأثرة استجابة عملية للأوبئة على سبيل المثال، خلال الطاعون الشديد في مراكش عام 571هـ، تشير النصيحة للناس بحمل بطاقات تعريف عندم مغادرة منازلهم إلى شكل بدائي من إدارة الصحة العامة المتعلقة بالوفيات وربما التحكم في الحركة. بينما قد يكون من الصعب تنفيذ الحجر الصحي واسع النطاق والقسري باستمرار عبر مناطق شاسعة، كان مبدأ تقليل التعرض للمرض استراتيجية معترف بها، غالبًا ما تم دمج ذلك مع قبول قدري للمشيئة الإلهية، حيث يتخذ الأفراد الاحتياطات بينما يخضعون أيضًا لقضاء الله.

فكانت الدولة الموحدية نموذجا في اتخاذ هذه التدابير للوقاية من خطر الأمراض والأوبئة التي فتكت بغالبية السكان وذلك باستخدام نظام العزل الصحي، وقتها كان المريض الموبوء يعزل عن الأصحاء ويوضع خارج المجتمع السكاني وتحديدا خارج المدن يعيش فيه الجذمى، وعرفت بحارة الجذمى[1]، وقد لجأ إليه تلميذ أبي يعزى أبو عصفور يعلى وين يوفن (ت583ه/1187م) حينما أصيب بمرض معد[2].

كان المجذوم محل متابعة ومراقبة من الدولة حيث يتحمّل مسؤوليته، فهو مسؤول عن تعقّب أي شخص يصاب بالوباء ومسؤول عن إقامته بمجتمعه خاصة في مدينة فاس، وعندما يتوفى المجذوم فإن نصف ماله يذهب إلى رفاقه والنصف الآخر إلى من تولى رعايته والاهتمام به[3] وعرفت الأرباض التي كان يسكنها المجذومون بنظام يساير حياتهم، ففي أرباض فاس يحتوي على مائتي دار تقريبا، ولهم رئيسهم الذي يجمع داخل الأملاك

[1]- المركز الديمقراطي العربي الدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، برلين، كتاب وقائع المؤتمر الدولي العلمي" **الطب والخدمات الصحية بالعالم الاسلامي عبر العصور**، ج1، 2003م، ص293.

[2]- المرجع نفسه، ص293.

[3]- المرجع نفسه، ص294.

العديدة الموقوفة عليهم لوجه الله من طرف الأعيان وغيرهم من المحسنين، ويقدم إلى هؤلاء المرضى كل ما هو ضروري لهم حيث لا يحتاجون إلى أي شيء[1].

ومن الصّيغ والطّرق الجديدة الّتي ابتكرها الموحّدون في مجال الطّب حين وقوع الوباء هو إجبار المريض أن يحمل معه كتيّب يكتب فيه اسمه ونسبه ومسكنه ويضعها في جيبه، يحمله معه إلى حيث ذهب، فإن توفي حمل إلى مسكنه، وتمّ تنفيذ هذه الإجراءات سنة 571ه/1175م حين أصيب سكان مراكش بطاعون خطير[2]، وبذلك يبقى المجذوم تحت وصاية الرقابة الطبية حتى تجنب المجتمع تبعات احتكاكه بالأفراد الآخرين.

وقد استحدث لهذا الغرض منصبا جديدا للطبيب اسمه " مزوار الأطباء " يعيّن من طرف الخليفة، ومن الإجراءات التي عمل بها أهل الجريد لعلاج مرضى الجذام يقول صاحب الاستبصار:" ولا يجذم أحد ببلاد الجريد وإن دخلها مجذوم توقّفت عنه علته " ويقول أهل هذه البلاد أن المرء إذا أكل أخضرا وهو الذي يسمى البهر يفعل ذلك وأنه من بدت به علة جذام فأكثر من أكل البهر وطبخه وشرب ماءه برأ بإذن الله[3]، ويتبين من خلال معالجة هذا المرض أنَّ أساليبه تختلف من منطقة إلى أخرى داخل بلاد المغرب الإسلامي.

ج- دور المؤسسات: البيمارستانات والزوايا:

قامت المؤسسات الصحية بدورٍ حاسم في علاج الأمراض والوقاية منها في بلاد المغرب الإسلامي، فكانت البيمارستانات، أوالمستشفيات، مراكز للرعاية الطبية المنظمة التي ازدهرت في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي بما في ذلك بلاد المغرب، ولا سيما في العهد

[1]- المرجع نفسه، ص294.

[2]- المرجع نفسه، ص295.

[3]- المركز العربي الديمقراطي، ص294.

الموحدي، فهي ذات وظائف متعددة، كعلاج المرضى، وإجراء الدراسات والبحوث الطبية، وتدريب الأطباء، والتي ساهمت كلها في ازدهار الطب، كما وفرت بيئة منظمة لرعاية المرضى حيث اشتملت على أقسام متخصصة لمختلف الأمراض، ويؤكد تطوير التخطيط العمراني الجديد في أماكن مثل تونس خلال الفترة الحفصية، والذي شمل المستشفيات، على أهميتها في البنية التحتية للعمران والصحة العامة، فأصبحت إضافة إلى كونها مؤسسات صحية، تخطيطا عمرانيا مميّزا أضفى على المدينة طابعا حضاريا.

وما تعلق بسرير المريض داخل هذه المؤسسة الصحية كان يتناول الدواء من البيمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه في منزله، وعلاج داخلي بموجبه يقيم المريض في أثنائه في البيمارستان وفي القسم الخاص والقاعة الخاصة بمرضه حتى يشفى تماما، ففي الطريقة الأولى كان الطبيب يجلس على دكّة ويكتب لمن يرد عليه من المرضى للعلاج أوراقا يعتمدون عليها ويأخذون بها من البيمارستان الأشربة والأدوية التي يصفها الطبيب[1]، ومن خلال ذلك يبدو أنَّ الطبيب كان ملتزما ومرتبطا ببروتوكول صح صارح حفاظا على استقرار صحة المريض وتعافيه، وهي إجراءات تدل على مدى الرعاية الصحية التي خصتها السلطة للرعية.

أما العلاج الداخلي للبيمارستان فكان المرضى الوافدون عليها يوزعون على القاعات بحسب أمراضهم، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان طبيب أو اثنان أو ثلاثة أطباء[2] بحسب الساعة وكثرة المرضى، وإذا دعا الحال يدعى الطبيب من قسم غير القسم الذي فيه

[1]- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق،ج2، ص230.

[2]- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج2، ص243.

المريض للاستشارة[1]، وبذلك يكون الطبيب في هذه الحالة مؤهلا ويتمتع بتكوين راق في المحال الطبي.

وكان الأطباء يشتغلون في البيمارستان بالنّوبة، فجبريل بن بختيشوع كانت نوبته في الأسبوع يومين وليلتين[2] وهو ما يشبح حاليا نظام المناوبة أو المداومة.

د- دور الزوايا الصوفية في العلاج:

إضافة إلى المؤسسات الطبية الرسمية، لعبت الزوايا الصوفية أيضًا دورًا مهمًا، وإن كان مختلفًا، غالبًا ما كانت هذه المراكز الروحية بمثابة أماكن للجوء وطلب الشفاء، خاصة لأولئك الذين يبحثون عن علاجات روحية أو تقليدية، وكان يُنظر إلى الشخصيات الصوفية أحيانًا على أنها تتمتع بقوى شفاء، وكان الناس يتوافدون على الزوايا خلال الأوبئة لطلب العزاء والصلوات والعلاجات التقليدية، بينما كان نهجهم روحيًا وتقليديًا في المقام الأول، فقد قدموا نظام دعم اجتماعي ونفسي حيوي خلال أوقات الأزمات، يعكس الجمع بين المؤسسات الطبية الرسمية مثل البيمارستانات والمراكز الروحية غير الرسمية مثل الزوايا النهج متعدد الأوجه للصحة والشفاء في بلاد المغرب الإسلامي حيث تلاقى الفهم العلمي والممارسات التقليدية للطب والمعتقدات الدينية لمعالجة التحديات التي تفرضها الأمراض والأوبئة.

لقد شكّلت الأمراض والأوبئة هاجسا لدى المجتمع المغاربي في العصر الوسيط، ولم يجدوا وسيلة للتّخفيف منها إلا عن طريق حضرة المتصوّفة والمريدين عبر الزوايا، والسّبل

[1]- نفسه، ج2، ص179.

[2]- ابن القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005م، ص148.

الّتي يغلب عليها الطّابع الغيبي[1]، وقد عرف عن الشيوخ المتصوّفة بمساعداتهم لفئة العامّة بما يستطيعون خاصة في الجانب الصحي، ويذكر ابن قنفد بعض المتصوفة بقوله:" رأيت منهم بفاس وهو حيٌّ، إلا بها ولي الله الفقيه الزاهد الورع أبا عبد الله محمد الجنّاتي[2]... فكان يبادر إلى خدمة الغريب المريض، ويسعى في أمره، ومن طرق المداواة عند المتصوفة الصدقات والدعاء والرقية ومن نماذج ذلك ما اشتهر به الشيخ أبو العباس السبتي[3] الذي كان يعالج الأمراض وحل المشاكل بالصدقة، فكلّ مريض استنجد به بالصدقة ثم يشفى من مرضه، واتخذوا من اللّمس والمسح والرّقي طريقة لمداواة المرضى، وكان يعالج الأمراض وحل المشاكل بالصدقة، فكلّ مريض استنجد به بالصدقة ثم يشفى من مرضه[4].

اتخذ المتصوفة من اللّمس والمسح والرّيق طريقة لمداواة وعلاج المرضى[5]، وهي معتقدات آمن بها العامة واعتقدوها في هؤلاء، ظنا منهم بإجراء الشفاء على أيديهم ككرامات رزقهم بها الله سبحانه وتعالى خاصة أنَّ الكرامات من الأمور الثابتة في الدين التي يتحدّث ابن قنفد القسنطيني عن الولي الصّالح أبي الحسن علي بن أيّوب[6] الذي كان

---

[1]- ابن الزيات التدلي، المصدر السابق، صص215-214.

[2]- عبد الله محمد الجناتي: من فاس الفقيه الزاهد الورع من أهل العلم والصلاح والزهد، وكان الصلاّح يطعمونه، والفقهاء يبرونه والعامة ترمقه وتشير إليه. ينظر ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات الجامعة للبحث العلمي، الرباط، كلية الآداب، 1965م، ص76.

[3]- أبو العباس السبتي: هو أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسبتي، ولد بسبتة عام 524هـ/1130م، نزل مراكش وبها مات عام 601هـ/1205م. ينظر ابن الزيات التادلي، المصدر السابق، ص452.

[4]- صديقي محمد، الأمراض والخدمات الصحية في بلاد المغرب الاسلامي ما بين القرنين 5-7هـ/11-13م، أطروحة دكتوراه، 2020-2021م، ص118، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي.

[5]- ابن الزيات التدلي، المصدر السابق، ص296.

[6]- أبو الحسن علي بن أيوب: من مدينة سلا وهو الخطيب الصالح والولي الشهير المعلم لكتّاب الله، ينظر: ابن قنفد القسنطيني، المصدر السابق، ص83.

يستقبل ضيوفه من المرضى والمصابين رجاء للشفاء، وقد ساهمت علاجاتهم للمرضى في بروز مكانتهم الاجتماعية والدينية.

كان للرقية أسلوبا واسع الاستعمال عند صوفية المغرب الاسلامي، فنجد البعض يستعين بها عند حدوث الأمراض الوبائية والمزمنة[1]، ومن أخبار الصّالحين في المداواة ما ذكر عن الشيخ الصالح أبي تميم عبد الرحمن الهزميري[2]، قال:" أعجب ما رأيت من أخبار الصالحين أني مشيت بأختي حين ظهر البرص بها في الوجه إلى مدينة فاس ليعالجها الأطّباء... فلم ينفع الدّواء فقصدت زيارة أبي تميم، وحين دخلت عليه قال لي ما سويت عندك شيئا حتى تركتني وذهبت إلى الأطباء... فجاءته أختي وسلمت عليه وجعل يحدثنا ويمسح بريقه البرص المرة بعد المرة فغلبني النوم وأنا جالس فلما انتبهت وجدته مستندا يذكر ونظرت إلى وجه أختي فإذا هو قد ذهب البرص منه[3]، وقد أدرك سكان بلاد المغرب أن المداواة عند المتصوفة بلغت درجة الثقة والاقناع لما حققته من شفاء عن طريق الكرامة التي شوّهت الطب الدنيوي فصوّرته عاجزا وأن كثيرا من المرضى بعد أن يئسوا من الاستشفاء عند الأطباء اتجهوا إلى الأولياء فبرئوا من أمراضهم المزمنة بدون أي مقابل ماعدا الفتوح[4].

---

[1]- بختة خليلي، الفقر بالمغرب الاسلامي ما بين القرنين 7هـ-9هـ/13-14م واقعه وآثاره، أطروحة دكتوراه، جامعة اسطمبولي، معسكر، 2015-2016م، ص278.

[2]- أبو تميم عبد الرحمن الهزميري: من أصحاب مدين شعيب كان حافظا للمسائل وقبره قريب من مكناسة ويقال له في التشوّف أبوتميم عبد الواحد الأسود تلميذ أبي يعزى ،بنى مسجدا في مكناسة ولما مات دفن في رحبه. ينظر، ابن قنفد القسنطيني، المصدر سابق، ص267، ابن الزيات التدلي، المصدر نفسه، ص31.

[3]- ابن الزيات التدلي، المصدر السابق، ص31.

[4]- إبراهيم القادري بوتشيش، الخطاب الاجتماعي في الكرامة الصوفية بالمغرب خلال عصر المرابطين والموحدين ،مساهمة ،مساهمة في دراسة الفكر الاجتماعي للبلدان المتوسطية، مكناس، كلية الآداب، صص114-112.

اضطر المصابون والمبطونون والمجذومون إلى البحث عن طرق جديدة للمداواة فاتخذوا من القبور ملجأ للتبرّك ويستشفون بتراب الأولياء حيث ذهب الناس إلى قبري أبي محمد مع الله ابن يحي بن يجاتن الزنات[1]، فعموما عملية التطبيب عند المتصوّفة والأولياء باستخدام طرق متعددة كالدعاء والريق واللمس التي كانت في الغالب محل إعجاب وذهول وإقبال عند العامة، وذلك نظير ما حقّقه هؤلاء من نجاحات وتوفيق في معالجة أمراض مستعصية ومنه نستشف أن ارتياح المريض للطب الصوفي مردّه إلى العامل النفسي، فالأمراض التي استعصت على الأطباء ونجح في علاجها المتصوّفة يمكن أن تكون إما لمعرفة أنواع الأعشاب والعقاقير أو لبركة الدّعاء والكرامة من طرف المتصوفة.

هـ- دور الأغذية الصحية في الوقاية من الأمراض والأوبئة:

ساهمت أغذية كثيرة في علاج ووقاية الأفراد من الأمراض والأوبئة منها الأمراض المعدية أن يأكل أنواعا من الخضر والفواكه واللحوم، والباذنجان والزنجبيل والخوخ والسفرجل والعنب وقصب السكر والبيض المسلوق التي تحافظ كلها على سلامة المعدة[2].

وإذا كانت المعدة مصابة بالثليل فيصلح لعلاجها من الأشربة شراب عود السوس والمصطكي والبسباس والنرجس ودهن السمسم ودهن النشا[3]، وبالتالي فالشراب يساهم في

---

[1]- أبو محمد مع الله بن يحي بن يجاتن الزناتي من أهل العلم والعمل توفي عام 536ه/1142م يشفي الناس بقبره وكان صاحب كرامات. ينظر، ابن الزيات التدلي، المصدر السابق، صص133-132.

[2]- زرهوني نور الدين، الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن السادس هجري، الثاني عشر ميلادي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2006م، ص131.

[3]- النشا: هو دقيق الحنطة ويتم الحصول عليه بعد أن تنقع في الماء وتغسل ويراق ماؤها ثم يعاد لها ماء آخر وتكرّر العملية خمس مرّات في النهار والليل وبعد أن تلين تعرك في مائها وما يطفو منها من نخالة تصفّى وتترك في الشمس الحارّة. ينظر، ابن البيطار، ج4، ص78.

علاج بعض الأمراض ويعتبر وصفة طبية مرافقة لبعض الوجبات الغذائية لما لها من مفعول يسهل عملية الهضم وإراحة المعدة التي هي بيت الداء.

يفهم من هذا دور النظام الغذائي في العلاج حيث يكون لكل مرض غذاء معيَّن يساهم في أسباب الشفاء، ولذلك يوصف الأطباء غالبا لمرضاهم نمطا غذائيا يتناسب مع مرضهم، ومن الأطباء الذين اعتنوا بالغذاء كوصفة ناجحة للعلاج، نذكر كتاب المختار من الأغذية للطبيب ابن النفيس، ومن الأغذية الصحية النافعة، أغذية حمى الربع[1] التي تتكون من الخبز المستصفي من النخالة، المعتدل الخمير والملح والنضج والمتخذ من حنطة معتدلة بين الرزانة والرخوة واللحم الغثي[2] من الضأن المعمول باللوز الساذج المعروف بالاسفيذاج الكثير التوابل والفراريج الاناث والدراج[3] والزرازير[4].

1- أغذية أصحاب السعال والمسلولين[5] وأصحاب الربو وأصحاب النفس:

هذه الأغذية تنقسم الى قسمين، أغذية باردة للسعال الحار وأغذية حارة للسعال البارد[1].

---

[1]- حمى الربع: QUARTON MALARIA حمى الملاريا التي تأخذ يوما وتهدأ يومين ثم تعود في اليوم الرابع يسبّبها البلازموديوم ملاري. معجم المصطلحات العلمية ص185 والمصاب بها يقال له مربوع وأصل تسمية الربع من ورود الإبل الماء إذا وردته يوما وتدعه يومين ثم ترده اليوم الرابع. ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص1109.

[2]- الغث: الرديء من كل شيء، واللحم الغثي المهزول. ابن منظور، المصدر نفسه، ج2، ص958.

[3]- الدراج: BLACK PARTRIDGE FRANCOLIN طائر كثير النتاج من طير العراق جعله الجاحظ من أقسام الحمام قائلا أن العرب تسمي الحمام والقمري واليمام والقواخت والدبسي والشفانين والوراشين كلها حمام فجمعوها بالاسم العام وفرّقوها بالاسم الخاص، والدراج أسود الجناحين من الباطن وظاهرهما أغبر، ويقال "درّاج للذكر والأنثى."الجاحظ، كتاب الحيوان، ج1، ص430.-حياة الحيوان، ج1، ص1،303/ معجم الحيوان، ص184. ويضيف القزويني: إذا كان وقت الزلزلة تجتمع الدراريج وتصيح قبل ذلك بساعة ثم تقع الزلزلة. عجائب المخلوقات، ج2، ص258.

[4]- الزرازير: المفرد زرزورstarling stumus vulgaris وهو نوع من العصافير سمي بذلك لزرزرته. الجاحظ، حياة الحيوان، ج5، ص20. جيد الجناح ضعيف الرجلين وجناحه أجود من جناح العصفور. الجاحظ، الحيوان، ج2، ص243. أكبر من البلبل طويل الذنب، أسود اللون مرقّط. معجم الحيوان، ص234.

[5]- ابن النفيس، المختار في الأغذية، ص59.

2- أغذية أصحاب الإسهال:

منها الحارّة، ومنها الباردة، فالأغذية الحارّة لا يغتذي بها أصحاب الإسهال البارد، ويطعم المريض الخبز النّضيج ولا سيما إذا كرّر في الفرن، الكعك، البقسماط، الأطحنة مشوية على الجمر، أكباد الخرفان، المطجنات من اللحم، الطير، القلايا الغبيطية، أكباد البط المشوية، محاح البيض، لا سيما إذا طجّنت في الخلّ والسّمن، والجبن العتيق المشويّ على الجمر، واللّبن المطبوخ على الرّضف[2].

3- أغذية المجذومين والمبروصين: من الأغذية المداوية للمجذوم والمبروص أو تجنّبه ذلك هي كلّ غذاء حارّ ورطب نخبز الحوّارى ولحم الضّأن ومحاح البيض والدرّاج والفراريج وفراخ الحمام وماء الحمّص والهريسة متخذة بلحوم الدّجاج ،والفراريج المطيّبة بالدارسيني والزنجبيل واللفت والهليون والعنب[3].

وهناك أغذية تحمي الكلية من التلف وهي تابعة للكبد لأنها تخدمه إذ تقوم بجذب المائية الموجودة في الدم والحفاظ على صحتها أمر مهم وذلك باتباع حمية خاصة بالأطعمة والأشربة المفيدة لها والابتعاد عن ما يضرّها كأن يجتنب أكل الأطعمة الغليظة وبعض الأشربة مثل الألبان والمياه المختلطة بالتراب لأنها تولّد الحصى في الكلى وشرب الهليون بالزيت بدون خل وماء الحمص خاصة الأسود منه من الأشربة المفيدة لها والمدرّة للبول، وشرب النّبيذ على الرّيق أيضا مصلح لها، أمّا من الأطعمة فأكل البطّيخ بالسكر والقثاء

[1]- ابن النفيس، المصدر السابق، ص59.

[2]- ابن النفيس، المختار من الأغذية، تحقيق يوسف زيدان، ص61.

[3]- ابن النفيس، المصدر السابق، ص66.

والخيار[1]، وفيما يخص المثانة في مكان لتجمّع الفضلات الرطبة وبينها وبين الكلى غشاء يشبه القشرة ينفتح لتجنّب الفضلات الرطبة إلى المثانة ثم ينسد حتى لا ترجع إلى الكلى[2].

ما لمسناه من أزمات و صدمات التي هزت سكان المغرب الإسلامي أن الخسائر عظم حجمها و نسيج المجتمع و الأسرة تفكك بسبب عجز الدولة عن تأمين غذائها وصحتها إلى أن جهود الحكام من ملوك و سلاطين و أطباء رفعوا شعار التحدي، فشُيدت البيمارستانات و المستشفيات و تطوع الأطباء و حُددت مراكز إيواء المرضى و خصتهم ببيانات و بطاقات لتتحكم المؤسسات الصحية في رعايتهم و تخصيص ميزانية للمرضى .

بذالك شهد المغرب الإسلامي في ظل هذه الجوائح تعبئة عامة ، وحفظ الصحة صار واجب فالكل معني بذلك .

[1]- ابن خلصون، كتاب الأغذية، تحقيق وترجمة وتعليق سوزان جيغاندي، دمشق، 1996م ص40.

[2]- ابن رشد الجد، فتاوى ابن رشد، تحقيق وتقديم المختار بن طاهر التليلي، السفر الثاني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص387.

خـاتمـة

يعدّ موضوع النظام الغذائي والصحي في المغرب الإسلامي من المواضيع التي سكتت عنها المصادر التاريخية لفترة من الزمن بسبب هيمنة التاريخ السياسي على المشهد الثقافي عند عناصر النّخبة، إلا أنّ التحوّل الحضاري الّذي عرفته الأمة الاسلامية بجناحيها الغربية والشرقية أفرزت لنا نظاما وعرضا تاريخيا جديدا يعالج الجوانب الاجتماعية والاقتصادية على غرار بلاد المغرب الاسلامي خاصّة زمن الدّراسة من القرن الرّابع الى القرن الثامن الهجري/10-14م.

الغذاء والصحة وجهان لعملة واحدة، وهما عاملان ضروريان لتحقيق رفاهية سكان الغرب الإسلامي وبخاصة المغرب الإسلامي، وهو امتداد حضاري وفكري لبلاد الأندلس التي تعتبر خزانا للطب وذوق الموائد وحسن تدبير الطهي، وإن كانت المصادر التاريخية لم ترق إلى درجة تمحيص واقع الأمة الاجتماعي، بل اكتفت بإيماءات عارضة خالية من التحليل إلا أنَّ هذا الإهمال والتقصير في شأن الحياة الاجتماعية تكفّلت به كتب النوازل والتراجم وكتب الفلاحة التي استفدنا منها، وكذا كتب الطب التي نالت حظوة كبيرة عند بعض المؤرخين وخاصة ذوي الشأن الصحي في ظل انتشار الجوائح والأمراض.

يعدّ المغرب الإسلامي فضاءً جغرافيّا غنيّا بمؤهلاته الطبيعيّة بحكم موقعه الاستراتيجي وامتداده من العروض الحارة الى العروض المعتدلة إلى غاية خط عرض 37° جعل هذا الإقليم في أريحية جغرافية تميّزت بتعدّد أقاليمها المناخية وتنوّع تربتها الّتي ساهمت في تعدّد وتنوّع المحاصيل الزّراعية وهي أساس التحكّم في النّظام الغذائي، وإذا كانت الحضارات قد شيّدت على ضفاف الأنهار والأودية فهذا له أكثر من دلالة، فالمغرب الإسلامي جرت به أودية كثيرة وبه عيون ومواجل وسدود جعلت من ساكنتها أهل غراسة وسقي وجنّات، وقد انعكس هذا على موائد أهل المغرب وارتقى الذّوق والطّهي إلى درجة التفنّن في إعداد الأطباق والموائد والّتي تعدّ سموّا حضاريا يضاهي الأندلس وكلّ حسب درجته

ووزنه، فموائد الملوك والخاصّة نالت من الشّهرة ما لا يقدر ولا يتخيّل، وعند المتصوّفة تميّزت باليسر والبساطة لأنّ أصحابها لازموا الزّهد وكبحوا جماح النّفس رغم امتلاكهم لمصادر الغذاء وكذا الشأن عند المريدين والسجناء والمهمّشون. ومن خلال هذا السّرد للتّركيبة الاجتماعية وما نالته من حصص من الغذاء، إلا أنّ الحرمان قد طال السّواد الأعظم من السكّان نتيجة الكوارث الطبيعية من مجاعات وأوبئة ونقص المؤونة، فقد أصاب الدولة الوهن والعجز وعدم القدرة على سد حاجيات رعاياها، فأفرغت كل مخازنها وأسدت تعليمات برفع وتخفيض الضّرائب على الفلاّحين بغرض توفير القوت، وأعفت الفقراء من دفع ثمن الغذاء، وفي ظلّ هذه الظّروف غير الآمنة، إلا أنّ جمال الحضارة كان ينبعث من أفران سكّان المغرب وحسن آدابهم في تقديم الغذاء الذي يدلّ على تطوّر نظامهم الغذائي الذي تحوّل إلى جزء من الثقافة الشعبية من خلال الزّجل والشّعر، فازدهرت حركة التّأليف رغم ضيق العيش لأن معظم ملوكهم كان لهم الحظ الأوفر في المعرفة مثل أبي حمو موسى الزياني الّذي أحسن ضيافة العلماء والأطّباء وأغدق عليهم الأموال وأجرى لهم العطايا، فالتّاريخ سجال يوم لك ويوم عليك، فالنّعم لا تدوم والقمّة يصعب الاحتفاظ بها وهي سنّة الله في الكون.

المجاعة والأوبئة والأمراض فتكت بالآلاف من الأرواح وحوّلت المجتمع إلى كيان منزوع الإرادة في ظل عجز الدولة على توفير الأمن الغذائي والصحي، وقد تحوّل الحرام إلى حلال وألقيت الجثث في المعابر، واستبيحت الميتة وطغت اللصوصية والعنف ذلك كله بسبب ندرة الغذاء والسعي إلى البقاء. وقد تعد هذه المرحلة من أسوأ ما مرّ عليه تاريخ المغرب الإسلامي خاصة زمن المدة المدروسة حيث غابت سيادة الدولة وانحطاط اقتصادها وقلّت مداخيل الأمّة حينها ظهرت فئة المتصوّفة التي اعتادت على التقشّف والحرمان وسارعت إلى إسعاف الآخرين بما تملك من القوت وخطاب جبر الخواطر، كما

ساهم الفقهاء في إصدار بعض الفتاوى لشدّ أزر السكّان ونشر خصلة التّكافل الاجتماعي من خلال الصّدقات والتّذكير بمساوئ التبذير، وبالموازاة مع هذه المقاربة الاجتماعية الّتي كشفت عن واقع النّظام الغذائي للسكان فقد جرّنا هذا الى الكشف عن الوضع الصّحي لهم، والّذي يعدّ مظهرا من مظاهر الحضارة، ولن يتحقق هذا إلاّ بوجود نظام صحي ومؤسّسات طبّية قائمة على شاكلة البيمارستانات، فالتّعجيل بإنهاء مأساة السّكان من خطر الأوبئة دفعت الدّولة والحكّام بارساء قواعد صحية تلازم الفرد والمجتمع، فانتشرت مراكز التّطبيب في الحواضر مثل تلمسان وفاس وتونس، ففي نهاية القرن الخامس هجري تمّ سنّ قوانين وإجراءات لضبط شروط الطبيب بعد إخضاعه لنظام الحسبة ولا تمنح اجازة ممارسة الطب إلا بموافقة المحتسب والمزوار أحقيته في التّطبيب.

أخذت ثقافة العلاج والوقاية من الأمراض مساحة واسعة من ثقافة السكان وهذا اقتداء بما عرفه الأندلس من رخاء اجتماعي خاصة ما تعلّق بنظام العلاج، وقد أصبح للحمّامات أثر كبير في الوعي الصحي لدى السكّان، وقد ترتّب عن تعايش السكان مع ظروف الأوبئة والأمراض تطوّر درجة الوعي في الثقافة الصحية إلى درجة معرفة الأسباب منها البيئية كفساد الهواء ومنها الروحية كالاعتقاد بالذّنب وغضب الله، وفي ظل حضور الوازع الديني تهافت السكان على الطاعات خشية الموت التي صار الجميع يهابها.

في دراستنا هذه تمّ حصر بعض مخلّفات وآثار هذه الاظطرابات وغياب الأمن الصحي كالهجرة نحو المناطق الآمنة واكتشاف سلامة البادية، وحصر حركات الموبوئين وإلزامهم بقاعدة علاجية محدّدة لحصر الوباء، في الوقت ذاته طغى العلاج الرّوحي المقرون بالدّعاء والرقية تزامنا مع عجز الطب الجسدي في الكثير من المناسبات، وهذا لا ينقص من قيمة الطّب والأطّباء وأنّ الغرض من هذه الملاحظة هو التّذكير بالاعتقاد السّائد في

المغرب الاسلامي وتحت ضغط البيئة الموبوءة وتوفّر الطّب الميسّر بغير تكلفة كبيرة التي تبنّتها الصوفية والفقهاء .

إنّ بحثنا هذا وبالاعتماد على مصادر أخرى ذات محتوى علمي يهدف إلى استحضار نمط علاجي جديد يجمع بين الطّب الرّوحي والجسدي هي الأغذية الصحية الّتي أكسبت العلاج طرحا جديدا كان أكثر توازنا في مجال النظام الصحي.

في ظلّ هذه الثّنائية التي سايرت بحثنا هذا من غذاء وصحة نكون قد ساهمنا في توفير قدر يسير في التعريف بالعلاقة القائمة بين النّظام الغذائي والنّظام الصحي وما عاشه سكان المغرب الإسلامي من تحوّلات اجتماعية تأرجحت بين الاستقرار والرفاهية من جهة والاظطرابات وهاجس الفناء.

الملاحـــــــق

الملحـــق رقم 01:

نصوص خاصة بالمجاعة والأوبئة:

" وفي سنة ست عشرة وستمائة كان المحل العظيم والمجاعة التي شكاها الظاعن والمقيم، وتناهى الحال في مزيد السعر إلى مالا نهاية له، وكان ابتداء الحال فيه في السنتين المتقدمتين لهذه السنة المؤرخة "[1]

الملحـــق رقم 02:

"(... وعظم انتقامهم وغيسهم (الخلط) في الجور فضاقت الأرض بما رحبت على الناس لانقطاع المرافق والمواد، وارتفعت الأسعار وعدمت الأقوات وقل كل مرفق وأعوز وجدات ما ينتفع به الناس من الحطب والتين والفواكه والخضر وما يجلب من البوادي واقشعرت الجلود من هول المكايدة في طلب شيء من أنواع الحنطة وبلغت مبلغاً لا عهد بمثله حتى الربع الواحد من الدقيق للطيف الفاسد إلى ثلاثة دنانير...)[2].

الملحـــق رقم 03 :

نص حول مرض الطـــاعون:

" اعتبرها كارثة حضارية وإنسانية التي خلفها الطاعون على شتى مناحي الحياة ببلاد المغرب الإسلامي.

[1]- ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، صص266-267.

[2]- نفسه، صص318-320.

يقول:" أما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بما طرأ فيه من المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم، وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لعلهم هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً في منتصف هذه المائة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم، وذهب بأهل الجبل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها وجاء إلى الدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ضلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى تلاشي واضمحلال أموالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدلت الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به مثلما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدلت الأحوال جملةً، فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث "[1].

الملحـــق رقم 04 : حصار أغمات وخروج الخليفة الرشيد الموحدي.

" (... وأخذوا في التضييق على أغمات والانتهاء إلى صورها فأقاموا لها محاصرين يومين لم يجد أحد فيها شيئاً يبتاعه، واحتيج إلى طعام برسم زاد الدار الخليفة الرشيد فتطوف خاصته المشرف أبو البركات على الأسواق ثم على أهل الديار، ثم اقتحم بعضه، فلم يجتمع له الأقدار تسعين مداً من قمح... فلا يمكن الاستقرار هناك على الجوع، فاجمعوا أمرهم على الخروج إلى جهة تالمقت... "[2].

[1]- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق خليل شحادة ، دار الفكر العربي، بيروت، 1408هـ/1988م، صص42-43.

[2]- ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص323.

يتحدث عن كيفية خروج الرشيد من حضرته بجميع جنده.

الملحـــــق رقم 05 : مجاعة سبتة واعتداءات عرب رياح

" كان الغلاء المفرط والمجاعة العظيمة بمدينة سبتة... عصمنا الله من مثلها بفضله "

" وكان أشد ضرراً في تلك الجهات (البلاد الغربية) على الناس عرب رياح بالاغتلاس والافتراس ولا سيما بأحواز مكناسة فاس "[1].

الملحــق رقم 06:

نصوص حول الأدوية والطب التقليدي:

قال الجاحظ في رسالته:

" المري هو جوهر الطعام وروح البارد المستطرف والحار المستضعف، يصلح بالليل والنهار ويطيب البارد والحار ويدفع المعدة، ويشهي الطعام ويغسل أوضار الجوف الفاسدة وينشف البلغم ويذهب بحلوق الفم "[2].

الملحـــق رقم 07 : تصنيف ابن النفيس للأغذية اللطيفة للمرضى والأصحاء

يقول ابن النفيس:

" الغذاء اللطيف منه لطيف مطلق كلحم الجدي وأطراف الضأن للأصحاء وأطراف الفراريج للمرضى، ومنه لطيف جداً كالدجاج وأطراف الأجدية للأصحاء وأمراق الفراريج وثخين ماء الشعير للمرضى، واللطيف في الغاية القصوى كالفراريج ومرقة اللحم للأصحاء

[1]- ابن عذاري، المصدر نفسه، ص351.

[2]- المعتمد في الأدوية المفردة، ص492.

والسويف وماء الشعير المتوسط للمرضى، واللطيف في الغاية القصوى كأمراق الدجاج وأطراف الفراريج للأصحاء والجلاب وماء الشعير للمرضى "[1].

الملحق رقم 08:نازلة عن التنازع حول استعمال القنطرة في رفع المياه لسقي الأراضي

هذه المسألة كمسألة القنطرة : النفقة في ذالك على قدر انتفاع كل صاحب ملك بما انتفع به ملكه، فإن كان الضرر بصيب من قرب من ذلك اكثر ممن بعد ، فعليه بقدر ذالك، ينظر فيه أهل المعرفة بتقدير النفع ، والأصلح أن يجتمعوا و يتساعدوا ، ومن أراد الخلاص فيما بينه و بين الله فليزد على نفسه و ينفق أكثر من غيره و هو ميسر على من أراد السلامة .

البرزلي ، جامع مسائل الأحكام،ج4،ص310.

الملحق رقم09:وصفات علاجية من طب الفقراء .

الصفحة أساليب و طرق علاجه المرض

130 استخدام أنبوب قصب و قضيب دفلة طرفه على نار فحم و الطرف الاخر في داخل الأنبوب و يوضع طرف الأنبوب الاخر على الضرس حتى يرتفع الدخان و يضييق فمه فإنه دافع للدود الذي يكون في ضرسه علاج الدود الكائن في الأضراس

[1]- ابن النفيس، المختار من الأغذية، ص71.

138 قال دياسقوريدوس إتفق الناس على أن لحم الفأر إذا شوي و أكله الصبيان جفف اللعاب السائل من أفواههم ، ليس فيه خلاف علاج اللعاب السائل من أفواه الصبيان

156 أن تأخذ من الحبق و التيين و الفيجن ، يصب عليه الماء ثم يغلى و يصفى و يصب عليه العسل ، ويشفى العليل و يشرب على الريق وينفع من عسر النفس و الربو علاج عسر النفس والحمى

يأخذ كمون مقلي و بزر الكرفس من كل واحد مقدار ، يسحق و يشرب بماء أو

حلبة مقلوة ثم يؤخذ من حب الرند واحدة و من الفلفل خمس حبات عدداً و يسخق ويشرب على الريق بماء فاتر. أوجاع المعدة

أبو جعفر بن الجزار ، كتاب طب الفقراء و المساكين ، تح، الراضي الجازي و فاروق عمر العسلي تونس 2009، مطبعة المغرب للنشر .

الملحق 10:

تصنيف التربة عند ابن البصال حسب قاعدة الطبائع الأربعة في كتاب الفلاحة والتقنيات الفلاحية

نوع التربة	طبعها	ما يجود فيها	مميزاتها	الصفحة
اللينة	البرودة والرطوبة	جميع أنواع الثمار والنبات	قابلة لكل ماء موافقة لكل هواء مسامها مفتوحة ولا تحتاج للزبل إلا في الشتاء.	41
الغليظة	الحرارة والرطوبة	يجود فيها أكثر الثمار	تماثل الأرض اللينة وهي أرض مدخنة قوية ودكها على وجهها، تتشقق عند إفراط الحر فيسري فيها حر الهواء فإذا نزل عليها الماء انفلقت على تلك الهواء و تولدت فيها رطوبة، وتحتمل الماء الكثير لحرارتها وهي تتعلك عند نزول المطر.	42
الجبلية	البرودة واليبوسة	يجود فيها من الثمار اللوز والتين والفستق والبلوط والصنوبر	ليس لها مسامن مفتوحة وهي مائلة إلى الحروشة يوافق هذه الأرض الماء الكثير والزبل	43
الرملية	الحرارة مع البرودة	يجود فيها التين، الرمان، التوت، الصنوبر، السفرجل والخوخ، البرقوق، الورد، الكتان.	بردها يتقوى ببرد الهواء ويضعف الحر الذي فيها فلا بد لها من الزبل أما الماء فلا تحتمل، ولا يسري في أعماقها بسرعة إلا الماء القليل وهي أرض مأمونة لا يخشى عليها الاحتراق ولا الآفات.	43
الأرض المدمنة السوداء	الحرارة و اليبوسة مع الملوحة	يجود فيها: الفول، الخرد ، الكزبر، وجميع الخضر في فصل البرد و يوافقها من الثمار ما كان مائلا إلى الحرارة والرطوبة أو كان فيه	استحال مزاجها لكثرة تقادمه فتغيرت بذلك واحترقت وذهبت رطوبتها وتولدت فيها ملوحة تفسد النبات الهجم الحر على الأرض فينبغي أن يتدارك بالماء الكثير و إلا هلك ما فيها من النبات مسرعا، والبرد يكسر من حرارتها وملوحتها.	45-44

الملحق 11: الآثار المتبقية لمواجل الماء بمدينتي زويلة وأجدابيا.

جانب من الآثار المتبقية من مواجل الماء في كل من مدينتي زويلة واجدابية

الملحق 12: رسم توضيحي يجسد الحمامات العربية القديمة

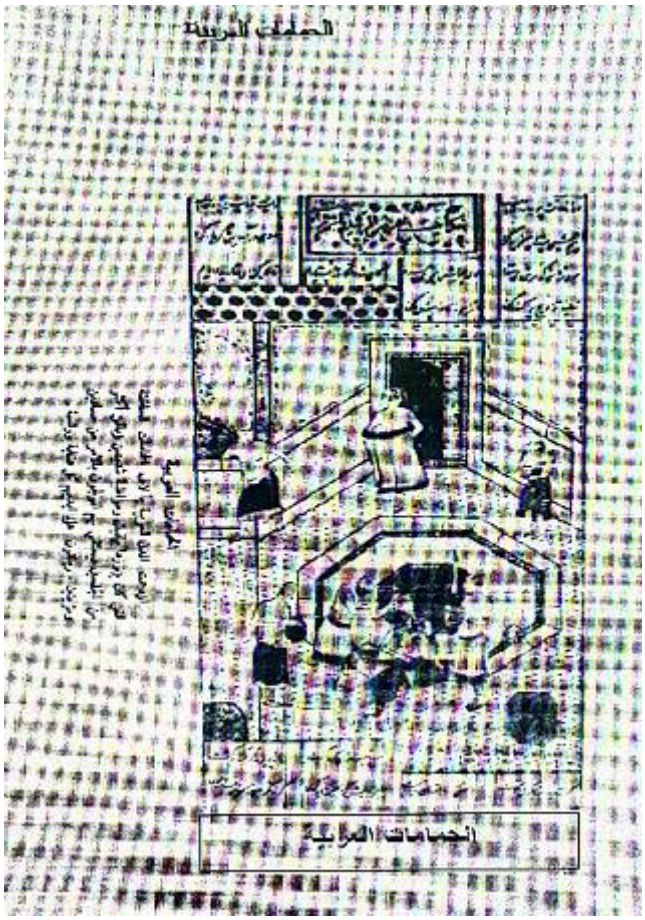

زيغريد هونكة، مرجع سابق ص 565

الملحق 13: خريطة بلاد المغرب الإسلامي والمناطق المجاورة له زمن حسن الوزان(957هـ/1559م).

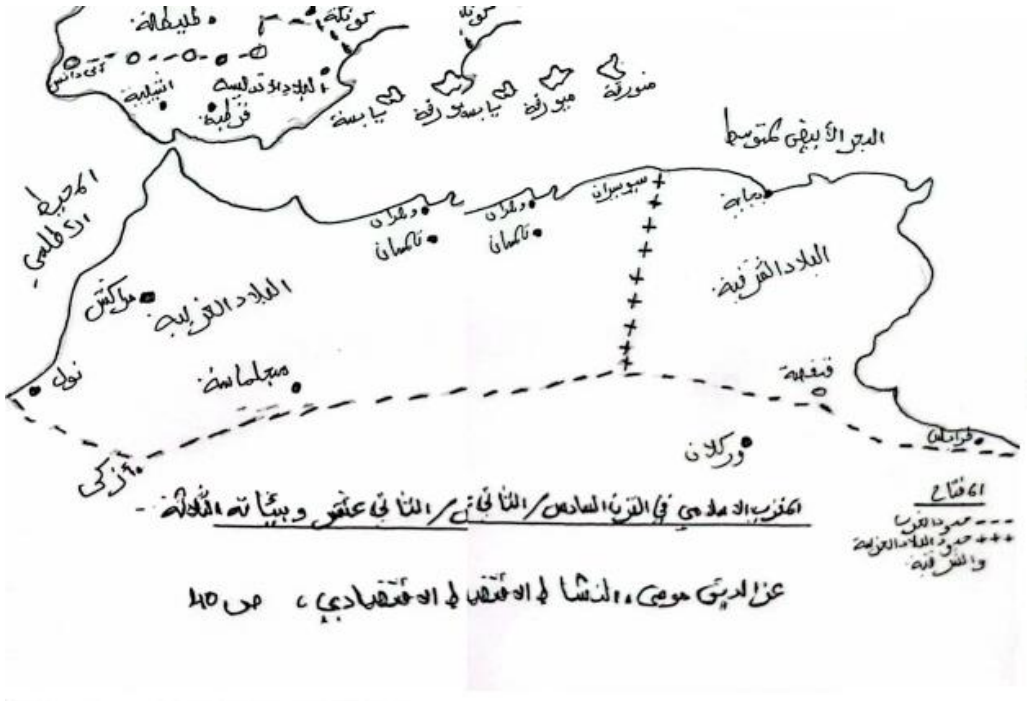

الملحق 14: عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، القرن 6 هـ، ص40

الملحق رقم15 : خريطة بلاد المغرب الاسلامي والمناطق المجاورة له زمن حسن الوزان(957 هـ - 1559م)، الجزء الاول - ط2 1983، ص382 ، وصف افريقيا.

زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب ص568

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

أولا: كتب الحديث:

1- التّرمذي، الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م.

2- ابن ماجة، سنن ابن ماجة، تحقيق أحمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت، د. ط.

ثانيا: المصادر المخطوطة:

3- الأفقهصي، منظومة في آداب الأكل، مخطوط رقم 1347، مكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز الجامعية، تاريخ النسخ 1283هـ.

4- ابن زكون، منتخب الأحكام وبيان ما عمل به من سير الحكام، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم 6576.

5- ابن صعد الأنصاري، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم د 1910م.

6- علي بن حسن المراكشي، علامة السعادة في حكم الأغذية المعتادة، مخطوط بالمكتبة العامة، الرباط، رقم 1121 د.

7- ابن القاضي، لقط الفرائد، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم 2987.

8- ابن ليون التجيبي، إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة، مركز الأبحاث الإسباني.

9- المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، رقم 1336، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر.

10- المازوني، صلحاء شلف، مخطوط الخزانة العامة، الرباط.

11- محمد سعيد الجزائري، الدر المصون في تدبير الوباء والطاعون، مخطوط الخزانة الوطنية الجزائرية، رقم 1124.

ثالثا: المعاجم والقواميس:

12- الفيروز ابادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم الرسوبي، بيروت، 2005م، ط8.

13- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999م.

رابعا- المصـــادر المطبوعة:

14- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1967م.

15- ابن الأحمر، روضة النسرين في أخبار بني مرين، تحقيق وطبع عبد الوهاب بن منصور، 1962م، الطبعة الملكية.

16- ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الدار العربية للكتاب.

17- الأصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الجنبي، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر1961م.

18- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق عامر النجار، ط1، دار المعارف، 1996م.

19- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ب. ط، مكتبة الثقافية الدينية، 1422هـ.

20- الإسرائيلي إسحاق بن سليمان، كتاب الأغذية والأدوية، تحقيق محمد الصباح، ط1، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1412هـ.

21- البرزلي أبي القاسم أحمد البلوي، فتاوى البرزلي، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م.

22- ابن البصال: كتاب الفلاحة، ترجمة خوسي ماريا مياس بييكروسا ومحمد عزيمان، مطبعة كرمادس، معهد محمد مولاي الحسن، تيطوان، 1955م.

23- ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي.

24- البغدادي الكاتب، الطبيخ، دار الكتاب الجديدة، د. م، 1964م، ط1.

25- البكري أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد.

26- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ، ط1.

27- التمبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الدباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989م.

28- التميمي أبو عبد الله الفاسي، المستفاد من مناقب العبّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، ط1، مطبعة طوب بريس، الرباط، 2002م.

29- التيجاني أبو محمد، رحلة التيجاني، تحقيق حسن عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981م.

30- الجاحظ أبو عثمان عمرو، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط2، دار الفكر، مصر، 1375.

31- ابن الحاج، المدخل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1972م.

32- ابن حجر العسقلاني: بذل الماعون في فضل الطاعون، حققه وخرج أحاديثه كيلاني محمد خليفة، دار الكتب الأثرية، ط1، 1993م.

33- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تصحيح سالم الكرنكوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت.

34- حسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حاجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1401هـ.

35- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.

36- ابن حوقل أبو لقاسم، صورة الأرض، ط1، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م.

37- ابن الخطيب، الأصول لحفظ الصحة في الفصول، مخطوط بالمكتبة العامة، الرباط، رقم 652 د.

38- ابن الخطيب السلماني: مقنعة السائل عن المرض الهائل، تحقيق وتقديم حياة قارة، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015م.

39- ابن الخطيب لسان الدين، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985م.

40- ابن الخطيب، الإحاطة بأخبار غرناطة، تحقيق وتقديم محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973م.

41- ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981م.

42- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الهدى، عين مليلة، 2009م.

43- ابن خلصون، كتاب الأغذية، تحقيق وترجمة وتعليق سوزان جيغاندي، دمشق، 1996م.

44- أبو الخير الإشبيلي: عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1990م.

45- الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تعليق ابراهيم شيوخ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط2، 1968.

46- ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس، د. ط، د. ت.

47- الذهبي محمد، ذيول العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، د. ت.

48- الرّازي أبو بكر، الطب الرّوحاني، تحقيق عبد اللطيف العيد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، د. ط، 1978م.

49- ابن الرامي اللخمي، الاعلان بأحكام البنيان، د. ط، تحقيق فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999م.

50- ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، مركز العالمية، أصفهان، د. ت، د. ط.

51- ابن رشد، الكليات في الطب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1999م.

52- ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق محمد صبحي، ط1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1415هـ.

53- ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد الجد فتاوى ابن رشد، تحقيق وتقديم المختار بن طاهر التليلي، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1987م.

54- الرصاع، الأجوبة التونسية عن المسائل الغرناطية، تحقيق محمّد حسن، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1.

55- ابن رضوان المالقي، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق علي سامي النشار، ط1، دار الثقافة، المغرب، 1404هـ.

56- ابن الزبير، صلة الصلة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، تحقيق الهراس وسعيد أعراب.

57- الزجالي القرطبي، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بن شريفة، منشورات وزارة الشؤون الثقافية والتعليم، المملكة المغربية، د. ط، د.ت.

58- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الدار البيضاء، 1972م.

59- الزركشي أبي عبد الله بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماظور، المكتبة العتيقة، تونس، 2002م.

60- أبو زكرياء يحي الاشبيلي، كتاب الفلاحة الاندلسية، تحقيق على رشيد محاسن وآخرون، مطبعة الجامعة الأردنية، ط1، 1433هـ.

61- ابن زهر، كتاب الأغذية، تركيب كبيراتيون غارسيا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1992.

62- ابن زهر، كتاب التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق عبد الله الوداني، مطبعة فضالة، المحمدية، الرباط، 1991م.

63- الزهري أبي عبد الله محمد، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت، د. ط.

64- ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، الدار البيضاء، ط2، 1997م.

65- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تعليق إسماعيل العربي، ط1، مكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1970م.

66- السقطي أبو عبد الله محمد، (ق5هـ/11م) رسالة في ادأب الحسبة والمحتسب، تحقيق ج. س، كولان وليفي بروفنصال، باريس، 1931م.

67- ابن السماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010.

68- ابن سينا، القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999م.

69- السيوطي: ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تحقيق محمد علي البار، دار النشر، دار القلم للطباعة والتوزيع، ط1، بيروت، 1997م.

70- السيوطي جلال الدين وجلال الدين المحلي، تفسير الجلالين تعليق أبوسعيد بلعيد الجزائري، دار الامام مالك للطباعة والنشر، الجزائر، 2010م.

71- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987م.

72- ابن صاعد الأندلسي: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقيق يحي بوعزيز، منشورات الوكالات الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، ط1، 2002 م.

73- ابن صعد الأنصاري، النجم الثاقب في ما لأولياء الله من مفاخر المناقب، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط رقم، د، 1910م.

74- الصومعي، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق علي الجاوي، منشورات جامعة ابن زهر، أكادير، 1996م.

75- الطبراني، المعجم الصغير المسمّى الرّوض الدّاني، تحقيق محمد شكّور محمود الحاج أمرير، ط1، بيروت- عمان، المكتب الاسلامي، دار عمار، 1985م.

76- ابن عباد الرندي، الرسائل الكبرى، مطبعة المعلم الأزرق (حجرية) فاس، 1330ه

77- ابن عبد ربه الحفيد، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول، د. ط، الدار البيضاء، 1985.

78- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الإسكندرية، د. ط، د.

79- ابن عذاري المراكشي، البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت ط3، 1983م.

80- ابن عذاري: البيان المغرب – قسم الموحدين – تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985م.

81- علي بن حسن المراكشي، أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية، تحقيق عبد الله بن ناصر العلوي، المجتمع الثقافي، أبوظبي، 1999م.

82- ابن عماد الجنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1993م.

83- ابن غازي، الروض الهاتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عطا أبو رية، وسلطان بن مليح الاسمري، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط7، 2007م.

84- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م.

85- ابن قاضي شهبة أبو بكر الدمشقي، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دار الجفان والجابي للطباعة والنشر، 1994م.

86- القزويني، عجائب المخلوقات، تحقيق فاروق سعد، دار الافاق الجديدة، بيروت، 1973.

87- القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005م.

88- القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الإنشا، مؤسسة التأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

89- القمري أبي منصور الحسن بن نوح، التنوير في الاصطلاحات الطبية، تحقيق غادة حسن الكرمي، الرياض، 1991م.

90- ابن القنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفارسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، 1965م.

91- ابن القيم الجوزية، الطب النبوي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1377ه.

92- ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، د، ط، د.ت.

93- ابن ليون التجيبي، إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة، مركز الأبحاث الاسباني رقم 14،05،A، رقم3.

94- المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، رقم 1336، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر.

95- المازوني، صلحاء شلف، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط.

96- المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م.

97- مرمول كربخال، إفريقيا ، ترجمة عمر حجي واخرون، د. ط، مكتبة المعارف، الرباط، 1404هـ.

98- مجهول، كنز الفوائد في تنويع الموائد، تحقيق مانويلا مارين وديفيد ويلز، وفرانس شنايلر، شتوتكارت، بيروت، 1993م.

99- مجهول، الاستبصار في عجائب الامصار، نشره وعلق عليه سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1959م.

100- مجهول، الطبيخ في المغرب والأندلس عصر الموحدين، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1961م، د. ط.

101- مجهول، أنواع الصيدلة في أنواع الأطعمة، تحقيق عبد الغني أبو العزم، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات بالرباط، 2003.

102- المجيلدي أبي العباس أحمد بن سعيد، كتاب التيسير في أحكام التّسعير، تقديم وتحقيق، موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.

103- المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، اعتنى به عبد المنعم خليل إبراهيم وكريم سيد محمد محمود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م.

104- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الدار البيضاء، ط1، 2008م.

105- ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

106- ابن مريم محمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثّعالبية، الجزائر، 1326هـ.

107- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، مطبعة بريل، ليدن، 1906م.

108- المقدسي، مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء، تحقيق يحي شعار، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط1، 1999م.

109- المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

110- المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق سعيد أحمد عراب وعبد السلام الهراس، أعيد طبعه تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة 1400هـ/1980م.

111- المقريزي تقي الدين، السلوك لمعرفة الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1 ، دار الكتب العلمية.

112- ابن النفيس، منافع الأغذية ودفع مضارها، ط1، المطبعة الخيرية، المنشآت بحوش، عطي، بجمالية، مصر، 1305هـ.

113- ابن النفيس، المختار من الأغذية، تحقيق يوسف زيدان، ط1، يوليو، 2008.

114- الوليدي أبي الفضل راشد بن أبي راشد، الحلال والحرام ، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط.

115- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حاجي وآخرون، وزارة الاوقاف المغربية، 1981م.

116- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ.

117- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق بوزياني الدراجي، دار الأمل، الجزائر، 2007م.

خامسا- المراجع:

118- آثين بلاسيوس، ابن عربي حياته وآثاره، ترجمة عبد الرحمن بدوي، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1965م.

119- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1998م.

120- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وآثاره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

121- أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، مؤسسة هنداوي، مصر، 2012م.

122- أرنس كونل، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966م.

123- إبراهيم جدلة، المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي، قفصة، المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات، 2010م.

124- إبراهيم القادري بوتشيش، ظاهرة الدين والسلف في العصر الوسيط، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2006م.

125- إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع الذهنيات، الطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1993م.

126- إبراهيم القادري بوتشيش، الخطاب الاجتماعي في الكرامة الصوفية بالمغرب خلال عصر المرابطين والموحدين، مساهمة في دراسة الفكر الاجتماعي للبلدان المتوسطية، كلية الآداب، مكناس.

127- إبراهيم القطان، مطاعمة الملوك في الأدب العربي ، خطاب الطعام في الثقافة الإسلامية، إعداد سهام الدبابي الميساوي.

128- ابن حمادوش، كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب، ط1، باريس، 1874م، ترجمة أحمد بن مراد التركي، 1321هـ.

129- أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت.

130- جماعة من المختصين، معجم النفائس الكبير، إشراف محمد أبو حافة، دار النفائس، بيروت، 2007م، ط1.

131- جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين، دار الوفاء للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1987م.

132- جودة عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المغرب الأوسط، خلال القرنين3-4هـ/9-10م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

133- جوزيف شاخت وكليفورد بوزورت، تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السهوري وآخرون، عالم المعرفة، 1987م. جوزيه دي كاسترو، جغرافية الجوع، ترجمة زكي الرشيدي، تحقيق محمد موسى، دار الهلال، د. ط.

134- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث، بيروت.

135- حركات إبراهيم، النشاط الاقتصادي الاسلامي في العصر الوسيط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت.

136- حسن حافظي علوي، الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط، الطباعة منشورات عكاظ ، مكتبة المهتدين 2011م .

137- حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية، 1983م.

138- حسن علي حسن، الحضارة الاسلامية في المغرب والأندلس، دار الكتب الحديثة، ط2، مصر، 1996م.

139- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، ط10، 2008م.

140- الدهلوي محمد زكريا بن محمد بن يحي، أوجز المسالك الى موطأ مالك، تحقيق أيمن صالح شعبان، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ط، د. ت.

141- رابح خدوسي، موسوعة الأمثال الشعبية، دار الحضارة، د. ط، د. ت.

142- رجب عبد الجواد إبراهيم، ألفاظ المأكل والمشرب في العربية الأندلسية، دراسة في نفح الطيب للمقري، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1.

143- روبرت برانشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ق13-15م، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

144- الزحيلي، نظرية الضرورة الشرعية، دار الفكر المعاصر، بيروت- دمشق، 1994م.

145- زرهوني نور الدين، الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن 6هـ/12م، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2006م.

146- السعداوي أحمد: الآفات والكوارث الطبيعية بالمغرب الوسيط، دار سيراس، تونس، 1982م.

147- سعيد بن حمادة، الماء والإنسان في الأندلس خلال القرن 7 ، 8هـ، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2007م.

148- سعيد بن حمادة، الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، مدخل لدراسة العوائد والقيم، مجلة شرفات، ع77، منشورات الزمن، 2016.

149- السلاوي الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954.

150- سمير سالم وآخرون، الغذاء والتغذية في الإسلام، منظمة الأغذية والزراعة، المكتب الإقليمي للشرق الأدنى، القاهرة، 1420هـ-1999م.

151- سهام الدبابي الميساوي، مائدة إفريقية دراسة في ألوان الطعام، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، 2017م، مطبعة المغرب.

152- الشاطر خليفة، تونس عبر التاريخ، من العهد العربي الإسلامي إلى حركة الإصلاح مطبعة سنباكت، تونس، 2007م.

153- شخوم، الصناعة الصيدلية بالدولة الزيانية من خلال مؤلفات إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني 8هـ/14م، 2013م.

154- شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار الكتب العلمية بيروت، 1997م.

155- صلاح العنتري، مجاعات قسنطينة، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.

156- صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع، دراسة أنثروبولجية لبعض الاعتقادات والتصورات على الجسد، بيروت، دار محمد علي للنشر، ط1، 2008م.

157- طاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6-7هـ/ 12-13م، دار الهدى، عين مليلة، 2004م.

158- عبد الرحمن المجذوب، ديوان عبد الرحمن المجدوب، الطبعة التجارية، د.ت.

159- عبد الرحيم فطاير، الغذاء والتغذية، الدار العلمية الدولية، دار الثقافة، عمان، ط1، 2000م.

160- عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس في القرن 6-8هـ/12-14م، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2008م.

161- عبد الهادي البياض، أثر الكوارث الطبيعية في المجال الاقتصادي بالمغرب الإسلامي، كتاب المجلة العربية، الرياض، 1434هـ.

162- عز الدين علام، الآداب السلطانية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006م.

163- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس هجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2003م.

164- العكاوي رحاب نخضر، الموجز في تاريخ الطب عند العرب، بيروت، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط.

165- فادة بوتان، الأمثال الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987م.

166- فؤاد عبد الله العمر، مقدمة في تاريخ الاقتصاد الإسلامي، ط1، مكتبة فهد الوطنية، جدة، 1424هـ.

167- قارنر كورل، طبائع الناس وطرق التعامل معها، ترجمة عمار فسيس، دمشق، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، 2014م.

168- كريمي ماجدة، قراءة المدينة الموحدية والمرينية من خلال أزمة المجاعات والأوبئة، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2009م.

169- مجموعة من المؤلفين – كتاب جماعي - الطب والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور، المركز الديمقراطي العربي، برلين، 2003م.

170- محمد البركة وآخرون، النظام الغذائي في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، دراسات في سيكولوجيا الأحكام والعوائد، سلسلة الشرفات، ع77، سلا.

171- محمد بشير العامري، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي.

172- محمد حاجي و اخرون ، معلمة المغرب، ج2، مطابع سلا، 1410هـ.

173- محمد حسن، الجغرافيا التاريخية لإفريقية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.

174- محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، أوربيس للطباعة، تونس 1999م.

175- محمد صبري محسوب وآخرون، الأخطار والكوارث الطبيعية الحدث والمواجهة معالجة الجغرافيا، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1419ه.

176- محمد ضيف الله بطاينة، الاطعمة والاشربة عند العرب في صدر الإسلام ظن مجلة دراسات العدد الأول، عمادة البحث العلمي، عمان، جمادى الأول، 1406ه، 1986م.

177- منى خليل عبد القادر وآخرون، أساسيات علم التغذية، مجموعة النيل العربية، القاهرة، ط1، 2005م.

178- ابن ميلاد، الطب العربي في تونس، دار النشر، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1980م .

179- نصر السيد حسني، العلوم في الاسلام، دار الجنوب، تونس.

180- نللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع، دار الطليعة، بيروت، ط1.

181- نون شيشل: ظاهرة الدين والسلف في المجتمع المغربي في العصر الوسيط، أساليب التعامل والإشكاليات المطروحة ضمن حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2006م.

182- الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن العاشر إلى الثاني عشر، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م. 180- الهلالي محمد ياسر، أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة

الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المغرب، 2002م.

183- يوسف نكادي، الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، مطبعة الجسور، وجدة، ط1، 2007م.

سادسا- المراجع باللغة الأجنبية:

184- MEHAMED KABLY : société pouvoir et religion au Maroc a la fin du moyen Age, XIV-XV siècle, préface de Claude cahen, paris, éditions maison neuve et la rosse, 1986.

185- Pierre chonul expansion européenne du x siècle au xv siècle, 1983 .

186- ROGER LE TOURNAU: les avant le protectorat, société marocaine, librairie, édition Casablanca, 1949 .

سابعا- الرسائل والأطروحات الجامعية:

187- بختة خليلي، الفقر بالمغرب الاسلامي ما بين القرنين 7-9هـ/13-15م واقعه وآثاره، أطروحة دكتوراه، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2015-2016م.

188- زينب ملياني، الاطعمة والأشربة بالمغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين، أطروحة دكتوراه، 2016-2017م.

189- سمية مزدور، المجاعة والأوبئة في المغرب الأوسط، 588ه-927ه/1192-1520م، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1429هـ-1430هـ.

190- سياب خيرة، المياه ودورها الحضاري في المغرب الإسلامي من القرن (7-10هـ) أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2013-2014م.

191- شرقي نوارة، الحياة الاجتماعية في المغرب الاسلامي العهد الموحدي (524هـ-667هـ) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2007-2008م.

192- صديقي محمد، الأمراض والخدمات الصحية في بلاد المغرب الإسلامي ما بين القرنين 5-7هـ/11-13م، أطروحة دكتوراه، الطور الثالث، 2020-2021م، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي.

193- عبد العالي حتمي، التغذية في المغرب والأندلس في العصر الوسيط قضايا ونماذج، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2001-2002م.

194- فوزية عبد اللطيف شحادة، فن الطبخ والموائد في العصر العباسي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة القديس يوسف، 1985م.

ثامنا- المجلات (المقالات):

195- إبراهيم القادري بوتشيش وعبد الهادي البياض: ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات، المغرب والأندلس من القرن 6-8هـ، عصور الجديدة، عدد 7-8.

196- أمين البزاز، هول المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط، مجلة كلية الآداب، ع28، الرباط، 1993م .

197- سعيد بن حمادة، الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، مدخل لدراسة العوائد والقيم، مجلة شرفات، عدد 77، منشورات الزمن، 2016م.

198- محمد الأمين البزاز، الطاعون الأسود في القرن 14 ميلادي ، منشور في مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، العدد 16 .

199- محمد بلاجي، أقنعة الطعام، مجلة أمل، 1999م.

200- محمد معروف ونشاط مصطفى، التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني، مج6، ع17، بحوث ومقالات.

201- نجم الدين الهنتاتي، مسائل المياه في المدينة بالغرب الإسلامي الوسيط من خلال كتب الفقه المالكية، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 102-103، زغوان.

فهرس المواضيع

العنوان	الصفحة
الاهداء	أ
شكر وتقدير	ب
مقدمة	5
الفصل التمهيدي: حدود بلاد المغرب من خلال المعايير السياسية والجغرافية	19
تمهيد	20
أولا: معايير خط ورسم حدود بلاد المغرب الاسلامي	20
أ- المعايير السياسية	20
ب- المعايير الجغرافية	23
ثانيا : الكتابات الجغرافية في تحديد معالم حدود المغرب الاسلامي	24
الفصل الأوّل : الانتاج الزراعي في ظل أساليب الري وجودة الأرض	30
أوّلا: أساليب الري والسقي	31
- الأنهار	31
- الأمطار	32
- نظام جر المياه	33
- المواجل والصهاريج والفقارات	34
المواجل	34
الصهاريج	35
السدود	36
ثانيا:طبيعة مياه السقي وأثرها على الزرع	39
ثالثا:جودة الأرض وخصوبة التربة	41
أساليب تخصيب الأرض	42
تعديل الأرض وتسويتها قبل غرسها	42
حرث الأرض وتقليب التربة	43
ضرب زراعة الأرض	43
أساليب استصلاح الأرض وزراعتها	43
التسميد وأنواعه	43

انواع الأرض	44
ثالثا: الغلاّت الزراعية	47
الفصل الثاني:أصناف الأطعمة في بلاد المغرب الاسلامي بين مجتمع العامة ومجتمع الخاصّة	60
أوّلا:مفاهيم أساسية حول الغذاء	61
مفهوم النظم الغذائية	61
مفهوم التغذية	62
علم التغذية والغذاء	62
ثانيا:تطور فن الطبخ في المغرب الاسلامي	63
مؤلفات حول فن الطبخ	63
الأطعمة والأشربة في الشعر والزجل	66
ثالثا:الأذواق والموائد	67
أنواع الأطعمة	67
ترتيبها عند التقديم	76
النظام الغذائي لدى طبقات المجتمع	77
مائدة الطبقة الخاصة والملوك	79
مائدة العوام والفقراء	83
رابعا:قراءات طبية في بعض الأغذية والأشربة	85
الفصل الثالث:النظام الغذائي زمن الشدة	88
تمهيد	89
أوّلا:النظام الغذائي زمن المجاعة والأوبئة	89
الطعام زمن المجاعة	89
ظاهرة استهلاك الأغذية قبل نضجها	90
العودة الى الأغذية النباتية	93
العودة الى الاقتصاد البحري	96
العودة الى النمط البدائي في تحصيل الغذاء(الالتقاط)	100
التحوّل الى الأغذية المقززة	101
ممارسة السلوك العدواني لتحصيل القوت	110

ب-غذاء زمن الشدة في الأمثال الشعبية	112
ثانيا: موقف الفقهاء والصوفية من أطعمة المجاعات	115
أ- الخطاب الفقهي	118
ب-الخطاب الصوفي في أغذية المجاعة	118
ثالثا: جهود الدولة في تأمين الغذاء	127
الفصل الرابع:الأمراض والأوبئة وطرق الوقاية في بلاد المغربالاسلامي من ق4ه-ق8ه/10م-14م	133
تمهيد	134
أوّلا:الوضع الصحي العام في بلاد المغرب الاسلامي خلال هذه الفترة	135
أ-تاريخ تطوّر الطب في المغرب الاسلامي	135
ب-ملامح الحياة الصحية في المدن والبوادي	139
ج-البنية التحتية الصحية -الحمامات -المرافق الصحية -البيئة	141
د-نظرة المجتمع للأمراض وأسبابها	146
ثانيا:أبرز الأوبئة والأمراض في المغرب الاسلامي	148
أ-الأمراض المنتشرة في المغرب الاسلامي	148
1-مرض الطاعون	149
2-مرض الحصبة-الجذام والحمى الوبائية	151
ب-الأمراض النفسية:	154
ج-مدى انتشار هذه الأمراض وأثرها على السكان	157
ثالثا:جهود العلماء والحكام والفقهاء للتصدي للأوبئة	160
أ-اجراءات الحكام للحد من الأوبئة	161
ب- اجراءات الأطباء في التصدي للوباء	162
ج-جهود الفقهاء	164
رابعا: وسائل الوقاية وأساليب العلاج	165
أ-العلاج بالأعشاب والطب التقليبدي	165
ب-العزل الصحي والحجر وأسلوب الوقاية	168
ج-دور المؤسسات مثل البيمارستانات والزوايا	171
د-دور الزوتايا الصوفية في العلاج	172

ه-دور الأغذية الصحية في الوقاية من الأمراض	175
الخاتمة	179
الملاحق	184
قائمة المصادر والمراجع	196
فهرس المواضيع	213
ملخص الاطروحة	218

ملخص الأطروحة

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع نظام الغذاء والصحة في المغرب الإسلامي بين القرنين الرابع والثامن الهجريين، باعتباره تحولًا نوعيًا في تناول أنماط الحياة الاجتماعية التي عرفها سكان هذه المنطقة .فقد ساهم تنوّع البيئة وأهمية الموقع الجغرافي للمغرب الإسلامي في جعل نظام الغذاء والصحة انعكاسًا مباشرًا للمستوى المعيشي للسكان.

لقد أدى توفر المياه والتربة الخصبة وتطور أنظمة الري إلى تنوع الإنتاج الزراعي وتعدد المحاصيل الفلاحية، مما جعل المغرب الإسلامي ينافس بلاد الأندلس، التي أفادته بتقنيات المزارعة وخدمة الأرض . وأسهم ذلك في ازدهار فنون الطهي والمائدة، حتى أصبحت جزءًا من الموروث الثقافي الذي عبّر عنه الأدب الشعبي .كما اختلفت الأطعمة والموائد باختلاف الطبقات الاجتماعية والمكانة، وترسخت لدى المجتمع قناعة بأن استمرار حياة الإنسان مرهون بتوافر الغذاء والصحة.

لم يكن المغرب الإسلامي في منأى عن الكوارث مثل الجفاف والمجاعات والأوبئة، ما أدى إلى تدهور النظام الغذائي وسوء أحوال السكان .وقد دفعت هذه الأزمات السلطات إلى التدخل عبر فتح المخازن وفرض الضرائب على المحتكرين لتأمين الغذاء للعامة، كما ساهم المتصوفة في التخفيف من معاناة الناس وتقديم ما تيسر من الغذاء لهم.

وفي الجانب الصحي، بادرت الدولة إلى إنشاء نظام متكامل لحماية السكان من الأمراض والأوبئة، من خلال تشييد البيمارستانات والمراكز الصحية، وتأهيل الأطباء، واعتماد إجراءات الحجر والعزل، وتقديم العلاج المجاني للفقراء، ومتابعة حالات المرضى حتى شفائهم.

وعليه، يُعد موضوع نظام الغذاء والصحة طرحًا جديدًا في مسار الكتابات التاريخية، إذ يتجاوز المنهج الكلاسيكي الذي ركّز غالبًا على التاريخين السياسي والعسكري، ليفتح آفاقًا جديدة في دراسة الجوانب الاجتماعية والحضارية للمغرب الإسلامي.

Abstract :

This study addresses the topic of the food and health system in the Islamic Maghreb between the 4th and 8th centuries AH, as a qualitative shift in the analysis of social lifestyles known to the inhabitants of this region. The diversity of the environment and the strategic geographic position of the Islamic Maghreb made the food and health systems a direct reflection of the population's living standards.

The availability of water, fertile soil, and the development of irrigation systems contributed to diversified agricultural production and a variety of crops. This allowed the Maghreb to rival al-Andalus, which had provided it with farming and land management techniques. As a result, culinary arts flourished and became part of the cultural heritage celebrated in popular literature. Food and dining customs differed according to social class and status, reinforcing the belief that human existence is closely linked to the availability of food and health.

However, the Maghreb was not spared from calamities such as droughts, famines, and epidemics, which led to the deterioration of the food system and the worsening of living conditions. These crises prompted the authorities to intervene by opening food reserves and imposing taxes on hoarders to secure food supplies for the general population. Sufi communities also played a role in alleviating suffering by providing food to those in need.

On the health front, the state sought to protect its citizens by establishing a comprehensive system against disease and epidemics through the construction of bimaristans (hospitals), health centers, and by training physicians. Other preventive measures such as quarantine, isolation, and free treatment for the poor were implemented, ensuring medical care until patients recovered.

Thus, the study of food and health systems represents a modern and innovative approach in historical research, moving beyond the classical focus on political and military history to explore the social and cultural dimensions of the Islamic Maghreb.

Resumen :

Este estudio aborda el tema del sistema alimentario y sanitario en el Magreb islámico entre los siglos IV y VIII de la Hégira, como un cambio cualitativo en el análisis de los modos de vida social conocidos por los habitantes de esta región. La diversidad del entorno y la importancia estratégica de su ubicación geográfica hicieron que los sistemas de alimentación y salud fueran un reflejo directo del nivel de vida de la población.

La disponibilidad de agua, la fertilidad del suelo y el desarrollo de sistemas de riego contribuyeron a diversificar la producción agrícola y a ampliar la variedad de cultivos. Esto permitió que el Magreb rivalizara con al-Ándalus, que le transmitió técnicas de cultivo y de manejo de la tierra. Como resultado, florecieron las artes culinarias y gastronómicas, convirtiéndose en parte del patrimonio cultural expresado en la literatura popular. Los alimentos y las costumbres de mesa variaban según la clase social y la posición, reforzando la creencia de que la existencia humana depende directamente de la disponibilidad de alimentos y salud.

Sin embargo, el Magreb no estuvo exento de calamidades como sequías, hambrunas y epidemias, que deterioraron el sistema alimentario y agravaron las condiciones de vida. Estas crisis llevaron a las autoridades a intervenir abriendo los almacenes de alimentos e imponiendo impuestos a los acaparadores, con el fin de garantizar el sustento del pueblo. Las comunidades sufíes también contribuyeron a aliviar el sufrimiento ofreciendo alimentos a los necesitados.

En el ámbito sanitario, el Estado actuó para proteger a la población mediante la creación de un sistema integral contra las enfermedades y epidemias, construyendo bimaristanes (hospitales) y centros de salud, y formando médicos. Asimismo, se aplicaron medidas preventivas como la cuarentena, el aislamiento y la atención médica gratuita a los pobres, asegurando el tratamiento hasta la recuperación del paciente.

Por lo tanto, el estudio del sistema alimentario y sanitario constituye un enfoque moderno e innovador dentro de la investigación histórica, que supera la orientación clásica centrada en la historia política y militar, para explorar las dimensiones sociales y culturales del Magreb islámico.

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع نظام الغذاء والصحة في المغرب الإسلامي بين القرنين الرابع والثامن الهجريين، باعتباره تحولًا نوعيًا في تناول أنماط الحياة الاجتماعية التي عرفها سكان هذه المنطقة .فقد ساهم تنوّع البيئة وأهمية الموقع الجغرافي للمغرب الإسلامي في جعل نظام الغذاء والصحة انعكاسًا مباشرًا للمستوى المعيشي للسكان.

لقد أدى توفر المياه والتربة الخصبة وتطور أنظمة الري إلى تنوع الإنتاج الزراعي وتعدد المحاصيل الفلاحية، مما جعل المغرب الإسلامي ينافس بلاد الأندلس، التي أفادته بتقنيات المزارعة وخدمة الأرض . وأسهم ذلك في ازدهار فنون الطهي والمائدة، حتى أصبحت جزءًا من الموروث الثقافي الذي عبّر عنه الأدب الشعبي .كما اختلفت الأطعمة والموائد باختلاف الطبقات الاجتماعية والمكانة، وترسخت لدى المجتمع قناعة بأن استمرار حياة الإنسان مرهون بتوافر الغذاء والصحة.

لم يكن المغرب الإسلامي في منأى عن الكوارث مثل الجفاف والمجاعات والأوبئة، ما أدى إلى تدهور النظام الغذائي وسوء أحوال السكان .وقد دفعت هذه الأزمات السلطات إلى التدخل عبر فتح المخازن وفرض الضرائب على المحتكرين لتأمين الغذاء للعامة، كما ساهم المتصوفة في التخفيف من معاناة الناس وتقديم ما تيسر من الغذاء لهم.

وفي الجانب الصحي، بادرت الدولة إلى إنشاء نظام متكامل لحماية السكان من الأمراض والأوبئة، من خلال تشييد البيمارستانات والمراكز الصحية، وتأهيل الأطباء، واعتماد إجراءات الحجر والعزل، وتقديم العلاج المجاني للفقراء، ومتابعة حالات المرضى حتى شفائهم.

وعليه، يُعد موضوع نظام الغذاء والصحة طرحًا جديدًا في مسار الكتابات التاريخية، إذ يتجاوز المنهج الكلاسيكي الذي ركّز غالبًا على التاريخين السياسي والعسكري، ليفتح آفاقًا جديدة في دراسة الجوانب الاجتماعية والحضارية للمغرب الإسلامي.

الكللمات المفتاحية: المغرب الإسلامي، الوباء، البيمارستان، نظام الغذاء

Abstract :

This study addresses the topic of the food and health system in the Islamic Maghreb between the 4th and 8th centuries AH, as a qualitative shift in the analysis of social lifestyles known to the inhabitants of this region. The diversity of the environment and the strategic geographic position of the Islamic Maghreb made the food and health systems a direct reflection of the population’s living standards.

The availability of water, fertile soil, and the development of irrigation systems contributed to diversified agricultural production and a variety of crops. This allowed the Maghreb to rival al-Andalus, which had provided it with farming and land management techniques. As a result, culinary arts flourished and became part of the cultural heritage celebrated in popular literature. Food and dining customs differed according to social class and status, reinforcing the belief that human existence is closely linked to the availability of food and health.

However, the Maghreb was not spared from calamities such as droughts, famines, and epidemics, which led to the deterioration of the food system and the worsening of living conditions. These crises prompted the authorities to intervene by opening food reserves and imposing taxes on hoarders to secure food supplies for the general population. Sufi communities also played a role in alleviating suffering by providing food to those in need.

On the health front, the state sought to protect its citizens by establishing a comprehensive system against disease and epidemics through the construction of bimaristans (hospitals), health centers, and by training physicians. Other preventive measures such as quarantine, isolation, and free treatment for the poor were implemented, ensuring medical care until patients recovered.

Thus, the study of food and health systems represents a modern and innovative approach in historical research, moving beyond the classical focus on political and military history to explore the social and cultural dimensions of the Islamic Maghreb

. Keywords: Islamic Morocco, epidemic, hospital, food system